مقدمة

فرغنا والحمد لله من الحلقة الرابعة لسلسلة روايات الاسلام وفيها تفصيل خبر المؤامرة المشهورة على قتل الثلاثة العظام الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص في السنة الاربعين للهجرة وتفصيل مقتل الامام علي مع ما رافق ذلك من الحوادث التي تبين حال الخوارج وانقسام العالم الاسلامي واستداد الفتن الى نازل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان اول خلفاء بني امية

وستتبع رواية « ١٧ رمضان » هذه رواية اخرى هي الحلقة الخامسة من السلسلة المذكورة نبسط فيها مقتل الامام الحسين وما يتقدمه ويتبعه من الفتن والحروب وسندعوها « عادة كربلاء » نسبة الى المكان الذي قتل فيه الحسين . ونسترها بالحقة السنة التاسعة من الهلال . ونسأل الله ان يوفقنا الى تمام هذه الخدمة وهو حسبنا ونعم الوكيل

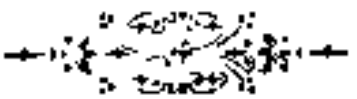

www.marefa.org

marefa.org

موسوعة المعرفة

المعرفة مشروع علمي ثقافي يهدف لجمع المحتوى العربي والإضافة إليه، لإنشاء موسوعة دقيقة، متكاملة، متنوعة، مفتوحة، محايدة ومجانية، يستطيع الجميع المساهمة في تحريرها، بالكتابة أو بالاقتباس من مصادر مرخصة بالنقل. بدأت المعرفة في 16 فبراير 2007 ويوجد بها الآن 35,587 مقال و 2,409,583 صفحة مخطوط فيها.

خلافاً للغات العالم الكبرى الأخرى، تفتقر الثقافة العربية إلى المحتوى الإلكتروني، ويفاقم من ذلك الوضع قصر عمر المواقع الإلكترونية العربية، مما يجعل محتواها الإلكتروني مملوكاً لكيان اعتباري قد زال من الوجود، ولا يستطيع حتى كاتب المحتوى نشره في مكان آخر.

لذا فندعو المهتمين إلى المساهمة في جمع تراثنا في موسوعة المعرفة الحرة والحصول على تصاريح النقل من مختلف المصادر وتوعية أصحاب تلك المصادر ببدائل علامة حفظ الملكية التي تتيح نشر المعرفة. **ادع أصدقاءك للكتابة في أي موضوع معرفي يهمهم.**

مشروع معرفة المخطوطات

تشهد الثقافة العربية تراجعاً على كافة الأصعدة. ونتيجة لذلك تخلى العديد من الشعوب عن استخدام الأبجدية العربية، مما أدى إلى سقوط مراكز إشعاع الثقافة العربية في تلك الشعوب في غياهب النسيان. فنرى حواضر حيدر أباد وتنبكتو وزنجبار وسمرقند ملأى بمئات الآلاف من المخطوطات العربية في حالة يرثى لها من الإهمال. ولقد شكلت التقنية الحديثة من الماسحات الضوئية والإنترنت بارقة أمل. إذ أصبح بإمكان المتطوعين، حيثما كانوا، المشاركة في تحويل تلك المخطوطات الممسوحة إلى نصوص رقمية يعم نفعها الجميع.

وتفخر موسوعة "المعرفة" بحصولها على 25,000 مخطوط تحتوي على 2,409,583 صفحة من المخطوطات من حكومة الهند، وهي تمثل 5% من المخطوطات باللغة العربية التي يعملون على مسحها ضوئياً. قائمة بروكلمان لأهم مصادر الكتب والمخطوطات العربية تضم 16 مكتبة بالهند بين أهم 168 موقع بالعالم. أمدتنا الهند كذلك بملايين الصفحات بالفارسية والتركية (بحروف عربية). وبعد أن كانت الهند أكبر مشتر وقارئ للأدب العربي أصبحت اليوم لا تجد بين أبنائها من هو قادر حتى على قراءة عناوين تلك المخطوطات. الفرصة سانحة لإثراء تراثنا ودعم أواصر التعاون الإنساني مع حضارة الهند الصديقة. المشروع ذاته يجري تكراره مع تجمعات Corpora المخطوطات العربية الكبرى في الصين وتنبكتو (مالي).

هذه قائمة جزئية للمخطوطات التي لدينا. إذا كنت تريد أن نعجل بنشر أي منها فأخبرنا بالضغط هنا.

خطوات المشروع:

1. الحصول على صور المسح الضوئي للمخطوطات.
2. نشر المخطوط إلكترونياً مقروناً بمقالات من موسوعة المعرفة متعلقة بالمخطوط والكاتب. ويمكن للجميع تحميل المخطوط. قائمة المخطوطات الجاهزة للتحميل.
3. تدوين المخطوطات, أي تحويل الصورة إلى نص حرفي يمكن التعامل التحريري معه، وذلك للمخطوطات التي لا يوجد لها نصوص. وهذا عن طريق مشروع معرفة المخطوطات الذي يضم برنامج تدوين المخطوطات عن بعد Distributed Proofreading. وتلك الخطوة تتطلب جهداً فائقاً ندعو القراء للمشاركة فيه (بالتسجيل هنا).
4. تقديم نص المخطوط إلى مشروع گوتنبرگ Gutenberg Project لنشر كتب التراث العالمي. وقد انضمت موسوعة المعرفة **لمشروع گوتنبرگ** وهي بذلك المشارك العربي الوحيد في هذا المشروع العالمي.

مع تحيات مدير المشروع

د. نايل الشافعي

www.marefa.org

الفصل الاول

﴿ الخوارج ﴾

الخوارج جماعة من رجال الامام علي ثاروا عليه لانه قبل بالتحكيم على اثر واقعة صفين (راجع عذراء قريش) وكانوا قبل ذلك في مقدمة الذين حرضوه على قبوله . لكنهم لما رأوا التحكيم آل الى الحكم بخروج الخلافة منه الى معاوية بن ابي سفيان نقضوا بيعته ونبذوا طاعته وطمعوا في السلطة لانفسهم فبايعوا واحداً منهم اسمه عبد الله بن وهب طار بوا نحت رايته زمناً

ولما صدر حكم الحكمين بخلع علي وتثبيت معاوية انتقد ابو موسى ابو معاوية و بويع بالخلافة في الشام . وكان الخوارج لا يزالون في بدء امرهم فاخذ علي يتجهز لحرب معاوية . وفيما هو يتجهز جاءه الخبر بتأليب الخوارج وتمردهم فنصح لهم وجادلهم و بيّن لهم انه لم يخطئ بقبول التحكيم وانه لم يفعله الا اجابة لطلبهم فلم يرتدعوا . فرأى ان يستأصل شأفتهم قبل خروجه الى معاوية - فحاربهم في مواقع عديدة اشهرها واقعة النهروان وراء دجلة بالقرب من مكان بغداد انتصر فيها عليهم نصراً مبيناً وشتت شملهم تشتيتاً ولكنهم ما زالوا يجتمعون سرّاً

وفي سنة ٣٨ ه فتح عمرو بن العاص مصر وقتل محمد بن ابي بكر عاملها وتولاّها باسم معاوية فاصبح معاوية خليفة في مصر والشام ومقامه دمشق . وبقي علي في العراق والجزيرة والحجاز واليمن ومقامه الكوفة

واخذ معاوية يبعث سراياه الى بلاد الامام علي يلتمس افتتاحها للاستقلال بالخلافة . فانفذ جنداً الى مكة وآخر الى اليمن وآخر الى الجزيرة يحاربون ويناوشون ولكنهم لم يبلغوا اربًا . فدخلت سنة اربعين للهجرة وعليّ يتأهب للخروج على معاوية وقد بايعه اربعون الفاً من عسكره على الموت . وفي ما هو في ذلك فاجأه القدر فمات مقتولاً كما سترى تفصيل ذلك في ما يلي

www.marefa.org

الفصل الثاني

﴿ الكوفة عاصمة الامام علي ﴾

هي مدينة اسلامية مصّرها سعد بن ابي وقاص احد كبار الصحابة في السنة السابعة عشرة للهجرة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب بعد ان فتح العراق وقد اشار عليه عمر ان يقيم في مكان لا يحول بينه وبين المدينة بحر ولا جسر حتى اذا اراد ان يقدم اليه على راحلته قدم [1] فبنى الكوفة في غربي الفرات على شاطئ بحيرة كانت هناك بقرب مكان الحيرة بينها وبين الفرات بضعة وعشرون ميلاً

وكان بناؤها في اول امرها بالقصب فاصابها حريق فاستأذنوا الخليفة عمر في بنائها باللبن فقال « افعلوا ولا يزيدنّ احدكم على ثلاثة ابيات ولا تطاولوا في البنيان والزموا السنّة يلزمكم الدوله » ففعلوا ذلك وجعلوا طرقها نوعين المناهج والازقة وجعلوا عرض المنهج عشرين ذراعاً وعرض الزقاق سبعة اذرع . وما بين المناهج اماكن البناء اربعون ذراعا . والقطائع ستون ذراعا . واول شيء خطوه فيها المسجد . فوقف في وسط المدينة رجل شديد النزع رمى الى كل جهة بسهم وامروا ان يبنى ما وراء ذلك . واما الساحة حول ذلك الرامي الى مرمى سهامه فتبقى للمسجد

وبنوا في مقدمة المسجد ظلة او رواقاً اقاموه على اساطين رخام من بناء الاكاسرة نقلوها من اخربة الحيرة . وجعلوا على الصحن خندقاً لئلا يقتحمه احد بنيان وبنوا لسعد بن ابي وقاص قصراً بجانب المسجد نقلوا حجارته من آجر بنيان الاكاسرة وسموه قصر سعد [1]

وما زالت الكوفة تعمر حتى اتخذها الامام علي مقراً له بعد واقعة الجمل سنة ٣٦ هـ فازدادت عمارتها بما تقاطر اليها من الناس بعد ان صارت عاصمة الخلافة وتكاثرت فيها الابنية وعمرت الاسواق وانشئت حولها الحدائق والبساتين ما يلي بحيرتها

---

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

الفصل الثالث

غادة الكوفة

وكان في ضاحية الكوفة على شاطىء الجيرة حديقة من نخيل حولها سور من جذوع النخل يحيط بالحديقة الاّ من جهة الجيرة . وفي وسط الحديقة بيت مبني من اللبن يدلّ شكله على ان سكانه من اهل اليسار وقد يخيل لك اذا دخلت الحديقة انها مسكن بعض الامراء ذوي الخدم والحشم لما ترى بين نخيلها من آثار المعالف والاوتاد والسلاسل والقيود . وترى جذوع بعض النخيل قد نأكلت من شد الامراس اليها على توالي الايام او من لعهد الافراس تشيرها باسنانها وهي مشدودة اليها

وكان الوقت ليلاً في اوائل السنة الاربعين للهجرة في زمن الخريف [1] وقد نضج الثمر على نخيلها وليس من بقعة تتساقط بعضة على الارض وليس من يلتقطه . وكان القمر بدراً وقد اطلّ من وراء الآكام فارسل اظلال النخيل مستطيلة متقاطعة . والجو هادئ والسكوت سائد لبعد المكان عن المدينة وضوضائها فلا تسمع غير نقيق الضفادع على شاطىء تلك الجيرة يقطعه صرير الصراصير وقرقرة الفر . وربما هبّ النسيم فاسمعك حفيف سعف النخل هنيهة ثم انقطع . ولقد تعجب لوحشة ذلك المكان مع ما تراهُ فيهِ من آثار الانس ودلائل الانيهة

ولو دخلت المنزل لرأيتهُ عبارة عن دار وثلاث غرف مستطرفة بعضها الى بعض مفروشة ارضها بحصر من سعف النخل فوقها جلود الماعز الاّ غرفة في ارضها طنفسة جميلة عليها وسائد من الخز . وفي بعض جوانب الغرفة مصباح ضعيف النور . وعلى احدى تلك الوسائد فتاة في مقتبل العمر اشرق وجهها بهاء الشباب . وقد حلت شعرها الاسود فارسلتهُ على كتفيها فحجب بعض جبينها وغطى عذاريها فحجب قرطيها وسالفيها ولكنهُ زاد عينيها كحلاً واشراقاً . ترى تينك العينين الدعجاوين من البراقتين قد غسلها الدمع واخذ يغدر على وجنتين محمرتين بينهما انف دقيق مستقيم تحتهُ فم صغير . فاذا زاد انسكاب الدمع استلقتهُ باطراف جدائلها او باحد كميها . وكانت

(١) اليوم العام

www.marefa.org

لابسة جلبابا اسود حدادا على قتيليها . ولم يزدها ذلك الحداد الا جمالا وفتنة . وكأن تلك العادة اسناً نست بوجودها فاطلقت لنفسها عنان البكاء حيث لا رقيب ولا عدو فاخذت تلطم خديها وتندب قتيلين عزيزين قتلا في يوم واحد

تلك هي قطام بنت شحنة بن عدي[1] من قبيلة تيم الرباب . تلك هي فتاة الكوفة الفتانة التي ذاع صيتها في الآفاق وسبع بجمالها الناصبي والداني حتى اصبحت فتنة الكوفيين ومضرب امثالهم . وقد شخصت اليها الابصار وحامت حولها القلوب فباتت معجبة بجمالها لا تعرف هماً ولم تذق غماً حتى بليت بقتل والدها واخيها معاً

قتل والدها واخوها في واقعة النهروان[2] وكانا من جملة الخوارج الذين ثاروا على علي لقبولهم بالتحكيم فانضموا الى من نقض بيعة وحاربوا في جملة من حاربه

وكانت قطام ثائرة الجاش شديدة الانتقام ذات حيلة ودهاء ما انفكت منذ قتل والدها واخوها وهي تندبهما وتلتمس الانتقام لهما ولكنها لم تكن تستطيع المجاهرة بذلك والكوفة مقرّ الامام علي وجميع انصاره وشيعته . فاقامت في منزلها هذا في ضاحية الكوفة وحيدة ليس معها سوى عبد كهل ربي في اهلها منذ صباه . فلما بليت بمصيبتها هجرها سائر الخدم والاعوان الا هذا . وكانت ترتاح الى بث شكواها له وتبوح عنها وتعدها بنيل المرام

وكانت قد اتخذته في اصيل ذلك اليوم يستقدم لها عجوزاً من مولدات الكوفة كانت قد ربيت بين ذراعيها منذ نعومة اظفارها وهي تحنّ اليها حنين الوالدة . فطال غيابه وبدل الليل نقابه ولم يعد . فانشغل خاطرها وشغلت عن احزانها بالهواجس لانفرادها في ذلك المكان . ولكنها كانت اذا سكتت هنيهة تذكرت والدها واخاها ومن كان يقيم في تلك الدار من الخدم والعبيد فتعود الى البكاء والنحيب

الفصل الرابع

﴿ العجوز لبابة ﴾

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام مسرعة عرفت انها خطوات عبدها ريحان

(١) الحميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٤

www.marefa.org

فاجفلت ولكنها استأنست به فوقفت وأسرعت لاستقباله . وكان ريحان طويل القامة شديد السواد خفيف العضل سريع الحركة جاحظ العينين افطس الانف عظيم الوجنتين بارز الاسنان وبزيدها بروزاً تدلي شفته السفلى وانحسار شفته العليا وكان يستهلك في خدمة سيدته فابتدرها بالسلام . فقالت وما الذي اخرك يا ريحان وانت تعلم اني وحيدة هنا . اين هي لبابة

قال انها قادمة سريعاً

قالت وما سبب غيابك حتى الآن

قال كنت في انتظارها وهي تخاطب شاباً وتجادله ....

قالت واي شاب

قال . لا ادري ... ها قد أتت وهي تقص عليك الخبر مفصلاً

وما تم كلامه حتى دخلت العجوز متوكأة على عكازها وقد احدودب ظهرها واحناها الكبر فزادها قصراً ولكنها ما زالت سريعة الحركة شديدة العصب وكانت عمشاء العينين غائرة الفم لخلو فكيها من الاسنان مجعدة الخدين غائرتهما . فتقدمت الى قطام وقد غطت شعرها الشائب بنقاب اسود يكاد يجر وراءها لطوله وقصرها . وحالما دنت منها قبلتها واخذت تخفف عنها وتقول لا بأس عليك يا ابنتي اطمئني لا يطأني في الحضور

فلم تزدد الفتاة الا بكاء وهي تقول ما الذي يشغلك عني يا خالة وانت تعلمين ان ليس لي معز في الحراني سواك

قالت هوّني عليك يا قطام واستريحي فقد جئتك بالفرج باذن الله

قالت من اين يأتي الفرج ولا يفرج كربتي الا الانتقام ... الانتقام . قالت ذلك وحرقت باسنانها وهي تشاغل بجمع شعرها وارسالها الى وراء ظهرها . ثم مسحت عينيها بكمها الطويل وارسلت الى كنتها فباتت اساورها ودمالجها حول معصمها المنلئ ونظرت الى العجوز كأنها تسألها الايضاح

فضحكت العجوز وهي تنظر اليها وكأنها تذكرت امراً مضحكاً فقطعت ضحكتها بغتة فاستاءت قطام من ضحكها وهي تبكي وقالت ما بالك تضحكين العلك تهزأين بكلامي : اني والله غير قانعة بغير الانتقام

www.marefa.org

فأمسكها العجوز بيدها واقعدها على الوسادة وجلست الى جانبها ونظرت الى ريحان نظرة فهمت منها انها تريد خروجة لتخلو بقطام . فخرج

فلبثت قطام صامتة تنتظر ما تقوله العجوز . فاذا هي قد تنحنحت كأنها تتهيأ لحديث طويل ثم قالت وماذا تريدين الآن يا قطام ؟

قالت اريد الانتقام لوالدي وإخوتي فقد قتلهم علي ظلماً ولا بد من الانتقام

قالت العجوز ما قولك اذا دلّلت لك من ينتقم عنك ؟

قالت ومن ينتقم . قولي ..

قالت طوّلي بالك ولا تكوني لجوجة ... اتعرفين سعيداً

قالت واي سعيد

قالت سعيد الاموي الشاب الجميل الذي يحبك ويهواك

قالت دعينا من الحب والغرام وحدثيني عن الانتقام

قالت يا سبحان الله اجيبي على سؤالي . هل تعرفين هذا الشاب فانه مغرم بك مفتون بسواد عينيك

قالت نعم اعرفه وما تفيدني معرفته . بالله عليك لاتذكري الغرام الآن . اني لا اشعر بعاطفة الحب ولا يهمني احبني الناس او ابغضوني

فابتسمت العجوز ابتسامة الاستخفاف وقالت يا للعجب ما اكثر لجاجتك ... قلتِ لك تعرفين سعيداً فهل تحبينه

فأجابت على الفور لا لا .. لا احبه ولا احب سواه .. ان قلبي لايشتغل اليوم الاّ بالبغض . اني ابغض بعض الناس ولا احب احداً

قالت ولكن اذا كان لا بد من الانتقام فيجب ان تحبي سعيداً

قالت كيف احبه وقلبي لم يبق فيه مكان لغير البغض والحقد اني حاقدة ناقمة

قالت انا اعلم ذلك ولكن أحبي سعيداً ولو موقتاً وهو ينتقم لك

فبهتت قطام ونظرت الى العجوز وجعلت تتفرس في محياها لتتحقق انها تتكلم الجد فلما آنست الجد في لهجتها قالت وهل تقولين حقاً هل يقدر هذا الرجل على ركوب هذا المركب الخطر ..

قالت اني اجعله بركبة فاذا لم يكن اهلاً له فهو ليس اهلاً لحبك .. ما رأيك ؟

www.marefa.org

فصمتت هنيهة ثم قالت . أأأخيه . نعم اخيه ولو الى أجل قريب ... ولكني لا اظنه اهلاً لهذا العمل بل لا احسبه يقدم عليه . ولكن قولي لي العلك متكلمين من عند نفسك ام انت على يقين مما تقولينه

فاعتدلت تلك العجوز الخبالة في مجلسها ونظرت الى قطام نظر الاهتمام وقالت اعلمي يا حبيبتي ان سعيدًا هذا قد علق بك واحبك منذ اعوام ولكنه لم يكن يجسر على مخاطبة المرحوم والدك بشأنك لان والدك كان يومئذ في جملة القائمين بنصرة علي . وسعيد كما تعلمين اموي اي انه من نقموا على علي وقاموا للمطالبة بدم عثمان . فكان يعلم انه اذا طلبك من والدك يومئذ لا ينال غير السفل . اما بعد ان خرج والدك رحمة الله من طاعة علي في جملة من خرج بعد التحكيم حدثته نفسه ان يطالبك فخاطبني في شأنك مرارًا . ولكن والدك كان مشغولاً بمحاربة علي وشيعته فلم اتمكن من التوسط له . فلما علم بقتله ومقتل اخيك وأسفاه عليهما (وتنهدت وهي تظاهر بمنع دموعها) عاد الى مخاطبتي في ذلك . وقد كنت أدافعه اعلي بحزنك الشديد وهو مع ذلك ما زال يتردد عليّ ويستعضني ويبذل كل مرتخص وغال في سبيل التمتع بهذا الوجه الجميل . فجاءني اليوم واعاد الكرة وبالغ في التذلل والاستعطاف فلخصت له انه اذا اصرّ على طلبك لا بد له من الانتقام لوالدك . فآنست منه ارتياحًا فاطلت الكلام معه وربحان في انتظاري خارجًا وهذا هو سبب تأخري عنك . فما قولك ؟

فلما سمعت قطام كلامها استبشرت بنيل مرامها فقالت « وهل تظنين انه يعدني وعدًا شافيًا بالانتقام .. هل يتعهد لي بقتل علي بن ابي طالب . اني لا اقبل باقل من ذلك »

قالت « أظنه يفعل ومع ذلك فاني استندمة اليك ونظرًا لما اعهده من مهارتك في اساليب السياسة لا اشك في انه يتعهد لك بكل ما تريدينه وخصوصًا اذا اظهرت له ميلاً وقلت له انك تحبينه وتفننت في طرق الدلال والتمنع واشترطت عليه انك لا تتزوجين الاّ بعد قتل عليّ . فاذا عاهدك صبرتي حتى يقتله فاذا لم يفعل واصاب حسنة كان دمه على رأسه والسلام ... ايه ؟ »

فاشرق وجه قطام واحسّت بارتياح الى هذا الرأي وقالت « لا ريب عندي

www.marefa.org

اني اعمله على التعهد ... فاستقدميه لنرى ما يكون . ولكن قولي له اني لم اقبل بعد وبالغي بشتمي ولومائي وانا اتم الحيلة »

فضحكت الجسور ضحكة طويلة وقالت « ساعملك الله يا غلام ألا تزالين تحسبينني غفاة مثلك وهل تجهلين ابن قضيت هذه الثنية ... الا تعلمين اني قضيت عمري في مثل هذه الحوادث . فكم ازوجت من الرجال وكم امتنعت من النساء في الزواج بعد ان كان قبولهن ضرباً من المحال ... لا تخافي عليّ . ولا انا اخاف عليك » قالت ذلك وبادرت ريحان فاسرع اليها . فقالت له هل تعرف الشاب الذي كان عندي الليلة

قال نعم اعرفه

قالت سر اليه انه لا يزال في المنزل حيث رأيتنا الليلة وقل له ان مخالتك لبابة تدعوك اليها

قال واذا ابى الحضور ماذا اقول له

قالت لا احالك الاّ سابقك في الطريق الذهب وادعة اليّ حالاً

قال سمعاً وطاعة وخرج

الفصل الخامس

﴿ سعيد ﴾

وكان سعيد شاباً اديباً في حوالي الثلاثين من عمره توفي والدهُ وهو طفل فكفلهُ جدهُ وقضى صباه وشبابه مع جده في منزل الخليفة عثمان وكانا شديدي التعلق به . فلما قتل عثمان كان سعيد وجده في مقدمة الناقمين لعثمان والمطالبين بدمه . فلما كانت واقعة الجمل بجوار البصرة كان هو في جملة رجال ام المؤمنين وظلّ جدهُ مقيماً في مكة للجوار فيها . ولما قتل جند ام المؤمنين وعادت هي الى مكة عاد هو معها وظل عند جده ولم يخرج لواقعة صفين

ولكنهُ كان يتردد الى الكوفة وكان يسمع بنظام هذه وجمالها وقد رآها مراراً تحت الخمار فوقعت من نفسه موقعاً عظيماً ولكنهُ لم يجسر على خطبتها لان والدها كان

www.marefa.org

قبل تحكيم المحكمين من شيعة الامام علي فكيف يزوج ابنة لاموي يطالب بدم عثمان . فلما خرج الخوارج عن طاعة الامام علي بعد التحكيم استبشر بميل مرامو على انه لم يتمكن من السعي في طلبها الاَّ بعد مقتل والدها واخيها . فجاء لبابة العجوز كما تقدم فاستخدمت هذه العجوز كل دهائها في اغرائه على قتل عليّ وتركت بقية الحيلة للغلام لعلمها انها لا تملّ عنها دهاء ومكرًا

وكان سعيد حسن الطوية قليل الاختبار وخصوصًا في ما يتعلق بدهاء اولئك العجائز . وكان جميل الصورة معجبًا بجماله وكان الحب قد اعمى بصيرته فلم يعد يرى غير غطام ولم يهتم الاَّ بالحصول عليها وهو لا يصدق انها ترضى به . فلما جاء العجوز في تلك الليلة وخاطبها بشأنها واظهرت ما اظهرته من التمنع ازداد رغبة فيها وبذل كل ما في وسعه من الوعود في سبيل ارضائها وبذل للعجوز كل ما يرضيها من المال والحلي فوعدته ان تسعى في ترضيها وبقيت وتركته يتقلب على جمر الانتظار

فلما جاءهُ العبد يستدعيه اليها خفق قلبه وهرول مسرعًا وهو يعثر باذيالهِ لمرّ في اسواق الكوفة وهو لا يرى شيئًا من الاسواق ولا باسها لانشغال بالهِ باسبلاقيهِ من البغتة عند اجتماعهِ بغطام منى قلبهِ وغاية مرامهِ . فكان اذا تصوّر رضاءها اشرق وجهه وكاد يطير فرحًا . فيعترض تصوّره ما آنسهُ من التمنع عند مخاطبة العجوز وما يدر منهُ من الوعد بالانتقام فتنقبض نفسهُ ويضطرب هول ذلك العمل . ولكن هيامهُ كان يهون عليهِ كل عسير ويصوّر المحال ممكنًا . فيخيل لهُ ان قطامًا اذا رأت جمالهُ وتحققت ما هو فيهِ من الوجد لا تلبث ان تقع في هواه وتغضي عن امر الانتقام

في مثل ذلك قضى سعيد طريقهُ وريحان يخطو امامهُ خطواتهِ المتباعدة لطول ساقيهِ ويحاول الابطاء في مسيرهِ لملاَّ يسبق رفيقهُ فلا يلبث الاَّ وقد تجاوزهُ فيمشي الهوينا الى موازاتهِ وسعيد لا يفتأ ينبههُ من ذلك . وخرجا من المدينة فآنسا سكونًا لا يسمع فيهِ الاَّ صوت الحصى اذا عثرا ببعض منها لان الكوفة كثيرة الحصى والرمال[1] حتى وصلا باب البستان ودخلا بين النخل . فقال العبد امهلني يا مولاي ريثما افتقد اهل المنزل ثم اعود اليك

فظل سعيد يمشي بين النخل يتشاغل برؤية اغلالها مع ما يسمعهُ من تغريد الضفادع

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

على شاطىء الجيرة وأخذ يبيّ نفسه لمقابلة قطام فاصلح عمامته وشمط شاربيه ولحيته ونفض جبته وأصلحها ولبث في انتظار العبد فأبطأ عليه فانشغل خاطره وحدثته نفسه بالاستئذان والدخول الى الدار . وفيما هو يهمّ بذلك سمع حركة وشبّا وبعد هنيهة بان له نورٌ عند الباب وسمع ريحان ينادي فهرول وقلبه يخفق وركبتاه ترتعشان رعشة الحب والبغتة . فعثرت رجله بحبل من الباب الذيل كان مشدودًا في جزع بعض الذيل حتى كاد يقع ولكنه تجاهل عن ذلك وتقدم الى باب الدار فاستقبلته لبابة مرحبة ومشت امامه وريحان يتقدمها بالمصباح . فدخلت به الغرفة التي كانت قطام فيها ودعته للجلوس على وسادة وجلست هي على وسادة وترك ريحان المصباح هناك وخرج

وكان سعيد يتوقع ان يرى قطامًا هناك فلم يرَها فانشغل بالهُ وزاد انشغاله لسكوت لبابة عن الحديث وجمودها . فقال مالي اراكِ ساكتة يا خالة الم ترسلي اليّ بالمجيء

قالت بلى

قال واين قطام

فنهضت وقالت هي هنا في الغرفة الاخرى وسأذهب اليها بعد قليل

قال اراكِ في قلق ... ما الذي جرى ... قولي

قالت لم يجرِ شيء ... وتظاهرت كأنها تكتم خبرًا

فقال وكيف . مالي اراك كئيبة اخبريني لقد نفد صبري

قالت لا يشغل خاطرك يا ولدي اذ ليس هناك ما يدعو الى القلق غير اني مللت من استعطاف هذه الفتاة وترغيبها وتشويقها فلم أرَ منها الاَّ البكاء والتعب ولم اسمع الاَّ قولها « الانتقام الانتقام » ومن يخاطبها بغير هذا الموضوع لا يسمع منها جوابًا

قال الم تذكري لها شيئًا من حديثي معك

قالت « كيف لا وهي لولم اذكر لها اسمك مشغوفًا بوعدك بالانتقام لما اجابتني » ثم ادنت فمها من اذنه وقالت « ولكني آنست من خلال ذلك الدمع انها ترتاح الى ذكر اسمك واظنها تحبك كثيرًا ولكن انشغالها في الانتقام شغلها عن الحب ولذلك فقد سرّت لما اخبرتها بوعدك ولكنها لم تصدق قولي كأنها تحسبني اقول مزاحًا او لعلها

www.marefa.org

استبعدت ذلك منك او خافت عدولك عنه لجهلها ما انت مفطور عليه من الحمية وكرم الاخلاق » قالت العجوز ذلك بنغمة تدل على ثقتها التامة بشرف نفس سعيد وصدق وعده . ثم شفعت نفسها بالفحصة والسعال ومسح آماقها ما يتقلب فيها من الدمع المتواصل لضعف الشيخوخة وصمت لترى ما يبدو منه قبل اتمام الحديث . اما هو فأثر قولها فيه وهاج ما في قلبه فقال لها « لا اللوم قطام لانها لا تعرفني بعد فهي معذورة اذا ساءت الظن بي ... ولكن اين هي اربني اياها فأؤكد لها وعدي فتعلم من هو سعيد ... » قالت هي هنا

الفصل السادس

﴿ اللقاء ﴾

وحملت لبابة المصباح بيدها ومشت امام سعيد الى غرفة اخرى ليس في ارضها الا حصير فوقه بعض جلود الماعز وقطام جالسة الاربعاء وهي تبكي وشعرها محلول . فلما رأت النور يقترب من غرفتها اسرعت فضمّت شعرها وارسلته الى ظهرها وغطت رأسها بنقاب اسود . ولم تكد تفعل ذلك حتى دخلت العجوز وهي تقول « اخفي عنك يا قطام وارفقي بنفسك واشفقي على شبابك لقد كفاك بكاء وغيًا . اهبطي فسلمي على سعيد الذي قلت لك انه يحبك »

فقاطعت قطام كلامها قائلة « كم قلت لك لا تذكري الحب والغرام بل اذكري القتل والانتقام . اني لا احب الا الانتقام ومن يتنم لي فهو خليق بان يحبني ولكن ... »

فتقدم سعيد وقد اصبح بعد رؤية قطام في تلك الحال لا يرى شيئًا غيرها ولا يبغي الا رضاها فشق عليه قولها « ولكن » لما ينطوي عليه من الاستدراك الذي يجعل نفسه عنه . فقال لها « ألا ترضين يا قطام ان اكون انا المنتقم لك ... »

قالت وهي تتظاهر بعدم الاكتراث « لا ... لا ارضى ان تعرض نفسك لهذا الامر من اجلي فاني اولى منك بركوب هذا المركب الخشن » ثم رفعت يدها واشارت بسبابتها الى صدرها وقالت بصوت تخالطه غصة البكاء « انا اقتل قتلة اني واحي بيدي ... انا اقتلهم . انا اقتل عليًا وان كنت فتاة . ان حب الانتقام يقويني ويشجعني

www.marefa.org

... ولا حاجة بي الى تعريض سواي لخطر القتل ... انك شاب لا يهمك من امر علي شيء فكيف تتكلف قتله عنّا ... ذلك لا يكون »

فانخدع سعيد بكلامها وحسبه صادراً عن شهامة وغيرة حقيقيتين فازداد رغبة في الاقدام على ذلك العمل . فقال لها « كيف تتهمين يا ملجة على هذا الامر وانا بين يديك . الملك لا تزين في الكفاءة . كيف تتولين انه لا يهمني من امر علي شيء وانت تعلمين ان بني امية كافة يطالبونه بدم عثمان وانا منهم وإذا قتلته فاني ارضي كل بني امية فضلاً عن ارضاء قطام ... ان بذل النفس في سبيل ارضائها هون ... وإذا اذنت لي ان ادخلك حبيبتي فكل شيء يهون عليّ ... »

فلما تمنعت قطام وقوعة في الشراك بقي عليها ان تمكن من وعده بملكه فتكتبه اياه فامسكت نقابها بيدها وتظاهرت باصلاحه فانكشف معصمها فرأى الاساور والدمالج و بانت عيناها وقد ذابتا من البكاء فازدادتا جمالا ورمت اليه بنظرة وتأملته كأنها تزن مقدرته على ما وعد به . اما هو فلا تدل عن حالته بعد تلك النظرة فتارت عواطفه ونظر الى العجوز كأنه يحرضها على التوسط في الامر . فتظاهرت لسابق بانها تساعده في غرضه وقالت لها « ألم يكفك ما قاله هذا الفتى ألم اقل لك ان وعده صادق وفضلاً عن ارضائك فقتل علي فهو يرضي عشيرته وأهله ايضا . واعلمي يا قطام انه لا بد من رجل يقتل هذا الخارجة ومن يسعى الى نيلها فانه صاحب النصيب الاوفر والاجر الاعظم »

فتفاءلت قطام كلام العجوز قائلة « انا اعلم انه مقتول لا محالة وإذا لم يقتل من الرجال من يعمل ذلك فعلته انا بيدي . انظري الى هذه الحلى في معصمي وإذني انى لم انزعها ليس لاني لم احزن على والدي وأخي ... آه رحمهما الله ... بل لاني واثقة من الانتقام لها وكأني احسب ثأري حاصلاً في قصة يدي ومتى أخذت بالثار فقد احييت القتيلين فكيف احزن ..... اما ما قاله سعيد فهو فضل منه ولكن الانسان يا خالة عرضة للتردد فلعل سعيداً اذا خرج من عندنا يرى رأياً آخر او يتهيب من هذا الامر فيعدل عن الوعد . فانا لا اريد ان اقيده في عهد ارى في نغمة كلامه ما يدل على خوفه منه ... لا اقول انه يخاف ولكن هذه الخارجة من اهون الامور . ولكنني لا ارى ان اكلفه وعداً اذا خلا بنفسه ربما يندم عليه ... »

www.marefa.org

الفصل السابع

﴿ الصك ﴾

فهمّ سعيد بالتكلم ليؤكد لها صدق وعده فاوقفته العجوز عن الكلام وتظاهرت بالدفاع عنه وقالت «اسمعي لي يا فطام بكلمة اقولها لك . انت لا تعرفين سعيداً بعد ولكني اعرفه واعرف صدقه وانا اقول لك بالنيابة عنه هل تريدين ان يكتب لك صكاً على نفسه انه يفعل كل ما قالهُ لك »

فلما سمع سعيد ذكر الصك تهيّب وعظم الامر عليه وكأنه صحا من سكرته لحظة تبيّن فيها خطارة ذلك الامر ثم عاد الى سكرة الغرام وزاده ثباتاً في ذلك ما سمعهُ من كلام العجوز الدال على تعنتها به وبوعده

اما فطام فكانت تنظر الى كل حركة تبدو من سعيد فلم يفتها ما جال في خاطره ساعتئذٍ من الندم وهو يحاول التظاهر بخلاف ذلك . فلكي تحمله على كتابة الصك من تلقاء نفسه قالت للعجوز « اراكِ اقنعتِ نفسك تائهة عنه في امر لا نصحُّ النيابة فيه وهو غير راضٍ به وفي سكوته اكبر دليل على ذلك . فدعينا من هذا الموضوع ولا تعرضي سعيداً لهذا الخطر وانت تعلمين ما قالهُ لك عنه وما له من المنزلة في قلبي وان اكن قلما رأيته فافضّل ان اعرض نفسي للخطر ولا اعرضهُ »

فعظم ذلك القول على سعيد وثارت الحمية في رأسه فنهض نهضة وقال لها اتحسبين سكوتي يا فطام عن تردد او خوف . . . لا وحقك ما انا ممن يضنون بالنفس في سبيل الحب وكيف تقولين انك تفعلين ذلك عني . . وربما ترددتُ في بادئ الرأي . واما بعد ان علمت بما عندك نحوي فاني اكتب الصك ولا ارضى الاَّ بكتابته . . هاتوا رقّ ومداداً » فنهضت العجوز حالاً لاحضار الرق والمداد والقلم وكانت قد اعدّت كل شيء قبل مجيئه

فاغتنم سعيد غيابها وازاح متعده واصلحهُ بحيث يواجه فطاماً . اما هي فنظرت اليه وابتسمت وقالت بصوت تخللهُ نغمة الدلال « لا تعرض نفسك للقتل يا حبيبي وما لنا وللصكوك ألا يكفينا القول »

www.marefa.org

فما صدق سعيد ان آنس منها هذا التقرب وسمع قولها « حبيبي » فجعل يبالغ في حبها وغرامها واستهلاكه في سبيلها وطابت له تلك الخلوة القصيرة فتبادلا فيها من عواطف الحب ما لا تأتي بدرجته الجلدات وسعيد يحدث نفسه اسعد انسان على وجه الارض لحصوله على حب قطام . وهي انما فيها من كل ما جرى اغراؤه على قتل علي وقد اضمرت في باطن سرها انها انما انتقم لها تزوجته وان تكن غير مغرمة به . واذا فشل في مهمته فلا أسف عليه وقتل . فاذا كتب الصك لا يجسر على الرجوع عن وعده

وادركت العجوز ان في ابطائها وسيلة لتبادل الاشارات واللحظات وزيادة التمكن من الاغراء فابطأت لغير داعٍ ثم عادت وبيدها رق من جلد الماعز وقلم من القصب وقرن ايل فيه مداد اسود . فلما رآها سعيد وتحقق كتابة الصك عاوده الخوف وحدثته نفسه بالرجوع عن الوعد ولكن الحياء والحب منعاه . ولم يخف تردده عن قطام فتلافت ذلك بابتسامة ونظرة وهو يرنو اليها ويقول في نفسه « ما أسعد هذا اللقاء وما اجمل هذا الحبيب لولا ما اشترطه من العقبات » ولم تترك له قطام فرصة يفتكر فيها فقالت للعجوز « لمن اتيت بهذه الادوات يا خالة »

قالت أتيت بها الى سعيد

قالت « ارجعي منه ان يكتب الصك لا لا اظنه يكتبه (وابتسمت وهي ترنو اليه شذرًا) وكاني به ندم على ما فرط منه لا عن جبن او خوف لا سمح الله ولكنه رأى قطامًا لا تستحق هذه العناية واراه يقول في باطن سره (امن أجل امرأة مثل هذه اقحم مثل هذا الخطر الهائل) ... » قالت ذلك ونظرت اليه نظر الحب العاتب

فلما سمع سعيد كلامها ورأى فيها ذلك الدلال نسي كل خطر واستولى عليه الخجل ولم ير له مخرجًا من خجله الا بالمبادرة الى الرق فتناوله من يد لبابة واممسك القلم وقد اخذ منه الهيام مأخذًا عظيمًا حتى توردت وجنتاه واحمرت عيناه . فوقفت العجوز الى جانبه والمصباح في يدها فكتب ويده ترتعش وهو يتجلد تجلدًا يبدو ذلك لقطام فتظنه خائفًا والبك نص كتابه :

« انا سعيد بن ... الاموي أُعاهد قطام بنت شجنة على قتل علي بن ابي طالب مهرًا لزواجي بها واذا لم افعل ذلك كنت لا استحقها وعليَّ عهد الله وميثاقه

كتبه سعيد الاموي

www.marefa.org

الفصل الثامن

﴿ تمام الحيلة ﴾

فلما فرغ سعيد من كتابة الصك دفعة الى قطام وقد ظهرت عليه ملامح الافتخار بانه لم يكن جبانًا كما ظنّته . ولكنه لم يكد يدفعه اليها حتى احسّ بالخطر الذي عرّض نفسه له . على انه لم يستقبل ذلك الخطر جدًا لما حال بينه وبين عقله من غياهب الوجد والهيام

اما قطام فتناولت الرق وقرأته بلا اكتراث ثم نظرت الى سعيد باستغراب وقالت « يظهر انك كتبت الصك حقيقة . اليس عارًا على قطام ان تأخذ منك صكًا على عهد عاهدتها عليه في مثل هذا الموقف كأنك اتخذت كلامي مأخذ الجد وقد قلت لك الآن اني لا ابالي من يقتل عليًا فاذا لم يقتله احد فتلته انا . اما وقد كتبته بخط يدك فاني احفظه عندي تذكارًا لهذه الليلة التي اعدّها من ليالي العمر . . وارجو ان نجتمع قريبًا وقد نلنا المرام » تالت ذلك وفي صوتها غنج الدلال

فصدق سعيد كلامها واطمأن بالهُ من قبيل الرجل الذي اشترط على تسليم الصك الذي كتبه بيده ولكنه علم بانهُ لا ينال قطامًا الاّ بعد قتل الامام علي . فعاد الامر الى خطاره فانقبضت نفسهُ واحب الانصراف فالنفس الخروج . فقالت له قطام « امكث عندنا . . . او اذهب لعلك تهتدي الى سبيل يقرّب زمن اجتماعنا الدائم » قالت ذلك وابتسمت ورنت اليه كما يرنو الحبيب اذا الفس من محبوبه امرًا يخشى ان يكون بعيد المنال . فودعها سعيد وخرج فتبعته لبابة فرأيا ريحانًا لا يزال ساهرًا في الحديقة يطوف حول المنزل خوفًا من الرقباء والعيون

ولما خرجت لبابة بسعيد قالت له وهي تضحك « اني اهنئك برضاء مولاتي قطام فقد نلت الليلة ما طالما تحسّر عليه اهل الكوفة بل سائر اهل العراق . ومن الغريب انها كانت مع فرط حبها لا تستطيع النظر اليك الاّ وهي تبتسم . . فما اجمل الحب اذا كان متبادلاً . واما مسألة الصك فما هي من الاهمية في شيء . وهب انك رأيت في طريقك خطرًا فهل ترضى قطام ان تعرض نفسك له » . فودعها ومشى

www.marefa.org

وحده وهو يتمرغ على الرمال وكأنه عاد قبل قيام شجاعته وعادت اليه وحشية فتصور خطارة الامر الذي عرّض نفسه له . ولما لم يبق له حيلة في الرجوع عن عزمه بعد كتابة الصك حمل يسحل لسانه اعتذارا فخمد قليلا وتحسّس له ارتكاب ذلك المنكر . فجعل له اذا قتل عليًّا ان يسم لسانه في اعلاه وما حرم حينما لا يستطيعه احد سواهم فيسال حلوة في عيني معاوية فصلا عن عدوه فتطام . ولما تصور ذلك منها اخترع فكرة في صدره وهان عليه كل عسير

فمشى وهو في مثل هذه الخيالات الكاذبة حتى دخل الكوفة ومرّ بمسجدها الجامع في وسط الساحة الكبرى . وكان الجو هادئًا والقمر منيرًا فرأى ما يخدق بمحل الامام علي من الاسنة والحراب عن فيها من كثرة ما هاسم وسيوفهم التي تبعثر وهو يعرفهم حماة صادقين لا يهابون الموت . فما لبثت ان تصور ذلك حتى ساءت فؤاده وكدر عليه الامر ولكنه ظل ماشيًا لعمر مرتة وهو يفكر في حيلة يتوسل بها لمعرفة

الفصل التاسع

﴿ طارق مفاجئ ﴾

وكان معاوية في بعض اسواق الكوفة فوصلا وهو يظن سنة لا يزال بعيدًا عنه وانما نبهه الى ذلك جمجمة حمل راعٍ في يده دابة في اعلى الرابية حالًا وهو يعهد انه ارسله الى مأواه قبل خروجه . فدخل الخان فرأى مالك حالًا واما كأنهم قادمون من سفر بعيد . فتقدم اليه واحد منهم ولم يكد يراه عليه السلام حتى عرف انه من رجال صاحبه ابي رحاب فدخل ولم يرد التحية ولكنه قال له ما وراءك يا عبد الله ما الذي جاء بكم

قال انا قادمون من عند صديقك مولانا ابي رحاب

قال وما الذي حملكم على المجيء

قال حاجتك في مهمة مستعجلة

قال وما هي

www.marefa.org

قال ان انا رجاف عما تعرفنا من غيوبك وعلمك قد دعانا لنستفسك اليوم سريعا

فدخل وصاح قائلاً وما الذي اصاك العلة مريض

قال هو مرض السهوجة ولكنه مستاق لرؤيتك وقد امرنا ان نستدعيك حالاً

قال واين هو

قال هو في مكة كما تعلم

قال أأذهب الى مكة الآن

قال دلك ما امرنا به فاعمل ما بدا لك

فلست من صامتا فكر ثم مشى وهو يقول لا حول ولا قوة الا بالله وسار هنالك في اثره حتى دخلا المنزل وهما صامتان ثم التفت سعيد وهو يرجع عباءته وقال لا بد من امر دعى قال بدعوى جدي اليوم فهل تعرفه

قال لا احالة استدعاك الا لبراك قبل حلول اجله لانه شاخ وضعف وأيقن بالموت ولا شك ولا رجاء له . وقال

قال لا حوله لنا في الامر فلما انا ذاهب معك فاعتزم وقام لوقته يفكر في قيامه وسفره

ولما اصبحوا ركب سعيد ناقته وركب عبد الله وزوجته جملهما وساروا في الصحراء فاراد سعيد ان يودع نعامة قبل السفر فاقبل وقال ربما يعود اليوم يسار امس . وهما وهو في اثناء السفر فلما اشرف على المنزل تذكر لياله الامس وأكثر من التفكير لاستدلال خاطره في جده وقد خاف عليه الموت قبل وصوله اليه ووصل المنزل فاتى وشاهدا فسأله عن قيامه فقال انها خرجت في حاجة وسوف تعود

فقال الى اين ذهبت

قال الى مكان لا ادري اين هو

فاسدل قال سعيد فاروحها يا دال الصباح وقولي لي ما يدعو سفرها الى الشروح فقد شغل الحزن قلبي قال وهل تعلم وجهتها

قال سارت مع لياقة

قال انظنها سعت كثيرا

www.marefa.org

قال لا ادري وربما ظلت الى المساء او الغد اذ يخيّل لي انها التمست بعض اهلها في مكان خارج الكوفة

دار ذلك الحديث بينها وسعيد لا يزال راكبًا جملهُ متردد بين ان ينتظر عودتها قبل سفره او ان يسير . وود لو يعلم اين هي ليمضي اليها فيودعها ويذهب دنيا من خبرتو عليها . ولو تحقق مجيئها بعد ساعة او بضع ساعات لفضل الانتظار ولكنهُ خاف ان يطول غيابها اياماً . فعوّل على المسير الى مكة فقال لريحان افرِ قطاما السلام عند رجوعها وقل لها اني شاخص الى مكة لامر يدعو الى الاسراع وقد جئت لوداعها فلم اجدها . على اني سأعود قريبًا باذن الله

قال حسنًا

فودعهُ وعاد فانضم الى رفاقهِ وسار بنفس مكة وقلبهُ في الكوفة . ولم يكد يخرج منها حتى ندم على خروجه ولم ير قطاما . ولكنهُ التمس عذرًا لنفسهِ بما دعاه الى العجلة من امر جدهِ

الفصل العاشر

﴿ ابو رحاب ﴾

وكان ابو رحاب جدُّ سعيد شيخًا طاعنًا في السن كما تقدم . ربى سعيد في حجرهِ بعد موت والدهِ وكان كلاهما على دعوة بني امية في المطالبة بدم عثمان . ولم يكن غرضهما من ذلك الاَّ الانتقام لعثمان لانهما اقاما زمانًا طويلاً في منزلهِ . وكان ابو رحاب مع شدة حبهِ لعثمان لم يغفل عمَّا كان فيهِ من الخطاء الذي دعا الناس الى اضطهاده وكثيرًا ما كان يحرضهُ على الاصلاح ومصالحة المسلمين فلم يصغ لهُ الاَّ قليلاً . وعلم ابو رحاب بعد ذلك ان جماعة من ذوي الاغراض كانوا يفتنونهُ عن الاصغاء ويحرضونهُ على العداء . حتى اذا قتل عثمان كان ابو رحاب وسعيد في جملة المطالبين بدمهِ . ولكنهُ ما لبثا ان عادا من واقعة الجمل حتى قعد ابو رحاب عن المطالبة لانهُ تحقق ان اصحاب تلك الواقعة انما حاربوا عليًّا طمعًا في الملك لا غيرة على عثمان

واقام في مكة مدة لا تسلية لهُ الاَّ سعيد وكان سعيد ينوي الانضمام الى جند

www.marefa.org

معاوية في واقعة صفين فمنعه جده . وكان ابو رحاب يعلم ان سعيداً يحب قطاماً حباً شديداً وانه ساعٍ في التزوج بها . ولذلك فانه كان يأذن له في الخروج الى الكوفة لتلك الغاية . وطال غياب سعيد هذه المرة واحس ابو رحاب بزيادة الضعف فاراد استقدامه ليتزود من رؤيته قبل موته ويوصيه وصية لها علاقة كبرى في شؤون حياته وربما غيّرت مجاري اعماله وحولته عن مقاصده وآماله . فبعث رجلاً من خاصته اسمه عبدالله في وفد الى الكوفة لهذه الغاية . ولبث ينتظر رجوعهم وهو يتقلب على فراش الضعف والهرم كانه يستهل ملاك الموت ربما يصل حفيده قبلاً يذهب ما في نفسه ادراج الرياح وتضيع حياة سعيد عبثاً

اما سعيد فانه قضى مسافة الطريق بين الكوفة ومكة وهو بين شوق الى قطام وقلق على ابي رحاب . وكان من شدة فرحه بقطام انما يودّ بقاء جده حياً ليبشرهُ برضاها وقبولها لانه طالما شكى له رغبته فيها . وكان ابو رحاب يتمناها له . وكان سعيد اذا فكر في ذلك فرح ثم يعترض فرحه امر الصك وقتل الامام فيضطرب فيعلّل نفسه بما ينالهُ من الفخر اذا قتل علياً فضلاً عن استرضاء جدّه لانه يعلم ما يجيش في نفسه من نار الانتقام لعثمان فيفرحه قبل موته

قضى اكثر ايام الطريق في مثل هذه الهواجس لا يبالي بين حوله من الرفاق كأنه سائر وحده . ولم يكن يشغله عن ذلك ما يلاقيه في سبيله من الجبال والاودية والصحاري ولا ما يرّ به من الربوع والاحياء والخيام حتى اشرف على مكة عن اكمة . فاذا هي في مبسط من الارض تحوط بها الجبال والكعبة قائمة بين ابنيتها قيام الملك بين الاعوان . وكانت الشمس قد مالت نحو المغروب فاسرع في مسيره بالشمس منزل جده وقلبهُ يخفق خوفاً عليه من يأس يصيبهُ قبل وصوله

الفصل الحادي عشر

بيت ابي رحاب

ولم يكد يدخل مكة حتى سدل الليل نقابه فساق ناقته بالشمس المنزل قبل اشتداد الظلام وترك رفاقه يهتمون بشؤونهم . وكانت عادته اذا دخل مكة ان

www.marefa.org

يطوف الكعبة قبل الذهاب الى البيت ولكنه سار في هذه المرة توًا الى المنزل وهو يضطرب خوفًا على حياة جده

فعرج في منعطف يؤدي الى البيت رأى فيه اناسًا عرف انهم من الاهل والاصدقاء فحيّاهم وسألهم عن حال ابي رحاب . فلما عرفوه هالهم وسفة بعضهم ليبشر المريض بقدوم حفيده . فلما اطمأن بال سعيد على حياة جده هدأ روعه وترجل عن ماقته وسلمها الى بعض الخدم ومشى وهو لا يزال بالعباءة والكوفية والسيف . فانتهى الى باب كبير مقفل دخل من خوخته ولم يحتفلوا بقدومه له . ثم في صالة لم يرَ فيه احدًا وسار توًا الى الغرفة التي ينام فيها جده عادة وفيها مصباح منير دون سائر الغرف . وقبل وصوله الباب استقبله رجل خارج من عنده يمشي الهوينا على رؤوس اصابعه مخافة ان يوقظ المريض من نومه العميق . فعرف سعيد انه من بعض اهله فسأله عن حال جده

فقال له « انه مستغرق في الرقاد وقد مضى عليه بضعة ايام لا ينام فيها احس بالنعاس الآن أخرج الناس من غرفته ولم يبق سواه واوصاني ان لا ايقظه الا اذا جئت انت »

قال دعني ادخل واراه وهو نائم قال ذلك ونزع حذاءه خارجًا ودخل وهو يسترق الخطى . فوطئ العتمة واطلّ على الغرفة فاذا في مقدمها سراج على حمرة قصيرة من الخشب الصلب فوق حافة بارزة من الحائط بجانب فراش المريض وكانت ظلمة السراج المخيفة يتصاعد من فتيلها سناج يتطاير هنيهة في صعوده آثارًا سوداء على الحائط بجانب السراج ولو كان لون الحائط نقي البياض لظهرت آثار السناج كبيرة جلية ولكنه كان مدهونًا بلون احمر

وتحوّل سعيد نحو الفراش وقلبه يخفق لئلا يكون رقاد جده الدائم كما يخشى الكثيرون ممن يهرمون فيموتون وهم نيام . فمشى على حذر من سعف النخل يكسو ارض الغرفة عليه غطاء من جلد مصقول هو بمنزلة البساط وسار نحو الفراش . ولما اشفق بوالضعف رفعه عن الارض الى مقعد مستطيل ظهره شبكة من سعف النخل وهي قعد من جلد يشدونها بين جوانب المقعد كالشبكة يجلسون عليها ساندة الى يجعلون فوقها الفرش او نحوها . وكان ابو رحاب قد نوسد فراشًا رقيقًا والتحف

www.marefa.org

بارد من صوف اسود يغطيه الى اعلى الصدر وقد تورّد على ظهره ويداه مضمومتان تحت اللحاف وعيناه مغمضتان يظللها شعر حاجبيه فيزيدهما غوراً

وحالما اقترب سعيد من جدّه رمى ببصره الى صدره ليرى تنفسه فاذا هو يتنفس تنفساً هادئاً فهدأ اضطرابه وسكن بلبالهُ وليث واقفاً يتأمل في ظواهر الهرم . وتذكر ان جدّه كان من كبار القامة طولاً وعرضاً فرآه قد أصبح هيكلاً من عظام مكسوّاً بالجلد . اما وجهه فلم يكن ظاهراً منهُ الاّ الانف والجبهة وما بقي منهُ كان مغطّى بالشعر الابيض الناصع . وازداد ذلك المنظر رهبة حينما نظر لضعف النور حتى خيل لسعيد لما اشرف على فراش جدّه ان رأسهُ كتلة من القطن المندوف يخللها ثنيات مظلمة هي الانف والوجنتان والجبهة واما ما خلا ذلك فقد غطتهُ اللحية والشاربان والحاجبان . واستطالت لحيتهُ وانسدلت حتى غطت عنقهُ وصدرهُ ولكنها كانت قليلة الشعر تشفّ عن عنق دقيق مستطيل بانت عضلاتهُ وفي مقدمها القصبة قد برزت بروزاً عظيماً اما الرأس فقد كان حليقاً او لعلهُ أصلع

وكأن شيخنا الراقد قد دأبهُ فظلّ المستيقظ على مجيء حفيده فتحرك وتململ ثم فتح عينيه المراقتين واجال النظر في جوانب الغرفة حتى وقع على سعيد فتبسم . فلما رآهُ سعيد قد استيقظ جثا امام فراشهِ وهمّ بتقبيل يديهِ . فرفع ابو رحاب ذراعيهِ وضمّ سعيداً الى صدره وطفق يستنشق رائحة عنقهِ ويقبّله بلهفة وسعيد يطاوعهُ بكل حركة يريدها . فأطال ابو رحاب عناقهُ وسعيد صابر حتى أحسّ بماء ساخن يغدر على خده علم انها دموع سخينة ولكنهُ لم يدر دموع الحزن هي ام دموع الفرح . على انهُ خاف على جدّه فاستأذنهُ وبعض عن صدرهِ فرآه يحاول الجلوس فاعانهُ على ذلك وهو يبدو ونظر اليهِ وهو جالس فاندهل لقلة ضعفهِ حتى تخيلهُ فقصاً من عظام استدلّ على ذلك مما انكشف من عنقهِ الى اعلى الصدر

اما ابو رحاب فاخذ يصلح لحيتهُ وشاربيهِ ويمسح عينيهِ . ثم تنحنح ومدّ يدهُ الى سعيد فعلم هذا انهُ يريد يدهُ فدفعها اليهِ فامسكها ابو رحاب بين يديهِ . فاحسّ سعيد كأنها مغروسة باصابع من حديد لبوسة انامله وجفاف جلدها وبرودتها ولكنهُ شعر بارتعاشهِ ارتعاشاً متواصلاً هو من دلائل الضعف الشديد

www.marefa.org

الفصل الثاني عشر

﴿ انقلابٌ غريب ﴾

وما زال سعيد يتخيل في جده الضعف الشديد حتى سمع صوته فاذا هو كما يعهده جهوريٌّ رنان . فاستأنس به واطمأن باله لسماعه . واول كلمة سمعها منه قوله « الحمد لله على عودتك سالمًا . لقد اطلت الغيبة عليَّ يا ولدي »

قال لقد جئتك سريعًا حالما علمت برغبتك في ذلك كيف انت الآن وبماذا تشعر يا جدّاه

قال كنت احسبني على شفا الموت ولكنني لما رأيتك وامسكت يدك شعرت برجوع قواي . فاما الآن كما تعرفني من عشر سنوات وكأن الله شدد عزيمتي لاتمكن من ترويدك بنصيحة في آخر ما تلفظ به في هذه الحياة

قال «اني اشتاق لسماع نصائحك في كل حين ولكنني ارجو ان يمدّ الله في اجلك لتشهد زواجي بنظام » ثم التفت يمنة ويسرة لئلاّ يسمعه احد فرأى المكان خاليًا من الناس فقال بصوت منخفض « وشرح بما سيتقدم ذلك من الانتقام الذي طالما تاقت نفسك اليه »

فنظر الشيخ اليه بعينين رأى سعيد بريقها من خلال الحاجبين وكان قوس الشيخوخة واضحًا حولها ثم سمع جده يقول « اما زواجك بنظام فقد فهمته وسرّني بلوغك مرامك واما الانتقام فلم افهم علاقتك بها »

فتبسم وقال ألا تذكر يا جداه ما قلنا به منذ اعوام وقام به كل بني امية من المطالبة بدم الخليفة المقتول ظلمًا . وهل تجاسر احد على الانتقام بقتل القاتل لغلو الجوّ لنا

فانقلب الشيخ باسره كأنه غضب وقال « من هو القاتل ومن سيقتله »

فأدنى سعيد شفتيه من اذن جده وقال « ان القاتل علي ابن ابي طالب وانا سأقتله ولا يخفى عليك ما في ذلك من الفخر والفضل فانما ابغي بناءك ليتم ذلك نصب جناحك . . . »

www.marefa.org

ولم يصبر الشيخ على سماع بقية الحديث لعظم اضطرابه وحنقه . وعرف سعيد حنقه مما رآه من ارتعاش يديه واختلاج شفتيه واهتزاز لحيته . ولا نسل عن دهشة سعيد لما سمع جده يقطع عليه الكلام قائلاً بصوت عنيف « لا لا لا يا سعيد . . . لا تقتلوا البريء »

فاندهل وظن جده لم يفهم كلامه « فقال له مهّل يا جداه وإني بريء » يعني اني سأنتقم من علي بن ابي طالب فكيف تقول انه بريء وانت اول من دعا الى المطالبة بدم عثمان منه . يظهر انك اخطأت مرادي »

قال « كلاّ اني لم اخطئ مرادك فلا تخطئ انت مرادي . ان علياً بريء . . . انه بريء مما اتهمتاه به . . انه لم يقتل عثمان ولا مالأ على قتله ولا اراد سوءاً بالمسلمين ولا ارتكب امراً يستوجب نقمة »

فوقف سعيد وهو يحسب نفسه في منام لعلمه ان جده كان من اول الناقمين على عليّ فكيف انقلب الى الضد من ذلك . فبادر الى ذهنه ان جده انما يتكلم عن خرف . وإدراك ابو رحاب ما جال في خاطره فقال له « لا يخالجنّ ذهنك شك في صحة عقلي فاني انما اقول ما اقوله عن روية وطول نظر ولم استفدملك من العراق الاّ لهذه الغاية . ولا اقول ذلك جزافاً بل اثبته بالبرهان »

وما زال سعيد مندهلاً مستغرباً لكنه صبر نفسه الى آخر الحديث فقال « وما الذي دعاك الى هذا التغيير العظيم . كيف يمكن ان يكون ذلك وكيف يمكن ان يكون عليّ بريئاً من دم عثمان بل كيف تعترف انت ببراءته وقد كنت من اول القائلين باتهامه »

فاشار الشيخ بيده الى سعيد ان يجلس ويهدئ روعه ويصبر نفسه الى سرد البراهين ثم قال « امّا ما دعاني الى ذلك فهو هاتف صحته يقول ويكرر القول « ان علياً بريء وانما يتهمه اهل المطامع والاغراض » وكنت كلما توجهت اسمع هذا الصوت يرنّ في اذني حتى اقلق راحتي . فجعلت عن الامر بنفسي وتدبرت ما اعلمه من تاريخ علي وعثمان وغيرهما من القائمين في هذه الفتنة فوجدت معاوية وسائر بني امية على ضلال بل هم اهل اغراض اتخذوا مقتل الخليفة المظلوم ذريعة للحصول عليها » قال ذلك واقطب حاجبيه وقد أبرقت عيناه من خلال قوس الاشياخ حول صدغيه وبان الجد في لجنه فظل سعيد صامتاً لا يبدي حراكاً لما استولى عليه من الدهشة

www.marefa.org

الفصل الثالث عشر

﴿ التهمة الباطلة ﴾

فمشط الشيخ لحيته باصابعه واصلح شعر حاجبيه وشاربيه والتفت الى سعيد وقال « يزعم معاوية واصحابه انهم انما جردوا السيوف وسفكوا الدماء للمطالبة بدم عثمان كأنهم لم يكونوا يستطيعون الذبّ عنه قبل قتله . ولقد يضحكني مطالبة عمرو بن العاص بدم عثمان وهو اول من اراد قتله وسعى في قتله حتى لقد يخطر انه هو الذي قتله وان يكن في فلسطين . فقد علمتُ انه لما بلغه مقتل عثمان وهو في وادي السباع قال « انا قتلته وانا في وادي السباع »(١) يعني انه سعى في قتله عن بعد . فلا يغرّنك بعد ذلك مجيئه هو وابناه ماشين الى دمشق وهم يكون ويقولون « واعثماناه نعى الحياء والدين » انهم انما فعلوا ذلك حيلة للانضمام الى معاوية ...

« واما معاوية وسائر بني امية فهل تحسبهم اشرعوا الاسنة وايقظوا الفتنة طلبًا بدم ذلك الخليفة المقتول ؟ فاذا كانوا فعلوا ذلك غيرةً وحماسًا ما بالهم لم يدافعوا عنه وهو محصور يستنجدهم من المدينة الى الشام ؟ وهب انهم تأخروا عن نجدته كرهًا كما يزعمون فما بالهم نسوه ونسوا اولاده . واذا كانوا يعتقدون موته مظلومًا وانهم انما قاموا للمطالبة بدمه فلماذا لم يولوا الخلافة ولدًا من اولاده ؟ . أرأيت كيف اتخذوا اسم هذا الخليفة ودمه ذريعة الى السلطة ...

« هكذا فعل ايضًا طلحة والزبير فقد قُتل عثمان وهم في المدينة على قيد اذرع منه فلو ارادوا إنجاده لم يعجزهم الدفاع فسكتوا عن قتله حتى اذا رأوا الخلافة افضت الى علي تظاهروا بالدفاع عن عثمان وقالوا انه قُتل ظلمًا »

وكان الشيخ يتكلم وهو يحاول خفت صوته فلا يطاوعه النهيج فلا يشعر الاّ وقد علا صوته فتهلّلت قسماته وارتجاجات . واما سعيد فكان يسمع كلام جده وهو مطرق لا يستطيع النظر الى وجهه هيبةً واحترامًا . فلما وصل ابو رحاب الى هذا الحد سكت برهة تشاغل فيها بمسح فمه وشاربيه بما لفّهما من نفثات ريقه اثناء الكلام

(١) ابن الاثير وغيره

www.marefa.org

لان الهرم اخلى فكّيه من الاسنان . فاغتنم سعيد تلك الفرصة وخاطب جدّه قائلاً « كيف تحسب عمل هؤلاء طمعاً في الخلافة ولا تحسب عمل عليّ ايضاً مثل عملهم . وقد كانوا جميعاً في المدينة فكيف اذا قتل الخليفة تكون البيعة لواحد منهم والباقون ينظرون . لماذا لم تحسب ذلك طمعاً من علي ؟ »

فضحك الشيخ ضحكة اغتصابية او هي قهقهة تشبه الضحك لعظم ما قام في نفسه وهو في آخر يوم من ايام الدنيا واول يوم من ايام الآخرة . وقبل ان يتمّ قهقهته حوّل وجهه الى سعيد وقال « اتسألني عن خلافة علي وقد كان الأولى بي ان اسأل نفسي ما الذي اعماني عن حقوقه فيها من اول الامر صدق القائل ان الغرض يعمي ويصم ... ان الخلافة لم تكن لاحد من الصحابة قبل هذا الامام وهو ابن عم الرسول (صلعم) وصهره على ابنته فاطمة سيدة نساء العالمين . وهو اول الناس اسلاماً بعد خديجة [1] وزد على ذلك ان الرسول (صلعم) ربي في حجر ابي طالب والد علي . وقد كفله ودافع عنه عند اول الدعوة . وكانت قريش تكره دعوته حتى كثيراً ما هموا باذيته وابو طالب يمنعهم بما له من المنزلة الرفيعة عندهم . فلما ولد علي ربي في حجر الرسول (صلعم) واسلم وهو في العاشرة من عمره وذبّ عن الاسلام بقلبه وبيده ولسانه ولا انسى يوم الهجرة يوم تآمرت قريش على اذية الرسول (صلعم) في مكة فعوّل على الهجرة كيف ان طلباً اقام مقامه في منزله فتسجى ببرده وبات على فراشه وعرض نفسه لخطر القتل وبنجاه الله . ناهيك عن حروبه في الغزوات والسرايا فقد شهد معظم المواقع واشهرها وبذل نفسه في الذب عن الاسلام يوم كان معاوية وابوه وأخوته في مكة من الذين اعداء الاسلام ولم يسلموا الاّ بعد فتح مكة اي بعد فتوطهم من النصر » [2]

الفصل الرابع عشر

﴿ عليّ والخلافة ﴾

وكان ابو رحاب يتكلم والعرق ينضب عن جبينه كأنه يعمل عملاً شاقاً يجهد نفسه فيه وسعيد صامت مطرق لا يزال في دهشته واستغرابه حتى كاد يغيب عن صوابه . ولم

(١) اسد الغابة ج ٤ (٢) السيرة الحلبية

www.marefa.org

يجسر على كلام . وطال سكوت جده فهمّ باستفهامه فرآه بجاز للكلام فسكت واصغى فقال ابو رحاب « اراك دُهشت لما سمعته كأنك لم تعلمه قبلاً ولا ألومك اذا علمته وتجاهلته فاني اكبر منك سناً واعلم منك في هذه الشؤون وقد اعطاني الغرض . وكأني بعد ذلك الهاتف قد فتحت عيناي وصرت انظر الى الحقيقة كما هي ..

« نعم ان علياً اولى منهم جميعاً بالخلافة والرسول (صلعم) فصله عليهم جميعاً وآخاه دون سواه فقال له على مسمع من الصحابة (انت اخي في الدنيا والآخرة) وخاطبه مرة وقال (لا يحبك الاّ مؤمن ولا يبغضك الاّ كافر) ولقد تستغرب ما سأتلوه عليك وتعجب كيف لم يقل الخلافة قبل الآن كيف لا وهو قول الرسول (ان علياً مني وانا من علي وهو وليّ كل مؤمن بعدي) وقوله (صلعم) (من كنت مولاه فعليٌّ مولاه اللهم والِ من والاه وعاد من عاداه) [1] فمن يعلم ذلك ويعجب لخلافته بل كيف لا يعجب لقعاعده عن الخلافة الى الآن »

وكان سعيد لا يزال مطرقاً وقد تغيرت سحنة وتولته الدهشة حتى ظن نفسه في منام ويندم على مجيئه لانه اصبح بعد سماع ذلك الكلام حيرانَ بين مطرقتين لا يدري ايقوم بعهده لقطام التي ملكت لبّه ام يعمل بوصية جده وهو في آخر ايام الدنيا . فظل صامتاً لا يبدي حراكاً . وادرك جده ذلك ولكنه تجاهل عما يجول في خاطره وعمد الى اتمام الحديث فقال

« فترى يا ولدي ان علياً اولى بالخلافة من سائر الصحابة بالنظر الى قرابته وصهره ووصية الرسول له ولكنه يمتاز عن سائر الناس بفضائل تكفي وحدها لتولية امور المسلمين لا ارى في معاوية واصحابه شيئاً منها . ان علياً رجل متقشف زاهد في الدنيا رأيته مرة انزل سيفه للسوق فباعه فسئل لماذا فعل ذلك فقال (لو كان عندي اربعة دراهم ثمن ازار لم ابعه) ويكفي قوله في وصف المؤمنين (ومن سيماهم ان يكونوا خمص البطون من الطوى يبس الشفاه من الظما عمش العيون من البكا) ولو فتشت بينة اليوم ما وجدت فيهم لا صفراء ولا بيضاء . وقد قضى عمره في عز الاسلام وفتح الفتوحات ولم يلبس ثوباً جديداً ولا اقتنى ضيعة ولا ربحاً [2] ومن كان في مقامه قادر على حشد الاموال واتخاذ العبيد والاماء والضياع

(١) اسد الغابة ج ٤ (٢) المسعودي ج ٢

www.marefa.org

والماشية كما فعل غيره من الصحابة كطلحة والزبير وعثمان وصاحبنا وابن عمنا معاوية ٠٠٠٠٠ »

الفصل الخامس عشر

﴿ معاوية واصحابه ﴾

ولما بلغ الشيخ الى هذا الحد تنهّد تنهدًا عميقًا ثم قال وصوته يعلو بالرغم عنه « ان معاوية خدعنا بمظاهر في نصرة الخليفة المقتول حتى كرّهنا بالامام علي وقد كنا في ظلمات من الغرض لا نرى الحق واما الآن وقد قشعتْ الغشاء عن عيني فاني اصبحت ناقمًا على معاوية واذا فكرت في اعماله واعمال علي كدت اميز غيظًا وينفطر قلبي اسفًا على ما نال هذا الامام من الاذى الذي لا يستحقه . كيف لا وهو رجل عرفناه يوم انتصر علينا في واقعة الجمل كيف انه اشفق على عدوّه الشفاقة على اولاده فأوصى اصحابه ان لا يجهزوا مدبرًا ولا يجهزوا على جريح ولا يمسوا النساء ولا الاولاد بسوء . وكم اوصى عماله ان يتسطوا في احكامهم وقد اخبرني رجل سمعه يوصي احد عماله ويقول « لا تضربنّ رجلاً سوطًا في جباية درهم ولا تبيعنّ رزقًا ولا كسوة شتاء ولا صيفًا ولا دابة يعتمدون عليها ولا تقيمن رجلاً قائمًا في طلب درهم »[1] ولو اردت ان اسرد من امثلة ذلك لضاق بي المقام وخشيت انقضاء اجلي قبل الفراغ منها وانا انما استهل ملاك الموت ربنا اتمّ وصيتي لك ٠٠٠ فاصغ لي يا ولدي وتأمل عدل الامام علي وحلمه وما ارتكبه معاوية وعماله من التعدي على المسلمين . وخوفًا من زيادة التطويل وقد تعبتُ من الكلام اذكر لك حادثة قريبة العهد لا يزال صداها يرنّ في الآذان ٠٠ آه ٠٠ آه من القساة اهل المطامع ٠٠٠٠ اتعرف عبد الله ابن عباس ؟ »

قال « كيف لا اعرفه وهو ابن عم الرسول (صلعم) وابن عم علي بن ابي طالب . نعم اعرفه »

---

(١) اسد الغابة ج ٤

قال اصبغ لما اقصه عليك واعتبر . لما فرغ معاوية من واقعة صفين وتحكيم الحكمين وتظفر بالخلافة بحيلة عمرو بن العاص كما تعلم بايعه اهل الشام وظل عليّ في العراق . فلم يمنع معاوية بما اوتيه من الحكم فبعث سراياه الى الحجاز والعراق لتفرغ يدعون الناس الى بيعته ونقض بيعة علي . وكان رسوله الى الحجاز واليمن بسر بن ارطاة فجاء المدينة وتولاها لان عاملها فرّ من وجهه . ثم جاء مكة بعد شهرين ولا يزال الناس يحدثون بفرار صاحبها ابي موسى الاشعري من وجهه بلا حرب . فاكرهَ اهلها على البيعة فبايعه اهل مكة مكرهين وقد كنت مريضاً ولم ار وجهه ... على ان عملة هذا لا يستوجب ملاماً ولكنه سار الى اليمن وعاملها عبيد الله بن عباس الذي ذكرته لك . فخاف عبيد الله فهرب الى الكوفة واستخلف عبد الله بن عبد المدان فلم يكن من بسر بعد دخوله اليمن الاّ انه أمر بعبد الله هذا فقتله وقتل ابنة صبرًا ... وسمع بابنين صغيرين لعبيد الله بن عباس قد ودعها عند رجل من كنانة بالبادية فاراد قتلها فبعث اليها فجاء الكناني ومعه الطفلان فلما علم ان بسرًا يريد قتلها ذعر رضاع فاتلاً « لم تقتل هذين ولا ذنب لهما فان كنت قاتلهما فاقتلني معهما » ولم يكن من ذلك الظالم الاّ انه قتل الطفلين والكناني [1] وبلغني ان الكناني دافع عنهما حتى قتل . ولقد اتجهني قول امرأة من كنانة رأت ابن ارطاة مارًا بعد تلك الفاجعة فقالت له « يا هذا قتلت الرجال فعلام قتلت هذين والله ما كانوا يقتلون الاطفال في الجاهلية ولا الاسلام . والله يا ابن ارطاة ان سلطاناً لا يقوم الاّ بقتل الصبي الصغير والشيخ الكبير ونزع الرحمة وعقوق الارحام لسلطان سوء » [2]

هذا يا ولدي اعمال معاوية وعماله فاين هي من اعمال الامام علي فكيف تقدم عليه بعد ذلك وتقول انه قتل عثمان وانه يستوجب القتل ؟

الفصل السادس عشر

﴿ الخوارج ﴾

ولم يتم الشيخ كلامه حتى خارت قواه وعجز عن الكلام وملّ القعود فاستلقى

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

على ظهره وهو يلهث والعرق ينصب عن جبينه فخاف سعيد عليه فأسرع الى منديل مسح به عرقه وأتاه بلبن كانوا اعدوه له فشربه واستلقى يتنسم الراحة وسعيد جالس الى جانبه وقد وقع في حيرة عظمى . فتصوّر عهده لنظام والصك الذي كتبه على نفسه وليث صامتاً وجدّه الشيخ يلتفت اليه خلسة يراقب خواطره . فادرك ارتباكه وعلم انه يفكر بنظام واهلها فحوّل وجهها نحوه وهو لا يزال مستلقياً وقال له اظنك تفكر في نظام واهلها الخوارج وقد يخيّل لك ان خروجهم من طاعة علي قد يطعن بصدق ما قلته لك ولكنهم لم يخرجوا الاّ طمعاً في الدنيا فانخطوا سبباً لا يسمعه عاقل الاّ هزأ بهم واياقن بتعديهم . خلعوا طاعة علي لانه قبل بالتحكيم المشهور وما ذنبه وهم الذين اجبروه على قبوله وهب انه اخطأ فهل يخرجون عليه ويحاربونه . ولكنهم رأوا معاوية قام في الشام وكاد يفوز بالخلافة فطمعوا هم بالحكومة لانفسهم فاجتمعوا على نقض البيعة ويؤيد ذلك انهم ولوا عليهم رئيساً منهم وبايعوه ولكنهم فشلوا في حروبهم وعادت العاقبة عليهم

وليس فشلهم بالدليل على سوء نياتهم ولكني الفو عليك حكاية سمعتها من رجل اثق بصدق روايته قال ان الخوارج بعد اول خروجهم من طاعة علي على اثر رجوعهم من صفين نزلوا عند النهروان فرأوا رجلاً يسوق بامرأة على حمار فتصيدوه فانتهروه فافزعوه وقالوا له من انت . قال انا عبد الله بن خباب صاحب رسول الله (صلعم) . فقالوا له افزعناك . قال نعم . قالوا لا روع عليك حدثنا عن ابيك حديثاً سمعه من رسول الله صلعم . قال انه تكون فتنة يموت فيها قلب الرجل كما يموت فيه بدنه يمسي فيها مؤمناً ويصبح كافراً ويمسي مؤمناً . قالوا فهذا الحديث سألناك فما تقول في ابي بكر وعمر . فاثنى عليهما خيراً . قالوا ما تقول في عثمان في اول خلافته وفي آخرها . قال انه كان محقاً في اولها وفي آخرها . قالوا فما تقول في علي قبل التحكيم وبعده قال انه اعلم بالله منكم واشد توقياً على دينه وانفذ بصيرة . فقالوا انك تتبع الهوى وتوالي الرجال على اسمائها لا على افعالها والله لنقتلنك قتلة ما قتلناها احداً . فاخذوه وكتفوه ثم اقبلوا به وبامرأته وهي حبلى متمّ حتى نزلوا تحت نخل مواقير فسقطت منه رطبة فاخذها احدهم فتركها في فيه فقال آخر اخذتها بغير حلها وبغير ثمن فالقاها ثم مرّ بهم خنزير لاهل الذمة فضربه احدهم بسيفه فقالوا هذا فساد في الارض فلقي صاحب

www.marefa.org

الخنزير فارضاه فلما رأى ذلك منهم ان خباب قال لهن كنتم صادقين فيما ارى فما علي منكم من باس اني مسلم ما احدثت في الاسلام حدثاً ولقد أمنتموني فلم لا روح عليك . فاضجعوه فذبحوه فسال دمه في الماء واقبلوا الى المرأة فقالت اني امرأة الا تتقون الله . فبادروا بقتلها . هذا اعمال اعداء علي وهذا هو علي كيف ننعم عليه بل كيف نقتله او نساعد على قتله بل كيف نمكنت عن قتله ولا ندافع عنه

الفصل السابع عشر

﴿ خاتمة الوصية ﴾

فلما رأى سعيد نهاية حديث جده لم يعد يذكر الملك الذي كنه على نفسه وسعيد فهو يقتل على اقلا بزيد غضبة . فظل ساكتاً يفكر في حيلة يتخلص بها من ورطته بالتي هي احسن فلم يسعفه ذهنه على التأمل وقد احس بالتعب الشديد ورأى ابا رحاب قد تعب ايضاً . فقال له لقد اتعبت نفسك يا جداه بوصايتي فاشكر عنايتك واني ارى في قولك الصواب واطلب الله تعالى ان يقدرني على العمل به فاستريح الليلة وغداً نصبح ان شاء الله وقد ارتحنا فنستأنف الكلام . قال ذلك وأكب على يده فقبلها فرآها قد زادت برودة وجمودا . فقال له جده « ثم هنيئاً يا ولدي ولكني اخشى ان لا اصبح في الغد فلا بد من كلمة اقولها وهي خاتمة وصيتي لك » قال ذلك ومد يده فدنا سعيد اليه فعانقه وبكى ثم قال والدمع ملء عينيه وشفتاه ترتجفان ونفسه تهتز « اذا شئت يا ولدي ان يفارق جدك هذه الدنيا مرتاحاً مطمئناً عاهدني بانك تعمل بوصيتي اني انك لا تبغي سوى الامام علي بل اذا رايت سيفاً للدفاع عنه دافع بكل جهدك . . هل تعاهدني على ذلك ؟ . . . عاهدني عليه . واجهر قلبي واذكر اني جدك ووالدك ووصيك واني ربيتك وكذلك واني لا اريد بك الا الخير . هل تعاهدني على ذلك . . قل نعم واجهر قلبي اني قلتي عليك . . . . . »

فتأثر سعيد من كلام جده حتى اغرورقت عيناه بالدموع وتذكر حنوه والعطافة فلم يسعه الا الايجاب فعاهده على وصيته

www.marefa.org

ولكنه لم يكد يعاوده حتى تذكر عهده لقطام في الضنّ من ذلك فعظم عليه الامر على ان الغفلة أنسته هول ذلك الانضاد . ورأى في جده مبلاً الى الرقاد فدعا الرجل الموكل بحدسته وامره ان يتولى تعهده في اثناء رقاده ويخرج الى غرفة اخرى يزع فيها ثيابه والتمس الراحة . اما الرقاد فلم يكن له فيه مطمع بعدما اغابه من الهواجس والمشاغل على انه لم يكن يبدأ له بال واذا فكر في حاليه ازداد الامر خطارة لديه وهالة ما رين به نفسه من عهدين متناقضين . فكان كلما تصور عدوله عن قتل الامام علي شعر بارتياح من الخطر الذي كان مخافة على نفسه لو باشر الفتل . ولكنه لا يلبث ان يذكر بعهده المكتوب وينلبه المغلول حتى ترتعد فرائصه ويرتبك في امره فيهب من فراشه كأنه اصيب بخبل

الفصل الثامن عشر

﴿ طيف قطام ﴾

وما زال في مثل ذلك حتى انقضى نصف الليل وهو لم يغمض له جفن ولم يزدد الاّ اضطراباً وقلقاً . وضاقت الدنيا لديه فنهض من فراشه وترتّل ببرده وعباءته وتعمم وخرج يلتمس الخلاء . وكان الظلام مخيماً وقد رقد الناس ولم يبق في شوارع مكة احد . فارتاح لذلك الهدو وسار لا يدري الى اين وهو غارق في هواجسه ولم يسر قليلاً حتى شعر بالبرد فالتف بالعباءة وظلّ ماشياً تارة ببطء وطوراً يسرع على غير هدًى فما شعر الاّ وهو بباب المسجد الحرام واحسّ لساعته بارتياح . فقال في نفسه لادخلنّ المسجد اصلي ركعتين لعل الله يوحي اليّ طريقة تخفف اضطرابي . وكان الباب مفتوحاً وصحن المسجد خالياً فأطبط نعليه ودخل حتى دنا من الكعبة فصلى وسجد فاحسّ لساعته براحة فطاف حول الكعبة ثم انتحى مكاناً وراءها اتكأ فيه وعادت اليه هواجسه . فارسل بصره يراقب النجوم السابحة في الفضاء وقد اجتذب بصره جمال القبة الزرقاء وانكاره تائهة في ما احدق به واشتدّ البرد عليه فادخل رأسه في العباءة جعلها خماراً . وكأن التعب والبرد تغلبا عليه فخدر بدنه واستولى عليه النعاس ولكنه

www.marefa.org

لم يكد يغمض جفنيه حتى ابتدرته الاحلام فرأى قطامًا بجلباب اسود وقد اسفرت عن محياها فبدت عيناها المكحولتان ورآها تمشي نحوه حافية القدمين على بساط من ريش النعام الابيض . فخفق قلبه لرؤيتها وهمّ بالسلام عليها فرآها اعرضت اعراض الغاضب وعيناها تفيضان بالدموع فتفطّر قلبه لرؤيتها وساءه اعراضها فهمّ بالاقبال عليها فلم تسعفه رجلاه لما تولاّها من الرعدة فناداها بلهفة فرجها فلم تجبه وظلت معرضة وقد تحوّلت عنه ومشت وهي تنظر اليه شزرًا ولسان حالها يقول « لقد خسئت عهودي فيا انت اهلٌ لي »

وحاول سعيد اللحاق بها ليخبرها ببقائه على العزم فلم يستطع ولما ابتعدت عنه همّ ان يناديها فأفاق من رقاده فاذا هو وحده بجانب جدار الكعبة والظلام محدق به

فمسح عينيه ليتبين حالة أفي يقظة هو ام في منام ولما تحقق انه كان في منام حمد الله وأكبّه ايقن انه اذا لقي قطامًا لا يرى منها غير الاعراض

فمكث صامتًا تتقاذفه الهواجس وهو لا يهتدي الى حلّ مقنع فنهض يلتمس المنزل ليرى ما تمّ لجمع بعد ذلك الحديث . والتياق للالتحاف بالفراش بعد بضع ساعات قضاها في ذلك الخلاء والبرد قارس . ولم يكد يتلو سورة الفاتحة وهو عائد حتى سمع لغطًا خافتًا كأن اناسًا يتسارّون . وكان قد وصل الى مقام ابراهيم امام الكعبة (١) فوقف واصاخ يسمع فسمع خطوات بطيئة تقترب من الكعبة وهمسًا يتكرّر كأن القادمين يتشاورون في امر هام . فانزوى وراء المقام في مكان لا ينتبه اليه احد وخصوصًا في ذلك الظلام ولبثه كان اذا ارسل بصرهُ وقع على الكعبة وحواليها

الفصل التاسع عشر

﴿ المؤامرة ﴾

فما لبث ان رأى ثلاثة رجال لم يعرف احدًا منهم ولكنه عرف من قيافتهم انهم غرباء على انه لم يقدر على تمييز الوانهم ولا سحنهم وقد لفوا رؤوسهم بالعمائم لفًا كالخمار اما اتقاء للبرد واما تنكرًا

(١) السيرة الحلبية ج ٣

www.marefa.org

فهمة المرعم وخنق قلبة خوفاً من انكشاف مكانهم وربما كانوا في عجلة اذا طلع انهُ اطلع عليها سعيد في قتلهِ . فبالغ في الاروال وخاف ان بداهة العطاس فلا يستطيع حبسهُ فينفضح امرهم فظل مفكراً . اما هم فوصلوا باب الكعبة واخذوا من سعيد يحلفهم يراهم جميعاً ولو كان الفرطالما او كان هناك مصباح لتبين سحنهم جيداً ولكنهُ لم يقدر على تمييز شيء منهم لاشتداد الظلام . على انهُ تأكد من مجمل احوالهم وحركاتهم انهم جاؤوا لامر ذي بال احدهم طويل القامة وهو اكثرهم حركة فجلس وقيفاهُ الاربعة وظل هو واقفاً ثم جلس القرفصاء وقال « والآن ما لنا ولهؤلاء انهم جبناء نمالوا نبدأ بالامر فيكون لنا الفخر »

قال الثاني وكان قصير القامة ممتلئ الجسم « اني ارى رأيك اذ ما نابنا من هؤلاء الائمة الاَّ الضرر . هم يبارزون على الخلافة فيقتل المسلمون بعضهم بعضاً في نصرتهم فاذا قتلناهم رقدت الفتنة . نعم نقتلهم جميعاً » قال ذلك بصوت خافت وفي نطقهِ لجلجة وكان باتت بنة ويسرة قلاً بسمعهِ احد

فقال الرفيق الثالث وكان لا يزال ساكتاً « اني لا افكر في واقعة النهروان ومن قُتل فيها من الابطال والشجعان الاَّ ويخطر قلبي دماً . ان علياً قتلهم لانهم لم يرضوا بحكمهِ بالتحكيم »

فابتدرهُ الاول الطويل وكان اكثرهم جرأة على الكلام وكان رفيقاه اذا تكلما خفضا صوتيهما اما هو فكان لا يهاب شيئاً فتكلم ملء فيهِ فقال « لا يكفينا التذمر والتضجر ونحن سكوت نرى ابناءنا واخوتنا يقتلون في نصرة اولائك الائمة ولا نبدي حراكاً . هلمَّ بنا نقتلهم ونريح المسلمين من شرهم »

فلما سمع سعيد حديثهم علم انهم جاءوا للفتك بهِ على قتل جماعة من الائمة الامام عليٌّ واحد منهم ولكنهُ لم يعلم من هم الباقون . فجعل يرتعد لما تره وزاد خوفهُ على نفسهِ اذا كشف مكانهُ . وكان في بادىء الرأي قد ندم على مجيئهِ هناك فلما توسم خطارة ما هم فيهِ سرَّ لبقائهِ على انهُ ما زال خائفاً من النضيحة فلبث منزوياً وهو يحبس انفاسهُ خوفاً من السعال او العطاس فانهُ لو نضح او عطس لاَّ جتمعهم جميعاً وهم على بضعة اذرع منهُ . ولو قام احدهم ومشى خطوتين نحو مقام ابراهيم لرأى سعيداً امامهُ . اما سعيد فكان يفكر في حيلة ينقذ بها نفسهُ لو كشف مكانهُ . وكان مع شدة الظلام يخيل لهُ

www.marefa.org

انه في رابعة النهار لخوفه وقد ساعده على ذلك صحو الجو وملأ لؤ الكواكب لان السماء كانت نقية لا يحجب نجومها الا سحب رقيقة متفرقة كانت تجتمع احيانا وتتلبد فتزيد الظلام كثافة وقد كان سعيد في انفراده وراء الكعبة قبل مجيء هؤلاء انما يشاغل نفسه بمراقبة حركات تلك السحب . وكان اذا تلبدت او تكاثفت انقبضت نفسه اما الآن فاصبح لا يرى غير الخطر امامه وود تكاثف الغيوم لانها تزيد في احتجابه وقد نسي طعامه وجعل واصبح قلقا لاستطلاع سرّ ذلك الاجتماع

الفصل الشعرون

﴿ ١٧ رمضان ﴾

وكان السكوت قد استولى على تلك الجماعة لحظة على اثر كلام ذلك الطويل العريض فلما رأى هذا سكوت رفيقيه ابتدرها قائلاً « واذا فعلنا ذلك ما الذي نخافه غير الموت ؟ حبذا الموت في سبيل انقاذ المسلمين من فتنة يقتتلون فيها . واصل الفتنة كما تعلمون ناشئة من كبارنا يتنازعون على الخلافة او هي السلطة الدنيوية وهم علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان وعمرو بن العاص هلمّ بنا نقتلهم ونريح الناس منهم »[1]

فقال الثاني « لقد وافقتك على رأيك من اول الامر ولكن ما السبيل الى قتلهم وانت تعلم انهم محاطون بالجند والاعوان فلنفكر في طريقة تضمن لنا الفوز وتأمننا من الخطر »

فاسرع الاول قائلاً « اراك تتردد في القتل كأن الامر هالك خطرٌ وكأني بك تخاف كبير اولئك الائمة وتخشى ان يكون من حظك فتلة . تعالوا نقسم العمل فيما بيننا . تعالوا نتعاهد على ان يقتل كلٌ منا واحداً من اولئك الثلاثة ولنعين يوماً نباشر العمل فيه معاً فيكون احدنا في الكوفة لقتل علي والآخر في مصر لقتل عمرو والثالث في الشام لقتل معاوية في يوم واحد ويقتل كل منا صاحبه في ذلك اليوم فيستريح المسلمون وقد نجوا من اسباب الفتنة فيختارون خليفة يولونه امورهم وترجع الخلافة الى بساطتها »

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢

www.marefa.org

ولما سمع سعيد ذلك هيب امظم هذا المشروع ولم يصدق انهم يتفقون على القيام به . ولاح لهُ لاول وهلة ان علياً اذا قتل رضيت قطام بو وان لم يكن قتلهُ على يده ولكنهُ تذكر كلام جده ووصيتهُ بان يدافع عن عليّ لبراءته مما ينسبونهُ اليهِ فاطمأنت نفسهُ . وما لبث ان شغل عن تلك الهواجس بما دار بين اولئك المتآمرين . فان المتكلم الاول لما فرغ من كلامهِ ولم يرَ من رفيقيهِ تلبية لم يصبر حتى يسمع جوابهما فقال لهما « لا تتردد ولا يهولنكما الامر وهو اسهل ما يكون على ذي مروءة . وكاني بكما تفكران في كيفية اقتسام العمل وتخافان ان يكون نصيب احدكما اصعب مراساً من نصيب الآخر فلا تخافا اني اتعهد بقتل اكبر هؤلاء الثلاثة واشجعهم . انا اقتل عليّا ابن ابي طالب فآتي الكوفة وان يكن مقامي في الفسطاط فاقتله » قال ذلك واقبل حتى دنا من باب الكعبة وامسك بحلقتهِ وقال لها « ها اني امسكت بحلقة الكعبة واقسم بالله وبهذا البيت الحرام اني اقتل علياً ابن ابي طالب ابذل في سبيل ذلك ما في وسعي واشهد الله على ذلك »

فلما فعل ذلك نهض رفيقاه وقد اندفعا الى القسم فامسك كل منهما بحلقة الباب واقسم احدهما انهُ يقتل معاوية بن ابي سفيان والآخر انهُ يقتل عمرو بن العاص

ولا تسل عن حال سعيد بعد ان تمّ التعهد على هذا الفعل الخطير وود لو يعرف اولئك المتعاقدين ولكنهُ لم يرَ سبيلاً الى ذلك . على انهُ علم من خلال حديثهم ان المتعهد بقتل الامام علي من اهل فسطاط مصر

ثم رأى الثلاثة عادوا الى مجالسهم فقال احدهم وهو السجين القصير لقد تعاهدنا على قتل هؤلاء الائمة ولكننا لم نعين اليوم الذي يعمل فيهِ ذلك وان لم نعينهُ فشلنا جميعاً

فقال الثالث « وهذا رأيي انا ايضاً لاننا ان لم نعيّن اليوم كان المجال واسعاً ونخشى اذا سبق احدنا الآخر ولم ينجح او قتل او قبض عليهِ ان يخاف الباقيان ويرجعا . فلنعين اليوم والساعة

فقال الاوّل ان الساعة لايمكن تعيينها ولكننا نعين الليلة فليكن عملنا في ليلة واحدة . في اي الشهور نحن الآن ؟

قالا في جمادى

www.marefa.org

قال فلكن موعدنا رمضان المبارك حتى لا نعيّد الفطر الاّ والمسلمون كافة في راحة وإذا قتلنا لقينار بنا وقد فعلنا ما علينا . فاختاروا ليلة من ليالي رمضان

قال الثاني « اني اختار الليلة السابعة عشرة من ذلك الشهر فما قولكم » (١)

قالوا « انها خير ليلة » ونهضوا وسعيد يخاف ان يروا به فيروه ولكنهم داروا حول الكعبة كأنهم يطوفون بها وليست هو بنظر عودتهم فلم يعودوا . فلما استبطأهم علم انهم خرجوا من باب آخر او داروا وتحولوا الى الباب الذي دخلوا منه . فرفع رأسه ونظر حوله فلم ير احداً ولا سمع صوتاً . فنهض وطاف حول الكعبة فتحقق انهم خرجوا . فجلس هنيهة يفكر في ما مرّ به وهو يحسب نفسه في حلم لغرابة ما رآه وإتفاق حدوثه في الليلة التي اوصاه جدّه فيها ان لا يقتل عالياً . ونظر الى الافق فاستقبلته الزهرة تتلألأ كأنها تشير باقبال الفجر . وتذكر جدّه فقال لاعودنّ الى المنزل قبل ان يطلع النهار ويخرج الناس . فعاد يلتمس البيت

الفصل الحادي والعشرون

﴿ آخر العهد بأبي رهاب ﴾

ولما اقترب من المنزل خفق قلبه مخافة ان يكون جدّه قد اصاب حتفه في غيابه فدخل الدار فرأى السكوت مستولياً عليها فاستبشر والتمس الحجرة التي كان جدّه نائماً فيها فرأى المصباح لا يزال مضيئاً فاطلّ من الباب فرأى عبدالله جالساً بجانب الفراش وجدّه نائم . فنظر الى عبدالله كأنه يستطلعه الحال فنهض لاستقباله ووجهه باشٌ فاطمأن باله وقبل ان يلقي التحية ابتدره عبدالله قائلاً لقد شغلت بالنا يغيابك فان جدك افاق من نومه مراراً والتمس ان يراك ونحن لا نعرف مكانك وقد أُلحّ كثيراً في طلبك

قال وكيف هو الآن

قال هو في خير وقد رأيناه في راحة لم يذقها منذ ايام

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

ولم يتم عبدالله كلامهُ حتى رأى ابا رحاب يتحرك في فراشهِ فتقدم سعيد نحوهُ فاذا هو قد فتح عينيهِ واشار اليهِ بيده فدنا منهُ وجثا امامهُ يلتمس منه اشارة

فقال ابو رحاب اين كنت يا ولدي فقد التمسناك مراراً فلم نقف على مكانك

قال خرجتُ في حاجة الى الكعبة واتفق لي حادث شغلني عن المجيء حتى الآن

فمد الشيخ يده حتى قبض على يد سعيد وضغط عليها كأنه لا يريد ان يفارقه وسعيد صامت لا يبدي حراكاً لشدة تأثره من منظر جده الشيخ وقد شعر انهُ انما ضغط على يده ضغطة الوداع

فترقرقت الدموع في عينيهِ والتفت الى عبدي جده فرآهما غارقتين بالدمع وهما شاخصتان اليهِ فتخطر قلبه وهمَّ ان يتكلم فايدرهُ جده قائلاً « اراني لا ازال في قلق على مستقبل حياتك واخشى ان لا تكون استوعبت نصيحتي فقد تحتاج وانا في آخر ايام الدنيا نصيحة اوحي الميَّ ان القيها اليك . وقد تركتني الليلة غارقاً في بحار الاحلام وكأن هاتفاً خوَّفني من غيابك . هل انت باقٍ على عهدي يا سعيد »

قال « لقد عاهدتك يا جداهُ عهداً ووثيقاً اني لا انوي شرًّا للامام علي ما حييت وانا باقٍ على عهدي واريدك علماً انني لقيت في الكعبة اناساً يتآمرون على قتله وقتل صاحبيهِ معاوية وعمرو في يوم عينهِ ويتعاهدون عليهِ فلم يبق ثمت حاجة الى سعيي »

فبغت الشيخ وحملق بعينيهِ وصاح قائلاً « ومن هم هؤلاء »

فقصَّ سعيد خبره مختصراً وختم كلامهُ قائلاً « اني لم اعرفهم ولا استطعت اللحاق بهم خوفاً منهم لاني اعزل »

قال « ألم تعرف الذي اعهد بقتل الامام علي »

قال « كلاَّ ولكنني علمت من عرض كلامهِ انهُ من مصر ويغلب على ظني انهُ من الخوارج »

فصمت الشيخ برهة كأنهُ يفكر في امر هام ولحظ سعيد من شخوص عينيهِ وذبول اجفانهِ وتغيرُّ سحنتهِ انهُ تعب . واما ابو رحاب فتجلد وقال وصوتهُ يرتجف وقد اصبح لا يستطيع التلفظ بكل مقطع من مقاطع الكلام كان لسانهُ اصيب بتاعم قال « يا ليتني كنت بينهم لاقنعهم بالكف عن ذلك . . . ولو استطعتُ استمهال أجلي لسعيت في البحث عنهم فاذا عرفتُ الساعي في قتل الامام علي ارجعتهُ عن غيهِ بالبرهان . . .

www.marefa.org

انهم والله ظالموا » ... ثم سكت هنيهة ربما يستريح وعاد الى الكلام هو يتلجلج ويقف عن الكلام عند كل شهيق من تنفسه . وكان تنفسه قد اسرع وظهر الاضطراب عليه فتحقق سعيد ان جده في حال النزع فارتعدت فرائصه وتضعضع قلبه وأسف لحاله ولكنه اصغى لتتمة حديثه فاذا هو يقول « وأما انت يا سعيد فاصغ لقولي واعمل بنصيحتي ... ولا اقبل منك السكوت عن هذا الامر . واما انت ... مكلف بالبحث عنه ... انك مكلف بالبحث عن هذا ... الرجل في مصر ... والشام . والعراق حتى تعلم مقره ... فاما ان تقنعه ... بالعدول . واما ان تتبع ... الامام يامره . اني ... اني ... هذا الامر ... على عاتقك ... فاحذر ... ان تتقاعد عنه والا فانك ... قاتل نفسك بيدك ... هذه وصيتي لك احتفظ بها ولا تهاون او تتجاهل ... والله شاهد ... على ما اقول . هذه ... وصيتي الاخيرة لك ... هذه ... آخر كلمة اتفوه بها في هذه ... الحياة الدنيا ... وكنت مستغربًا استئخار أجلي الى ... الساعة . وكنت احسبني ... ميتًا منذ ايام ولكن الله ... انما اراد بذلك ... ان أكل البلك ... بهذا الامر ... ... هذه آخر وصيتي لك ... ابحث ... عن هذا الرجل وارجعه ... عن غيه ... كما ارجعتك ولو أوتيت ... وعمرًا ثانيًا لقمت في بني امية ... وفي الخوارج ... خطيبًا اصرح براءه ... الامام علي على رؤوس الاشهاد . ولكن آه ... ان الساعة آتية ... لا ريب ... فيها ... وها اني مستودعك ... الله وآخرك ... لـ ... ة . اقو ... لها لك . علي ... علي ... دا ... فع ... عن علي بيدك ... وقلبك ... ولسا ... ... ك ... »

ولم تخرج هذه الكلمات الاخيرة من فيه حتى اخذ صوته ثم شهق شهقة دوى صوتها في اطراف المنزل وارتمت مفاصله فاقلتت يد سعيد من يده . ونظر سعيد الى جده فاذا هو قد أغمض جفناه ووقف تنفسه ... فجسّ يده فاذا هي باردة فلمس جبينه فاذا هو كالثلج وقد فتح فاه وارسل نفسه الاخير وبطلت حركة الحياة فاصبح تمثالاً من تراب . فاقشعر بدن سعيد ولطم يدًا بيد وصاح « جداه ياجداه ... واويلاه كلمني ... ردني نصيحة أخرى ... » وما من عجيب فايقن بوفاته وكان عبدالله قد خرج فعاد ولما رأى ابا رحاب قد مات اخبر اهل المنزل فاجتمعوا وعلا النحيب والبكاء

www.marefa.org

ولم يكن الحزن على موت ابي رحاب شديداً لتوقعهم ذلك منذ ايام . ولكن سعيداً كان حزنه مضاعفاً لامتزاجه بالهواجس والاضطرابات بما سمعه من جمع مع ما هو مقيد به من العهود في الضد من ذلك

الفصل الثاني والعشرون

﴿ رفيق جديد ﴾

وبعد الاحتفال بالدفن عاد سعيد الى صخرته وفكر في حاله فرأى نفسه في مشكلة لا يدري كيف يتخلص منها . وبعد التأمل الطويل راى المسألة مع اشكالها ليس اسهل من حلها اذا استطاع اقناع قطام ببراءة علي فتتنازل عن الانتقام . فلما قنع عليه بذلك توسم فيه خيراً واحسّ بانفراج الازمة فاعمل فكرته في الاسلوب الذي يستولي به على عواطفها ويغير اعتقادها بالامام علي حتى تسكت عن الطلب بثار والدها واخيها منه . فخيل اليه ان اقناعها ممكن فبدا يرتب ذلك

واسرع في تدبير شؤون اهله وكان في جملتهم شاب اسمه عبد الله يراه ورحاب كما يرى سعيداً وكان يتعزّى به ويحبه وهو الذي انفذه الى الكوفة لاستقدام سعيد فلما مات ابو رحاب تقدم عبد الله الى سعيد ان يأذن له بمصاحبته والح في الحاحه واستهلك في سبيل مرافقته . فنجب سعيد لتلك الرغبة في السفر ولم يكن يعهد عبد الله ميالاً الى ذلك

والسبب في تلك الرغبة ان ابا رحاب كان من الدراية والفراسة بحيث لم يخف عليه ضعف سعيد فارسل اليه الرسالة الاخيرة وهو يخاف عليه غدر الناس وخداعهم . ولكنه استدرك ذلك قبل موته فاوصى عبد الله هذا ان يكون له عوناً فيصحبه حيثما سار فيحميه ويرشده وان يكن هو شاباً مثله ولكنه كان اعرف منه باحوال الدهر واسوأ ظناً في ما جربات الايام

وبعد ايام ودّع سعيد اهله واصطحب عبد الله وسارا بطويان الصحراء نحو الكوفة وعبد الله لا يعرف شيئاً من علاقة سعيد بقطام ولا ما تآمر عليه الثلاثة في

www.marefa.org

المعبد الحرام . ولكنه فهم من وصية ابي رحاب ان سعيداً كان عازماً على قتل الامام فارجعه ابو رحاب عن عزمه . ومع حديث سعيد عن المؤامرة ولكنه لم ينهها جيداً . فلما اوغلا في الصحراء فتح عبد الله حديثاً تطرقا منه الى مقتل الامام علي واستأنس سعيد بعبدالله وهو مخلص من فطرته فتح له قلبه وكشف له عن سره وارتاح لمشورته . ولم يصلا الكوفة حتى اصبح عبد الله عارفاً بكل مكبونات قلبه فشاركه في شعوره من قبيل عهده مع قطام ورجوعه عنه فلبثه على وصية جده وهوّن عليه اقناع قطام الى ان قال « فاذا لم تقتنع ليس اهون من ان تعدل عنها والنساء كثيرات واما اختار لك فتاة من اجمل الفتيات خلقاً وخلقاً وارفعهن نسباً لاتناس بها قطام » وكانا يتحادثان وهما على ناقتيهما يطويان الصحراء طياً

فقطع سعيد عليه الكلام قائلاً « لا لا تقل ذلك ليس في الناس اجمل من قطام عندي ولا صبر لي على اغضابها ويظهر انك لم تعان الحب ولا عرفت سلطانه » قال ذلك وتنهد ... وصمت هنيهة ثم قال « وهب مع ذلك اني لا احبها ولا انا عالق بها فان في يدها صكاً مكتوباً اخاف اذا أغضبتها ان تشي بي الى علي او ... ولكنني واثق بصدق مودتها فهي لاتريد بي سوءاً بل تبغي رضائي »

فقال عبد الله اذا كانت تحبك كما تقول فليس اهون من اقناعها في العدول عن قتل الامام فهون عليك البحث عن المعهد بتلاوة وتردده عن غيره فاذا لم يرتدع فذلك او نقلت خبره الى الامام ليرى رأيه فيه

فارتاح سعيد لهذا الرأي

الفصل الثالث والعشرون

﴿ اللجاجة والسذاجة ﴾

واقبلا على الكوفة ذات يوم والشمس قد مالت الى المغيب وكان سعيد قد قضى ذلك النهار وهو يحث ناقته لعله يدرك المدينة قبل الغروب ليتمكن من المرور الى بيت قطام اذ لاصبر له على فراقها وهو على مقربة منها . فلما دنا الغروب وهو لم يدخل

www.marefa.org

الكوفة انقبضت نفسه وادرك عبد الله انقباضه مما آنسه فيه من السكوت التام فأراد ان يصرف ذهنه عن ذلك فقال « لهُ وهل نحن بعيدون عن منزلك »

قال « لا ظنيت ان ندخل المدينة حتى تدنو منه لانه في اطرافها »

قال « اني اكاد لا اصدق بوصولي لاستريح من وعثاء السفر والتخلص من ركوب الجمال فقد اتعبني جريها وخصوصاً في هذا النهار »

قال « سعيد اني ارائي في الضد من ذلك وقد نفي نفسي ان اصلي العشاء في المسجد قبل المبيت »

فادرك عبدالله انهُ انما يريد زيارة قطام لحملها على وصية جديد ويرى ما يبدو منها اذا علمت بما عوّل عليه فرأى ان يثنيه عن زيارتها ربما يفاوضه في الامر ويبيّنا الحيلة في مخاطبتها الا ينثلا لعلمه بسلامة نية سعيد فخاف عليه السقوط في ما يخشاهُ . فقال لهُ « دعنا نصلي العشاء معاً في المنزل ونصبح ان شاء الله فنصلي في المسجد »

فلم يراجعه سعيد حياء وقال له حسناً رأيت . ولكنه عوّل في باطن سره على الذهاب خلسة الى منزل العجوز لبابة يتجسس الحال

وما لبثا ان دخلا الكوفة وقد امسى المساء فالتمسا منزل سعيد فنزلا واغتسلا وصليا ثم تناولا العشاء وتظاهر سعيد بالتعاس فذهب كلٌّ الى فراشه

وتربص سعيد ريثما ظن رفيقه نام فالتفّ بعباءته وانسلّ الى بيت لبابة وقضى طريقه يفكر بعبارة يبدأ بها الكلام . فوصل المنزل فرأى لبابة خارجة منه وقد تخمرت ومشت تتوكأ على عكازها فبغت لرؤيتها وحياها فردت التحية وهي لا تصدق انها تراه . فلما تحققت انه سعيد رجعت وهي تبالغ في الترحاب به وتضحك ضحكتها المعهودة . فاستأنس بلهجتها ثم ما لبث ان تذكر ما جاء به من الامر الجديد حتى انكمش قلبه ولكنه تمها حتى وقفا بباب الغرفة فأمرت عبدها ان يضيء المصباح وعادت الى مخاطبته فسألته عن ساعة وصوله . فقال « اني وصلت الساعة ومع شدة تعبي من السفر الطويل لم اصبر على مشاهدتك قبل المنام »

فتنهدت فهتف دوى لها البيت وخيل لهُ لفرط قلقه ان عبد الله يسمعها فقال لها بصوت خافت « وما الذي يضحكك يا خالة »

www.marefa.org

قالت « لقد اضحكني شوقك الى رؤية هذا الوجه القبيح (واشارت الى وجهها) وانت انما تشتاق الى رؤية وجه اجمل منهُ .. اليس كذلك ... »

فقطع كلامها وهو يبالغ في خفض صوته وقال « لا والله اني الآن في شوق اليك اكثر من شوقي الى قطام لاني وقعت في مشكل لا ارى احدًا يفهمني منهُ سواك فاسعفني برأيك ودهائك . وارجو قبل كل شيء ان تخبريني قدومي اليك الآن سرًّا تكتمينهُ عن كل انسان لان معي رفيقًا صحبني من مكة ولما وصلنا الكوفة ورأى فيَّ ميلاً الى الخروج اقعدني الى الصباح فاستغربت وبقيت ولما استغرق في نومه جئت خفية .. »

ولم يتم كلامه حتى جاء العبد بالمصباح فدخلا الغرفة وسعيد يقول « لقد عودتني يا خالة ان تكوني عونًا لي في مصائبي وانت التي بهارتك ودهائك اقتحمتُ مطامعًا بزواجي فالتمس منك الآن ان تنقذيني بما جئت بهِ اليك »

فعجبت العجوز لاهتمامهِ الشديد ولو كان قلبها حيًّا لخفق واضطرب ولكنها تعودت الاهوال ولاقت الغرائب فلم يعد يحبها امرٌ . فقالت « قل ما بدا لك اني مستودع اسرارك ولا آلو جهدًا في خدمتك

فتنهد سعيد وسكت وهي تحدق فيهِ تعجبها الغرائب . وبعد هنيهة قال لها « لقد جئتك بامرٍ لا ادري كيف ابدأ الحديث بهِ »

فقالت « قل لا تسأل ولا تجزع فاني عركت الدهر ولقيت الاهوال حتى لم اعد استغرب امرًا .. قل ما بدا لك »

الفصل الرابع والعشرون

﴿ كشف الأمر ﴾

قال سعيد انت تعلمين اني عاهدتُ قطامًا على قبل الامام علي

قالت نعم اعلم ذلك

قال وهل تعلمين لماذا خرجت الى مكة

قالت علمت انك تخصصت اليها ولكني لم اعلم سبب خصوصك

قال تخصصتُ اليها اجابة لطلب جدي رحمهُ الله

www.marefa.org

قالت جدك ابو رحاب ؟ ما الذي اصابه ؟

قال انه مات بعد وصولي بمكة بيوم واحد وكان قد بعث اليّ ليراني قبل الممات

قالت « مات ابو رحاب ! - رحمة الله عليه - انه كان رفيقاً بك شفوقاً عليك واما اعلم كيف ربيت في حجره وقد كان احنّ عليك من الوالد . ولا شك ان موته شق عليك كثيراً . وكم كنت تودّ ان يبقى حياً ليفرح لك ويشهد زواجك بعد ان يعلم بما لعهدت به لشقيقتي امينة من العار و . . . . »

فقطع كلامها قائلاً « آه يا خالة لقد كنت اظن ذلك قبل ان فاتحته وأكتمه ما لست ان ندمت على ذهابي اليه لانه خلاني قبل موته حملاً لا ادري كيف انصرف به »

قالت وماذا عسى ان يكون ذلك

قال ان ما ظننته سهماً لارتياحه قد رأيته داهياً لغضبه

قالت هل اخبرته بعزمك على قتل علي

قال « نعم اخبرته ولكنه انكر عليّ قتاله واوصاني وهو على فراش الموت ان لا امد يدي الى هذه الجريمة لان هاشماً جاءه رأساً برأس الامام علي ما يغسله به »

وكان سعيد يتكلم ولميعة شاخصة اليه وقد اسعد لسماعه حيناً واكبرها احياناً ومكرها لم تبد حراكاً ولا اظهرت استغراباً بل تطلعت باصلاح خمارها تنتظر آخر الحديث

واما سعيد فكان يحاطبها وهو يتوقع اشتها او غضبها فلما رآها صامتة مصغية تحرأ على اتمام الحديث فقال « ولما سمعت كلام جدتي دافعته مراراً واصررت عليه اصراراً على رأيه ونقض عليّ شيخاً كثيراً من الادلة والشواهد المؤيدة لاقواله »

قال سعيد ذلك وسكت وهو يستطلع ما تتراءى التعبيرات التي تعاقبت على وجهها فلم يبد على وجهها شيء من الاستغراب فعاد بعد برهة الى المؤامرة التي شاهدها في الكنيسة طالباً منها ان تقارن ما تقدم من الحديث الغريب . فلما سمعت قصة المؤامرة على قتل الامام عليّ وعمرو ومعاوية رأت فيها العربة ولكنها اظهرت الاستخفاف بها تأمروا عليه وارادت ان تتحقق ما عوّل هو عليه فقالت « وهل علم ابو رحاب قبل موته بتلك المؤامرة »

www.marefa.org

قال « نعم اني اطلعته عليها قبل ارسال سمو الاخير بعض الساعة فلم يردني الاَّ تلاوة وصية قالها وهو في آخر ساعات الدنيا ... آه من تلك الوصية »

قالت وما هي

قال « انهُ اوصاني ان لا اكتبني بالكف عن قتل الامام علي بل يجب عليَّ ان ادافع عنهُ فلم ارَ بدًّا من اجابة طلبهِ وانت تعلمين مركزي في مثل هذه الحال ... ولكني لم اعاهدهُ الاَّ بعد ان تعفَّر قلبي لدموعهِ التي كانت تحدر على لحيتهِ وقد تحصصت عيناهُ والتعم لسانهُ وتلجلج صوتهُ حتى خيل لي ان عظامهُ تتكلم .. »

الفصل الخامس والعشرون

﴿ غاية الدهاء ﴾

فلما تحققت امامة عدولهُ عن عهده خامت اذا اظهرت لهُ الاستياء ان يبوح بامرها وامر قطام الى عليٍّ وهما في الكوفة فيستتم عليٌّ منهما ما رادت ان تخادعهُ فتأخذ منهُ ولا تعطيهِ فقالت « وماذا لم تعاهدهُ فان كلام مثل هذا النبع الجليل يعتبر خارجًا من افواه الملائكة »

فلما سمع سؤالها انشرح صدرهُ فاهتم وقال بكل بساطة « كيف لم اعاهدهُ وهل استطاع غير ذلك . ولكني اعترف لك اني عاهدتهُ وخاطري مستغل بقطام وعهدها لعلي ان ذلك العهد يحرمني منها .. » ثم عطف فقال « ولكني لما تذكرت حبك لي وغيرتك عليَّ هان الامر لديَّ وقلت ان ما يعسر على مثلي يهون على خالتي لبابة ... بالله .. ألا ساعدتني على اتباع قطام بالعدول عن عزمها على قتل الامام علي انهُ والله يرى ما اتجشمهُ به ... بالله ساعديني واشفقي عليَّ فقد وقعتُ في حيرة لم اقع في مصيبة لا يجبي منها سواك .. » قال ذلك وجثا امامها وهم بيدها وقبلها وقد كادت العبرات تخنقهُ

فتظاهرت تلك العجوز الخبالة بالحزن وتنهدت وهي تجذب يدها من بين يديهِ ليسعهُ من تقبيلها واجلسته في مكانهِ وقالت « ملبي مسرَّا يا بني لما تريد والرجو ان يساعدني الله على اقناعها ...

www.marefa.org

فلما سمع سعيد قولها لم يملك عن الابتسام والدمع مل عينيه ابتهاجاً بحبها وفرحاً سيل بعينه التي لم يكن يتوقعها ولا بالمام وفرح بمجيئه في تلك الليلة ومقابلة لمامة قبل مغادته قطام

اما لمامة فنظرت اليه وهي تحك ما وراء اذنها برأس سبابها كأنها تفكر في ما تحتاجة من الاسباب لاقناع قطام وهي بالحقيقة تدبر حيلة لخداع سعيد ثم قالت « طب نفساً ولا تسأل فاني اوكد لك الفوز اذا اطعتني . . . . » فاندفعها قائلاً « الى طوع ارادتك في كل ما تأمرين وهذا مالي وكل ما املكه بين يديك بالله اشفقي عليّ »

وكان سعيد يتكلم ولمامة مطرقة . فسكت هو وطلت هي مطرقة ثم استأنفت الحديث بغتة فقالت « سبحان الله . . لقد مرّ عليّ ايام وانا مستعرضة ما يتدولي من قطام على غير المعتاد والظاهر ان الكلام الذي فاه به جدك في مكة اثر في قطام هما او لا ادري ما هو هذا الغاير »

فاندهش سعيد لما سمعه وقال مادا تعنين

قالت « اعني اني لاحظت في قطام تغيراً غريباً بعد ذهابك عنها لم تعد تذكر الانتقام قط وقضت اياماً عديدة كلها في حيرة او كأن امراً طرأ عليها لا يسكلم الا قليلاً فعسى ان يكون ما غيّرك قد غيرها . وعلى كل حال كن في راحة وسكينة وانا ادبر الامر فلا تذكر انك جئت اليّ ولا انك رأيتني قبل دخولها »

قال « بارك الله فيك . ولكن ان قضيت لي هذه المهمة لا ادري كيف اكافئك ولكني اتقدم اليك ان لا تذكري زيارتي هذه امام احد وخصوصاً رفيقي عبدالله »

قالت « سمعاً وطاعة فعليك اذاً ان تاتي غداً لزيارتها في منزلها واكون انا هناك ولا ترد على السلام والكلام . واحذر ان تذكر شيئاً يتعلق بهذا الامر الا اذا في خاطرك بد وسترى ماذا يتم . . وهل تنوي اصطحاب رفيقك غداً »

قال « انه سيكون معي ولا باس من الخوض في الموضوع بين يديه لانه بمنزلة اخي »

قالت « حسناً فليكن كما تريد وفقنا الله لما فيه خيرك وراحتك »

فازداد سعيد ابتهاجاً بقربها وحبها فقال لها « اسمعي لي ان اقبل يدك مانني لما فقدت جدتي الذي كان بمنزلة والدي حسبت نفسي صرت يتيماً ولكنني تحققت الآن من حبك اني ما زلت مرموقاً بعين العناية . ما اني قد القيت الحمل على عاتقك

www.marefa.org

فدبري الامر كما يلوح لك » . قال ذلك وقبل يدها مرارًا ونهض وانهضت لوداعه وهي تقول له « ثم مرتادًا وموعدنا اللقاء غدًا في بيت قطام »

خرج سعيد من عندها وقلبه يخفق سرورًا لنجاته من شرٍّ عظيم . ويا دري ما نوته تلك الشهرمانة من اساليب الخداع . فلما توارى عنها عادت الى غرفتها وعملت فكرها الخبيثة في حيلة تحالي عليه بحيث يصدق عدول قطام عن غدرها . ولولا خوفها من ان يشي هو بها او بقطام الى علي اذا انكرت عليه وصية جدته لجاهرت بمناوئته ولكنها رأت من الحكمة والدهاء ان تجاريه على رأيه وتحمل قطامًا على مشاركتها في ذلك ثم تحتالان في بقاء المؤامرة مكتومة حتى يعد المؤامرون عهدهم فيقتل عليٌّ . وما درت لبابة ان قطامًا اشد دهاء منها واعظم حيلة وانها ستزيد على ذلك وسيلة اخرى للفتك بسعيد على اهون سبيل

ولم تعد لبابة تستطيع رقادًا قبل مكاشفة قطام بالامر لتدبير الحيلة قبل مجيء سعيد فنهضت لساعتها وسارت الى قطام

الفصل السادس والعشرون

﴿ لقاء قطام ﴾

اما سعيد فانه خرج والفرح ملأ فؤاده حتى الى منزله فرأى رفيقه لا يزال قائمًا للربط نحو فسرَّ لذلك سرورًا عظيمًا ومضى الى فراشه ولكنه لم يستطع رقادًا لشدة تأثره فقضى ساعات يتقلب على الفراش وقد طال ليله وهو يفكر في ساعة اللقاء غدًا ولا يصدق ان يلقى قطامًا على مثل رأيه . فلما تصور عدولها عن قتل علي كاد يطير من الفرح بما سيناله من الاقتران بها ثم يعترضه كلام جدته وما كلفه به من السعي في الدفاع عن علي وردع الساعي في قتله فيختلج قلبه في صدره لهول ذلك الامر . ولكنه لم يكن شيئًا لدى ما ينتظره من السعادة بالحصول على قطام

ولم تغمض اجفانه الى الصباح ولم يكد يتم حتى افاق مذعورًا وقد رأى شعاع الشمس يسطع على جدار غرفته فاسف لاطالته في الفراش والوقت قبل نهض لساعته وخرج يلتمس عبدالله فاذا هو قد لبس بابة و وقف يصلي فصلى معه وهو لا يفقه ما يقول

www.marefa.org

فلما فرغ من الصلاة قال له عبدالله لقد ابطأت في رقادك يا اخا امية

قال انما ابطأت لطول ما لقيناه من التعب في الطريق

فصدقه عبدالله وجلسا على الطعام وسعيد غارق في بحار الهواجس وقد ادرك عبدالله ذلك فهو ولكنه حسبه من قبيل الشوق الى قطام فقال له الا تنوي الذهاب الى قطام

قال بلى ارى ان اسير اليها لعل الله ياخذ بيدنا ونرى منها انصياعاً للحق فتعدل عن عهدها

فاراد عبدالله ان يختبر نيته فقال « وهب انها لم تقبل بذلك فماذا تفعل . هل تبقى على عزمك ام ترجع عن وصية جدك »

قال سعيد « انما نبذل جهدنا في اقناعها فاذا لم تقتنع ظللنا على عزمنا فان وصية جدي مقدسة »

فسرّ عبدالله لجوابه وهو لا يعلم ان سعيداً لم يقل ذلك الاّ بعد ما املاه به ابابة من اقناع قطام ولولا ذلك لتردد في الجواب كثيراً وربما فضل البقاء على عهد قطام على احترام وصية جده لان غرامه بتلك الفتاة الغانية غلب على كل جوارحه

فلما آنس عبدالله ذلك الثبات فيه استعجله في الذهاب الى قطام مخافة ان يعارأ طليو ما يضعف عزيمته . وكان عبدالله قد عوّل في باطن سره اذا آنس فيه تردداً ان يثنيه عن الذهاب اليها . فلما فرغا من الطعام نهضا وسديا بالحسان بيت قطام

ولا حاجة بنا الى بيان ما جال في خاطر سعيد مما سيقاسيه ساعة اللقاء من الاضطراب ولكنه سار مطمئن الخاطر لما الفنه اليه ابابة من المواعيد

ووصلا المنزل عاطلاً على الحديقة فاختلج قلب سعيد في صدره لتذكره الليلة التي لقي بها قطاماً هناك وما وقع له معها من تبادل عبارات الغرام . فدخلا الحديقة وقبلها يسيران بين النخيل رأيا ابابة واقفة بالباب وهي تبتسم . فلما رآها سعيد استبشر وتشدد فمشى ورفيقه يسير في اثره حتى دنوا منها فحياها سعيد كأنه لم يرها بعد رجوعه . فسلمت عليه فقدم لها رفيقه فعرّفها به فرحبت بهما ودخلا حتى اقبلا على غرفة قطام فاذا هي واقفة الى نافذة تطل على البحيرة وقد لبست جلباباً اسود فوقه خمار اسود فلما اقبلا ارخت خمارها وتحولت نحوهما فحياها سعيد وذكر اسم رفيقه لها وهو

www.marefa.org

يقول « لقد اتيت ومعي صديقي واخي عبدالله فانه انسي ومساعدي »

فرحبت بها ودعتها للجلوس فجلسا وجلست هي وكلهم سكوت وبعد السكوت برهة تكلمت العجوز قائلة « لقد اوحشتنا ياسعيد بغيابك طول هذه المدة وقد اخبرنا ريحان انك اتيت يوم سفرك الى هذا المنزل فلم ترَ قطاماً فشغلت بالنا لسرعة ذهابك فعسى ان يكون خيراً

فتنهد سعيد وقال كلا انه لم يكن خيراً يا خالة لاني ذهبت الى جدي ابي رحاب في مكة اجابةً لدعوته على يد اخي عبد الله

فاظهرت لبابة البغتة وقالت وماذا عسى ان يكون سبب استدعائك

قال انه دعاني لاراه قبل موته بعد ان هرم وغلب عليه الضعف والمرض ولما تحقق دنو اجله اراد ان يراني قبل الممات فسرت ولم أَلبث معه الاّ ليلة ثم قضى نحبه رحمة الله

فتظاهرت قطام باستغراب الخبر كانها لم تسمعه قبلاً وقالت « هل مات جدك ؟ .. رحمة الله عليه وعزاك الله بطول بقائك » . ثم تنهدت كانها تذكرت فقيدها وقالت ان موت الاهل شديد الوطأة يا سعيد وخصوصاً اذا كان الميت لم يهرم مثل ابي رحاب

وكان عبدالله يراقب حركات قطام وكان قد سمع بجمالها فلم يلم سعيداً على افتتانه بها ولكنه خاف ان تبقى على عهدها فتخرج من نصيب سعيد فودّ الاستطراق الى الموضوع ليرى ما يبدو منها ثم تذكر ان وجوده هناك لاول مرة قد يكون باعثاً على تهيب البحث في ذلك الموضوع فتظاهر بغرض يحتاج اليه خارجاً ونهض وخرج وخرجت لبابة في اثره اتماماً لحيلتها

الفصل السابع والعشرون

﴿ منتهى الدهاء ﴾

فلما خلت قطام بسعيد قالت له « ومن هو هذا الشاب هل انت واثق به »

قال بنغمة الحب المفتون « انه رفيق صباي وموضع اسراري ولا اخشى باساً من

www.marefa.org

اطلاعه على كل شيء

قالت وهل اطلعته على عهدنا

قال نعم ياحبيبتي وهل ترين ما يمنع ذلك

قالت كلاّ لا ارى مانعاً ولكني اودّ انك لم تطلعه عليه فاخاف خطر لي بعد ذهابك الى مكة

فاستبشر سعيد بهذا الاستهلال فقال « لا ارى بأساً في ذلك لاني اعرف ضميره ولي فيه ثقة تامة . وما الذي خطر لك »

قالت « سأقصه عليك وارجو ان تطاوعني عليه ولا تطالبني بما سبق بيننا من العهود »

قال قولي ما تريدين . وما تريدينه انما هو العهد الذي تعاهد عليه . فاني رهين اشارتك

قالت اتذكر انك جئت الينا يوم سفرك ولم تجدني في البيت ؟

قال كيف لا اذكر ذلك وقد كان له تاثير شديد عليّ

قالت اتدري اين كنت يومئذ

قال كلاّ

قالت خرجت الى اهلي لزيارة . ولم يكن غرضي مجرد الزيارة ولكنني بعد ان عاهدتك على قتل امير المؤمنين شعرت بقلق واضطراب ولم اذق رقاداً تلك الليلة . فلما اصبحت قلت في نفسي لعل سبب هذا القلق ذنب ارتكبته بما سمعت فهو على الامام وهو لا يعلمه . فلاح لي ان امضي بنفسي الحاضلي وابحث عن حقيقة الواقع فرأيت بعد البحث ان الذنب في قتل والدي واخي لم يكن ذنبه هو وتحققت انه بريء وانه نصح لها مراراً قبل الواقعة ان يرجعا فابيا ولما احتدم النزال وعلم انهما تحت خطر القتل اوصى ان لا يصيبهما احد بسوء . ولكن بعض الاغرار قتلهما بغير علمه ولما علم هو بذلك غضب على القاتل وانتقم منه . فشعرت في تلك الساعة بارتكابي امراً عظيماً بما نويته وعوّلت على تحويلك عما تعاقدنا عليه . فتقضيت مدة غيابك وانا في حيرة لا ادري كيف ابدأ باقناعك . وحفظت ذلك في سري حتى عن خالتي لبابة

ولم يتمالك سعيد عند سماعه ذلك عن الوقوف بغتة بغير ارادته وقبل ان يجيبها على خطابها نادى عبدالله ولبابة فجاءا فالتفت سعيد الى عبدالله وقال له تعالَ اسمع

www.marefa.org

يا اخي ما دون الله لنا من اسباب السعادة . فانا لم نتكلف في اقناع قطام الى مشقة . بل هي تريد اقناعها بالعدول عن العهد الذي اخذتك عنه

فاظهرت قطام الاستغراب وقالت وكيف ذلك يا سعيد وما الذي جدّا بو عساه خبرًا

فتمرضت لمامة الكلام فقالت يظهر انك حدثها مثل ما جاءتك هي بو

قال « نعم يا خالة واحمد الله على ذلك فاني جئت من مكة وقد اقنعت براءة الامام علي وتبددت تعهد عاهدت بو جدي ان لا اقتل عليًا وكنت خائفًا ان لا توافقني قطام عليو وهي اذا لم تفعل ذلك كنت من اشقى الناس . فالحمد لله على ما جرى » وجلس يقص عليهم حديث جدّه ووصيتو فظهرت لوائح الشر والسرور على الجميع . ثم استطرد الى حديث المؤامرة فلما ذكر ان احد المؤامرين تعهد بقتل الامام علي فظاهرت قطام بالغضب وقالت الم تعرف من هو الرجل

قال لم اعرفهُ ولكني علمت من سياق الحديث انهُ من فسطاط مصر

قالت امّا وقد علمت بعزم هذا الرجل فاصبح السكوت عنهُ مشاركة لهُ في القتل فلا بد من ردعهِ او قتلهِ

فابتسم سعيد لذلك الاتفاق الغريب وقال « وقد فاتني ان اخبرك بان من جملة وصية جدي ان اسعى في ذلك جهدي »

فقالت « وهذا ما اراه انا ايضًا لان السكوت عنهُ اصبح جريمة ولكني ارى ان يبقى امر هذه المؤامرة مكتومًا بيننا فلا نطلع عليهِ احدًا لئلاَّ يسبقنا احد الى اكتساب الفخر في ردهِ او ان المؤامر اذا علم باشتهار امرهِ ونحن لم نعرفهُ بعد يعجل بالقتل فيذهب سعينا عبثًا . الا ترى ذلك يا عبدالله ؟ »

فاندهش عبدالله من ذلك الاتفاق الغريب ولو علم زيارة سعيد للدامة لانكشف لهُ سر الحيلة ولكنهُ احد الامر على ظواهرهِ فقال « لقد رأيت الرأي الصواب وها اني مستعد للسعي في ردع ذلك الرجل مع اخي سعيد »

قالت وما الذي تنويان فعلهُ

قال سعيد ارى ان نذهب الى الفسطاط ونبحث عن الرجل لنعلم من هو اولا فاذا عرفناهُ هان علينا ردعهُ »

www.marefa.org

فقالت فطام وما العائلة من ذهاكما وإياها لا تعرفان الرجل ولا تعلمان شيئاً من امره وكيف يتأتى لكما معرفة اسمه . هل ذهبتما الى القسطاط قبل الآن وهل تعرفان احداً هناك ؟ »

قال عبدالله الي اعرف القسطاط ولكني لم اقم فيها طويلاً ولا اعرف احداً من اهلها ولكننا نبحث جهدنا

الفصل الثامن والعشرون

الاجتماعات السرية في عين شمس

فتنفست لبابة وهي تظهر الاهتمام وكأنه قد فتح عليها برأي سديد فقالت « اجلسوا لاهديكم الى طريق يهوّن عليكم كل صعب »

فجلسوا جميعاً وكانوا لا يزالون واقفين

فقالت لا تحزنوا رأيي لأني عجوز وفي اعرف من الاسرار ما لا يعلمه الا الله . اعلموا ان في مصر من مريدي الامام علي احزاباً حمله اذهبوا لعمرو بن العاص بالرغم عنهم وهم صابرون على ما اصابهم من مقتل ابن ابي بكر وهم جماعة كبيرة لا يزالون يبوون الانتقاض اذا سنحت الفرصة . هل تعلمون ذلك ؟

قال عبد الله أهذا ما تخبرينا بعرفه ولا يجهله احدٌ من المسلمين فاني عالم به واكثر منه

قالت وما الذي تعلمه فوق ذلك

فابتسم عبد الله ابتسام الاستخفاف وقال « اني اعلم اموراً كثيرة تلقنها من جدنا ابي رحاب رحمة الله وقد اوصاني ان لا اطلع عليها احداً غير اخي سعيد لانها نعمة في جهادي بالدفاع عن امير المؤمنين »

فتوسمت لبابة من وراء ذلك سراً لانها لم تقل ما قالته الا وهي ترجو الاطلاع عليه فسرت كذبها والتفتت الى فطام العائلة فهمت فطام مرادها فاقتدرت عبد الله قائلة بسمة الدلال « اذا كنت تلقنت ذلك سراً فاحفظه ولا تبح به لاحد من

الخوارج نظيرنا ... »

فخجل عبد الله من توبيخها اللطيف ونظر الى سعيد فرآه شاخصاً اليه كأنه ينتظر تصريحه بذلك السرّ بين يدي قطام لئلا تسيء الظن بهما

فقال عبد الله وفي كلامه لهجة الاعتذار « حاشا يا مولاتي . اني لا اعني كتمان السرّ عنك بعد ان رأينا منك الموافقة على الدفاع عن امير المؤمنين بل بعد ان كنت انت الداعية الى الدفاع عنه . ولكنني قلت ما قلته ببساطة ولكي تأكدي صدق نيتي اذني لي ان ابسط ذلك السرّ بين يديك ويدي خالتي لبابة » قال ذلك والتفت يمنة ويسرة كأنه يحاذر ان يسمعه رقيب او عدو فاصغى الجميع لسماع كلامه فقال « علمت من جدي رحمة الله ان في الفسطاط كما قالت خالتي جمهوراً كبيراً لا يزالون على دعوة الامام عليّ وهم معتدون فعلاً وقالاً في القيام بنصرته ولهم اجتماعات سرّية يجتمعون فيها للمفاوضة في الوسائل المؤدية الى ذلك » ولما بلغ الى هذا الحد تلعثم لسانه كأن شيئاً اوقفه عن اتمام الحديث وارتبك في كلامه فسكت

وظهرت البغتة عليه وقد ندم على ما فرط منه وعوّل على الاقتصار على ما قالته فادركت لبابة الحيالة سبب توقفه فابتدرته قائلة وهي تضحك « انعم به من سرّ عميق لم يطلع عليه احدٌ اني لا اراك زدت على قولي حرفاً واحداً . فقد قمتُ ان دعاة علي يأفون على دعوته فلم تزد على ذلك الاّ انهم يجتمعون سرّاً . وهذا امر مفهوم بالقرينة فكأنك ندمت على ثقتك فينا فبدأت بالحديث ثم قطعته ولا أوملك على ذلك فانك لا تعرفنا قبل هذه الساعة »

فقطعت قطام حديثها قائلة « تقولين انك لا تلومينه وارالك عاتبة عليه دعيه الآن يخلنا راغبين في استطلاع سرٍ لغرض لنا ونحن انما نريد بعض ما يريد ضمانة فلا حاجة لنا في سره ولكننا نوصيه ان يقوم بموازرة سعيد في ما اوصاه به جدّه وعمنا يكفينا » ثم وجهت كلامها الى سعيد قائلة « لقد سرّني من رفيقك محافظته على السرّ حتى عن هذه الحقيرة التي بعد ان كانت اول الناقمين على علي اصبحت من اكبر المدافعين عنه وهب انه اراد افشاء ذلك السرّ فما نحن سامعون ما يقول اذ ربما وسوس لنا الشيطان فجنا به الى الاعداء ... »

فوقع كلام قطام في قلب سعيد موقع السهام وغلب عليه الحياء والتفت الى عمه

www.marefa.org

الله وقال « لاطاقة لي باحتمال هذا التأنيب يا عبد الله قل ما تعلمه سمعته قطام ام لم تسمعه وما انا خارج من هذا المكان قبل ان اسمع بقية الحديث »

فندم عبد الله على ما فرط منه واصبح لايدري كيف يتخلص من حبائو وارتباكو ولما رأى الحاح سعيد هان عليو التصريح بما لديو وهو لايدري في ذلك لومًا عليو فقال « اراكم تتهمونني بذنب انا بريء منه فاني لم اتوقف عن اتمام الحديث ضنًا بو على قطام بعد ان تحققت اخلاصها في الدفاع عن علي ولكني صبرت ريثما استجمع كلام جدتي بحرفو فاذا اذنت قطام تلوتو عليكم حالاً »

قال سعيد قل انها تريد واذا سكتت اذنها عن سماعو فانا اسمعة

قال عبد الله « اخبرني ابو رحاب رحمة الله ان دعاة الامام علي يجتمعون سرًا في معبد قديم خارج الفسطاط في مكان يعرف بعين شمس يتفاوضون فيو سرًا في يوم الجمعة من كل اسبوع »

فسرّت قطام ولبابة بالاطلاع على ذلك السرّ ولكن لبابة لدهائها ومكرها تظاهرت بالاستخفاف والانكار وقالت « أهذا هو سرّك العظيم انهُ باطل لايقبلهُ العقل »

فاغتاظ عبد الله لانكارها وقال وما الدليل على بطلانو ياخالة

قالت « نقول ان دعاة علي يجتمعون هناك كل جمعة ونحن نعلم انهم يعدون بالالوف فكيف يسعهم ذلك المعبد - وهب انهُ وسعهم فكيف يجتمع الالوف منهم كل اسبوع ولا يدري بهم عمرو بن العاص وعيونهُ مبثوثة في اطراف الفسطاط أليس ذلك باطلاً »

فسرّ عبد الله لاستخفافها كلامو اذ لايكون لافشائو تأثير وودّ الوقوف عند هذا الحد فلم يرض سعيد بذلك بل أخذ على نفسو تتميم مقالو وهو يحسب انهُ اتى امرًا جديدًا فقال « ان عبد الله لايعني باجتماع دعاة علي انهم يجتمعون جميعًا كبارًا وصغارًا ولكنهُ يريد ان رؤساء العشائر وكبارهم هم الذين يجتمعون فقط » فضحكت لبابة وتظاهرت بالرد عليو فقاطعت قطام كلامها قائلة « يظهر ياخالة انك انما تريدين المزاح فقد كلفت عبدالله الافشاء بالسرّ جملة تجادليهِ ونحن كما قلنا لا يهمنا من الامر الاّ الوصول الى الغاية المقصودة وهذا يكفي »

www.marefa.org

الفصل التاسع والعشرون

﴿ عهد جديد ﴾

ثم وجهت فطام كلامها الى سعيد قائلة دع لمامة وشأنها واسع في ما انت ساع فيه فسر الى دعاة علي حيث هم مجتمعون وهم يعينونك على البحث والتنقيب . ولا اوصيك الاّ وصية واحدة ذكرتها لك في بدء الحديث وهي ان تبقي هذا الامر مكتوماً بعيداً عن كل انسان حتى نعرف من هو ذلك الخائن الذي يريد قتل الامام علي فاذا عرفناه اما ان نرده عن غيه او ان نرى رأينا فيه على ما تقتضيه الحال . اما اذا اشعنا خبره الآن فانه يبالغ في التستر وربما اسرع في ابتداد سهمه فيقتل امير المؤمنين غيلة ويذهب سعينا عبثاً . اما الآن فنحن على يقين انه لا يقوم على ذلك الا في ١٧ رمضان ونحن لا نزال بعيدين عنه . وزد على ذلك انك اذا حفظت هذا الامر مكتوماً وتفردت في البحث عنه كان الجزاء لك وحدك ولا اشك انه يكون عظيماً . ولا ارى فائدة من اطالة البحث . ولكي نخلق شدة رغبتي في الاسراع ابدل عهدي ابداً يسرك فعوضاً من ان يكون افتراننا موقوفاً على قتل الامام علي فقد جعلته وقفاً على انقاذه من القتل فاذا كنت تحبني (وهذا ما لا اشك فيه) بادر الى العمل وهذان عبد الله ولمامة شاهدان على ما اقول

وكان سعيد بعد ان تغير وجه المسألة يرجو ان يذهبن بفطام قبل ذهابه في هذه المهمة . فلما سمع كلامها تجلى من مراجعتها اذ يقال انها اشد رغبة منه في الدفاع عن علي فاعتالت الحيلة عليه ولم يسعه الاّ اجابتها فقال « وهذا ما عوّلت عليه انا ايضا لكي يتم عقد الذكاح على يد الامام نفسه بحول الله »

وكان عبد الله في اثناء ذلك صامتاً يسمع الحديث وقد خامره شك في كلام فطام وندم لتسرعه في افشاء السرّ فظل صامتاً لئلاّ يقع في ما يزيد ندمه وشعر اساعته بما ارتبته تلك الفتاة من الدهاء . ولم ير خيراً من اظهار تفانيه بها وتصديق اقوالها فأخذ يطاري بخيرتها و يثني على صدق مودتها فقال لها « اني اعد اخي سعيداً من اسعد خلق الله لتوفقه الى هذا المنصب فاطلب اليه تعالى ان يوفقنا الى ما نحن ساعون فيه »

www.marefa.org

ثم قال « وقد اصبتِ بوجوب كتمان ذلك عن كل انسان بارك الله فيك » والتفت الى لبابة فقال « وانت يا خالة ترجو ان تواصليا بادعيتك الصالحة وآرائك الصائبة »

فقالت لبابة واما الرأي عندي فالاسراع في الامر فعليكما بالسفر حالاً الى مصر واطلبا الى الله ان يوفقكما ويسهل طريقكما واذا أنتما التسطاط اطلبا عين شمس في يوم الجمعة ولا تعدمان من انصار امير المؤمنين من يرشدكما الى الباقي

وقضوا برهة في احاديث أخرى ثم انصرف عبد الله وسعيد وفي نفس عبد الله شكوك لم يجسر على مكاشفة سعيد بها لما آنسه من اجلاله لنظام وارتياحه الى مواعيدها ولكنه عوّل على اغتنام فرصة يستطلع بها النساطة على افكاره

الفصل الثلاثون

الند والقطع

اما نظام فحالما خرج سعيد وعبد الله من منزلها خلت بلبابة فقالت لها لبابة « لقد تمت لنا المعدات وآن الاقدام على تجريد هذا الجبان · ان عليا سيُذلل لامحالة ولقد أحسستِ بطمأنته ومسايرته · واحسن ما رأيته من دهائك تصويره على الكتمان لانه لو اطلع علياً على خبر المؤامرة فقتل المؤامرون ونجا عليٌّ من الموت »

فقطعت نظام كلامها قائلةً « ولكن ذلك وحده لا يضمن لنا الفوز يا خالة واما لم اقس مدة الكتمان لهذا الغرض فقط ولكني اردت ان يبقى خبر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان حتى عن هذين الاموريين »

قالت وكيف ذلك انى لم افهم مرادك

قالت « اتكونين لبابة العجوز الفهرمانة وتخفى مغزى كلامي عليك ·· ما الفائدة اذاً من البحث عن مجتمع انصار علي · »

قالت اني لا ازال الجهل ما تريدينه قولي ما مرادك

قالت « مرادي ان نبعث الى عمرو بن العاص بخبر تلك الجمعية ويوم اجتماعها وهو لا ريب يبغتها ويقبض على رجالها وسيكون سعيد وعبد الله بينهم فاما ان يقتلها

www.marefa.org

او يحبسها فانا قتلها ظلّ امر المؤامرة مكتوماً عن كل انسان واذا سجنها ظلاً في السجن الى ما بعد ١٧ رمضان على الاقل فيكون قد نفذ السهم واستقمتُ لقتيليّ ولا يهمني بعد ذلك امرٌ »

فلما سمعت لبابة كلام قطام همّت بها وقتلها وهي تقول « بورك فيك يا منيّة والله انك ابعد مني نظراً واشد دهاء واذا احياك الله الى سني لم يعد ابليس يقوى على مكرك ... » قالت ذلك وضحكت . وظلت قطام عابسة ولم تعبأ بضحكها ولكنها نادت ريحان خادمها فحضر وكان جالساً في مكان بحيث يسمع ويرى ولا يراه احد فلما وقف بين يديها قالت له « ألم يُقتل سيدك ظلماً »

قال كيف لا وانى مطالب بدمها

قالت اقدري لما دعوتك

قال بلى انك دعوتني لتبعثي بي الى الفسطاط اخبر عمراً ان العاص بخير هذين او بخبر مجتمعات العلويين .. أليس لذلك دعوتني ؟

قالت بلى اني دعوتك لمثل ذلك بورك بسوادك هذا وقت الحاجة اليك ولكنني اطلب اليك ان تبلغ عمراً ذلك بدون ان تذكر اسمي واني واثقة بفطنتك فلا تخيب املي . اذهب الى مصر وابلغ الرسالة وجئني بقتل هذين او سجنها وانت حرٌ لوجه الله

فاقطب ريحان حاجبيه وتظاهر بالعتاب وقال « ألا تعلمين يا مولاتي انك تهينانني بهذا الكلام من حيث تريدين سروري . انظنين اني افضل الحرية على الاستعباد لك . فقد قلتُ قولاً واسمحي لي ان اقول مثله . اني ذاهب لانفاذ مراسمك فاذا انا فررت فيو رجوت ان تعديني بان لا تذكري الحرية قط »

فضحكت قطام واظهرت الاعجاب بشهامة ريحان وقالت سر يا اسير انك والله خير من الف ابيض

www.marefa.org

الفصل الحادي والثلاثون

﴿ الفسطاط ﴾

في مدينة عمرو بن العاص بناها سنة ٢٠ للهجرة بعد فتح الاسكندرية . وسبب تسميتها بالفسطاط (الخيمة) ان عمرًا لما فتح حصن بابل حيث هو دير مارجرجس الآن او دير النصارى بقرب مصر القديمة واستقرّ الصلح بينه و بين المقوقس نهض لفتح الاسكندرية وكانت خيامه منصوبة خارج ذلك الدير بين النيل وجبل المقطم فأمر بتقويضها والرحيل فجاءه منبئ ان في فسطاط الامير يمامًا معششًا فحثه صفاره لا تستطيع الطيران فقال عمرو « لقد تحرمت بجوارنا اقروا الفسطاط حتى يطير فراخها »[1] فتركوا الفسطاط منصوبًا حتى عادوا بعد فتح الاسكندرية فابتنوا الدور حوله . ولما تمت المدينة اطلق عليها اسم الفسطاط وهي اول مدينة بناها المسلمون في القطر المصري واتخذوها عاصمة ملكهم حتى بنيت القاهرة في القرن الرابع للهجرة فنقلت الحكومة اليها (راجع كتابنا تاريخ مصر الحديث)

وكانت الفسطاط في العام الاربعين للهجرة وهو العام الذي جاءها فيه سعيد ورفيقة عبد الله قد عمرت واقامت بها القبائل والاتخاذ في خطط وحارات بيوت لهم . وكانت الفسطاط مستطيلة الشكل على ضفة النيل الشرقية طولها ميلان في ما يقرب من مصر العتيقة الآن . واما مكان مصر العتيقة فقد كان يومئذ مجرى النيل المبارك . وكان اذا جرى رست سفنه بباب دير النصارى حيث كنيسة المعلقة اليوم فكل ما بين الدير والنيل من اليبس وما أقيم عليه من البناء انما حدث بعد الاسلام

وكان جامع عمرو الباقية آثاره هناك الى هذا اليوم مركز تلك المدينة وحوله انشئت الخطط والاسواق والحارات . وكان اقربها الى الجامع المذكور دار عمرو او هما داران الدار الكبرى والدار الصغرى . وكان المسلمون اولاً ينزلون في الخيام فلما بنى عمرو داره اهتم الناس في بناء المنازل . ولم يكن قبل الفسطاط هناك الا بعض الدور للقبط متفرقة بين النيل والمقطم . و بنوا الخطط او الشوارع على اسماء

(١) ابن دقماق ج ٤

www.marefa.org

القبائل التي تألفت منها حملة ابن العاص في ذلك الحين ومن نزح بعدهم واوجههن جميعاً اهل الراية من قريش والانصار وخزيمة وغيرهم فمنهم لهم خطة سموها خطة اهل الراية ثم خطة مهرة وخطط لخم والتجيف والصدف من كندة وخولان فضلاً عن خطط غير العرب مثل خطة الفارسيين وهم من حضر الفتح من اهل فارس واصلهم من بقايا جندباذان عامل كسرى على اليمن قبل الاسلام اسلموا في الشام[1] ناهيك عن خطط اخرى لا تحصى فضلاً عن الشوارع والازقة والحارات

فترى مما تقدم ان الفسطاط لم يكن يقيم فيها في اول امرها غير المسلمين واما المسيحيون واليهود ممن كانوا هناك قبل الفتح فمن آثر البقاء تحت رعاية المسلمين اقام في الاديرة خارج الفسطاط واكبرها دير النصارى (او دير مار جرجس) وهو الحصن الذي حاصر فيه المنوقس ورجاله لما جاءهم المسلمون وكان يسمى حصن بابل او قصر الشمع . وربما اقام بعض القبط او اليهود في الفسطاط لتجارة او صناعة او كتابة لان عمراً عهد الى القبط في بادىء الرأي كثيراً من اعمال حكومته وبقي الدواوين تكتب بالقبطية وما زالت كذلك الى امارة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فابدلت بالعربية

وكانت مدينة عين شمس (المطرية) شمالي الفسطاط خربة لم يبق من ابنيتها الشاهقة ومعالمها الرفيعة الا بعض الجدران الغليظة او الاعمدة الضخمة والمسلات من بقايا الهياكل الفرعونية وهي مهجورة لا يقيم فيها احد فاذا احتاج الناس الى حجارة او اعمدة يبنون بها داراً كبيرة او جامعاً حملوها من انقاضها

الفصل الثاني والثلاثون

﴿ سعيد وعبد الله ﴾

اما سعيد وعبد الله فانهما تأهبا للرحيل في ذلك اليوم واصبحا على راحلتيهما وخرجا من الكوفة يتعسفان الفسطاط وهما لا يعلمان ما اعدته لهما قطام من المكائد . وسارا بجدان السير يواصلان الليل بالنهار حتى اقبلا في فجر يوم جمعة على الفسطاط فاطلا

(١) ابن دقماق ج ٤

www.marefa.org

عليها من سفح المقطم فاذا هي ممتدة على ضفة النيل على مسافة طويلة ورامها النيل يجري وفيه السفن راسية تحمل الاثقال والاحمال بعضها قادم من الصعيد والبعض الآخر صاعد من الشمال . وفي وسط المدينة جامع عمرو حولهُ الابنية والدور فوقنا منبهة يجتازان في الخطة التي يجب ان يسيرا عليها في اتمام مهمتهما

فقال عبدالله ها اننا امام الفسطاط الآن وقد طلع فجر الجمعة الذي يضيع فيهِ دعاة امير المؤمنين في عين شمس على ماعلم . فهل نظل هنا حتى نسير ثانيًا الى عين شمس ام ننزل الفسطاط ثم نخرج منها الى عين شمس

فقال سعيد وما الداعي لبقائنا هنا وقد يكون في بقائنا مظنة سوء ونحن لا يعرف احد الاَّ اننا من دعاة معاوية . وزد على ذلك اننا لا ندري الساعة التي يعقد فيها ذلك الاجتماع تمامًا وانما علمنا باجتماعهم في يوم الجمعة فهل هو في الصباح او المساء او اي متى ؟

قال عبدالله لست على يقين من ساعة الاجتماع ولكني اظنهم يجتمعون بعد صلاة العصر الى المساء وعلى كل لا ارى بأسًا من النزول الى الفسطاط نصلي الصبح فيهِ ونجعل دوابنا في مأوى نستريح فيهِ . ثم اخرج انا للبحث عن ساعة الاجتماع ومكانهِ واعود اليك فنسير معًا

قال سعيد لقد رأيت الرأي الصواب

ونزلا بساقيتها حتى دخلا المدينة وهي يومئذٍ آهلة بالناس وقد اذَّن المؤذنون يدعون الناس الى صلاة الصبح فأتيا المسجد وإذا بهِ ساحة كبرى تقف فيها الدواب تشد الى اوتاد او نخيل . فربطا الراحلتين ودخلا المسجد للصلاة وكانت الشمس قد أضحت وتقاطر المسلمون افواجًا فدخلا في جملة الداخلين

الفصل الثالث والثلاثون

﴿ عمرو بن العاص ﴾

ولم يكد يستقر بهما المجلس حتى رأيا الناس في حركة وبلبلة وقد فتح باب في بعض جوانب المسجد دخل منهُ رجال في ايديهم السياط يزجرون الناس . فقال سعيد من

www.marefa.org

هم هؤلاء - فقال عبدالله انهم الشرطة يخفون الطريق للامير - ولم يكد عبدالله يتم كلامه حتى دخل رجل رابعة قصير القامة وافر الهامة ادعج اللج عليه ثياب موشاة كأنه العقيان تألق عليه حلة وعمامة وجبة عرفنا انه عمرو بن العاص فصعد المنبر والناس ينظرون - فحمد الله واثنى عليه وصلى على النبي (صلعم) ووعظ الناس وامرهم ونهاهم وجعل يحضهم على الزكاة وصلة الارحام ويأمر بالاقتصاد وينهى عن الفضول وكثرة العيال واخفاض الحال في ذلك الى ان قال يا معشر الناس اياكم وخلالاً اربعاً فانها تدعو الى النصب بعد الراحة والى الضيق بعد السعة والى الذلة بعد العزة اياكم وكثرة العيال واخفاض الحال وتضييع المال والقيل بعد القال في غير درك ولا نوال - ثم انه لابدّ من فراغ يؤول اليه المرء في توديع جسمه والتدبير لشأنه ومخليته بين نفسه وبين شهواتها ومن صار الى ذلك فليأخذ بالقصد والتصيف الاقل ولا يضيع المرء في فراغه نصيب العلم من نفسه فيجور من الخير عاطلاً وعن حلال الله وحرامه غافلاً - يا معشر الناس انه قد تدلست الجوزاء وذابت الشعرى واقلعت السماء وارتفع الوباء وقل الندى وطاب المرعى ووضعت الحوامل ودرجت المحاقل وعلى الراعي بحسن رعيته حسن النظر فحيّ لكم على بركة الله تعالى الى ريفكم فنالوا من خيره وليه وخراجه وصيده وارتبعوا خيلكم واسنوها وصونوها واكرموها فانها جنتكم من عدوكم وبها مغانمكم وانفالكم - واستوصوا بمن جاوركم من القبط خيراً واياكم والموسمات والمسولات فانهنّ يفسدن الدين ويقصرن الهمم - حدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الله سيفتح عليكم بعدي مصر فاستوصوا بقبطها خيراً فان لهم فيكم صهراً وذمة فكفوا ايديكم وغضوا ابصاركم - ولا اعلن ما اتى رجل احمن جسمه واهزل فرسه - واعلموا اني معترض الخزل كاعتراض الرجال فمن اهزل فرسه من غير علة حططته من فريضته قدر ذلك واعلموا انكم في رباط الى يوم القيامة لكثرة الاعداء حولكم وتذوّف قلوبهم اليكم والى داركم معدن الزرع والمال والخير الواسع والبركة النامية - وحدثني عمر امير المؤمنين انه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً فذلك الجند خير اجناد الارض فقال له ابو بكر رضي الله عنه ولمَ يارسول الله قال لانهم واذواجهم في رباط الى يوم القيامة فاحمدوا الله معشر الناس على ما اولاكم فتمتعوا في ريفكم ماطاب لكم فاذا يبس العود وخن

www.marefa.org

الماء وكثر الذباب وحمض اللبن وصوّح البقل وانقطع الورد من النجر فحيّ الى فسطاطكم على بركة الله ولا يقدمن احد منكم ذو عيال الاّ ومعه تحفة لعياله على ما اطاق من سعته او عسرته اقول قولي هذا واستغفر الله عليكم[1] انتهى

وكان عمر يخطب والناس يسمعون وقد تخشعوا لما قاله من الاوامر والنواهي . فقال سعيد لعبدالله همساً والله انه لنعم الامير وشلّت يد قتلته اني والله منذرهُ بذلك على دنا الاجل المضروب فلم يجبه سعيد مخافة ان يلحظ احد شيئاً مما هما فيه

وبعد تمام الصلاة خرج الناس وخرج عبدالله وسعيد واجتمعوا في ساحة المسجد خارجاً وتعارفوا فعرف عبدالله رجلاً من غفار كان له معه صداقة فدعاه وسعيداً الى منزله ليقيما عنده فاعتذرا فالح عليهما فسارا معه لئلاّ يوجب ابتعادهما شبهة فانزلهما في منزل له في خطة اسمها خطة خارجة بن حذافة فامر الغفاري عبداً له اسلم الراحلتين وساربهما الى المربط ودخل بالضيفين الى غرفة لم يريا فيها نافذة الاّ كوة في اعلاها فجها وعمّ عبدالله بالاستفهام عن ذلك واوقفه التأدب فلحظ الغفاري استغرابه فقال له لا تعجب لحال هذه الغرفة فان كذلك سائر ابنية الفسطاط

فقال عبدالله اني والله يا ابتاه لفي تعجب عجاب مما ارى فما الذي دعا الى هذه الاقفال . فقال الغفاري اعلما ان خارجة بن حذافة صاحب شرطة مولانا الامير عمرو ابن العاص هو اول من ابتنى غرفة في الفسطاط . فلما علم بذلك امير المؤمنين عمر ابن الخطاب يومئذٍ كتب الى الامير عمرو بن العاص ان « ادخل غرفة خارجة وانصب فيها سريرًا واقم عليه رجلاً ليس بالطويل ولا بالقصير فان اطلع من كواها فاهدمها » ففعل ذلك عمرو فلم يبلغ الكوى فاقرها[2] فلم يجسر احد أن يبني غرفة بعد ذلك الاّ على هذا الوصف وهو بالحقيقة اضمن للحجاب

الفصل الرابع والثلاثون

﴿ عين شمس ﴾

ثم جاءها الغفاري بالزاد فتناولا وبعد الاستراحة انهما الخروج لبعض المهام

(١) المقريزي ج ٢ (٢) ابن دقاق ج ٤

www.marefa.org

وها انا يريدان المنارة للنظر في ما جاءا من اجله فخرجا ومشيا في وسط المدينة بتظاهران بالتفرج بمشاهدة ما فيها من الحوانيت والبيوت حتى خرجا منها فقال سعيد انتا في نحو الظهر وما العمل

فقال عبدالله دعني اسرح وحدي الى عين شمس فاذا على بضعة اميال من هذا المكان حيث ترى هذه الخرائب وامامها هاتان المسلتان (وأشار اليهما باصبعه) فابحث عن مكان الاجتماع فاذا عثرت عليه بجنبك على عجل . فاين الملتقى

قال اني اقيم في المسجد حتى تعود الي راجعا ان تطول غيابك

فسكت عبدالله ولبث برهة يفكر ثم قال وربما ابطأت في الرجوع اليك فاطلب عين شمس وانتظرني بقرب هاتين المسلتين اللتين تراهما قائمتين هناك وانا آتيك او ابعث من يدعوك الينا

قال حسناً وافترقا وسار عبدالله يلتمس عين شمس وقد جعل وجهته اليها المسلتين وكانتا ظاهرتين عن بعد . وعاد سعيد الى الجامع

اما عبد الله فسار حتى اقبل على عين شمس فاذا في عبارة عن الخربة ليس فيها من الابنية الا الجدران والاعمدة فطاف بين خرائبها فلم ير احداً ولا سمع صوتاً وقضى في ذلك ساعتين يتردد بين تلك الجدران ثم يعود الى حيث بدأ فلم ير الا آثار الآدميين فظن نفسه اخطأ المكان اوساء فهم ما بلغه من امر ذلك الاجتماع حتى كاد يهم بالرجوع وقد خاب ما أمّله وخيل له ان دعاة علي ابدلوا مجتمعهم هناك بمكان آخر

فأسند ظهره الى جدار ووقف يفكر في ماذا يفعله وقد مالت الشمس نحو المغيب فرأى رجلاً قادماً من القسطاط فشغل عبدالله نفسه بمشاهدة بعض ما هو محفور على تلك الآثار من الرسوم الحيروغليفية كأنه يتعجب لغريب صنعها وربما مرّ الرجل ويمضي . وكان يتظاهر بالنظر الى تلك الرسوم وهو بالحقيقة يختلس النظر الى ذلك المار . وكان الرجل يظهر تارة ويختفي تارة اخرى في مروره بين الاعمدة والخرائب ثم اختفى ولم يعد يظهر

www.marefa.org

الفصل الخامس والثلاثون

الاجتماع السري

فعجب عبد الله لامره وقال في نفسه لابد ان يكون هذا الرجل من جملة اهل ذلك الاجتماع السرّي وقد نزل في نفق او نحوه . فالتمس المكان الذي ظنّهُ اختفى فيه فوجد هناك مخدرًا يظهر لاول وهلة انهُ مسدود فنزل فيهِ وهو يخطو الهوينا حتى انتهى الى ظلمة دامسة فوقف واصاخ بسمعهِ فسمع لغطًا عميقًا فاستبشر بالوصول الى المكان المطلوب ولكنهُ لم يكن يعرف مدخل تلك المغارة وخاف ان يستشعر القوم فيقتلوه

فوقف برهة يتردد بين ان يسير متلمسًا او يرجع فيأتي بسعيد . ثم رأى ان يتحقق المجتمع قبلاً ثم يعود فخطا بضع خطوات وهو لا يرى شيئًا امامهُ فلطم راسهُ بالسقف فحيا ظهره ودامهُ العطاس لرطوبة الهواء فعطس عطسة دوى لها المكان وما شعر الاّ وقد ظهر نور ضعيف وتقدم بضعة رجال كلهم ملثمون وعليهم اردية سوداء تزيدهم وحشة فقبضوا عليهِ وهو لا يبدي حراكًا . ونزلوا بهِ في ذلك الدهليز الى قاعة تحت الارض واسعة وكل جدرانها وسقفها مغطاة بنسيج اسود مما يجعل المنظر رهيبًا ولولا شمعات مضيئة في بعض جوانب المكان لكانت الظلمة لاتطاق لكثافتها . ونظر عبد الله الى ما حولهُ فرأى في وسط القاعة دكة مغطاة بملاءة سوداء لم يدرِ ما تحتها ولكنهُ لم يستطع التأمل وقد احدق بهِ بضعة عشر رجلاً الحفوا العري تحتها السيوف وكلهم ملثمون . فخاطبهُ واحد منهم يسألهُ عما يريدهُ

فقال اني جئت اشاركم في ما انتم فيهِ

قال وما ادراك ما نحن فيهِ

قال علمت انكم تدعون الناس الى نصرة الامام علي أليس ذلك ما تدعون اليهِ

قال وما شأنك وذاك

قال شأني هو شأنكم . لاسيما الظن بي اني قادم من الكوفة لهذه الغاية

فقال لهُ رجل آخر كيف تكون اموياً وتدعي نصرة الامام علي

www.marefa.org

فاشتبه عبد الله بصوت مخاطبه انه صوت صديقه الغفاري الذي نزل عنده في ذلك الصباح

فقال له الست انت صديقي الغفاري . اصدقني ولا تخف اني والله جئتكم بخبر هام اذا اشركتموني في امركم اطلعكم عليه وتحققتم صدق قولي

فقال الغفاري اذا كنت صادقاً في ما تقول تعال معي . ومشى فتبعه الى الدكة في وسط الغابة ورفع عنها الملاءة السوداء فاذا هناك مصحف فوقه سيف مسلول وقال له ضع يدك على هذا السيف واقسم بالله العظيم انك حليف للامام علي تنصر نصره وتحارب عدوه

فوضع عبد الله يده على المصحف والسيف معاً فشعر ببرودة السيف فارتعشت انامله وأكبّ واقسم لهم كما ارادوا

ثم قاده يده الى دكة اخرى رفع غطاءها وتناول عنها قارورة فيها مسحوق اسود كالكحل فاشتاق عبد الله لمعرفة ما فيها فقال وما هذه . قال هذه قارورة فيها بقية من رماد ابن ابي بكر الذي احرقوه بالنار ظلماً فاذا شئت الهداية ونصرة الحق كما تشتهي وجب عليك ان تكتحل بهذا الرماد وتبكي ذلك القتيل المظلوم وتعاهدنا على الاخذ بثاره . فهل انت قابل بذلك باقٍ على قسمك ؟

قال اني باقٍ على ما تريدون وقد قلت لكم الصدق فلا تستغشوني

فتقدم اليه صاحبه ففتح القارورة وادخل فيها مرملاً علق عليه بعض الرماد فاعطاه الى عبد الله فاكتحل به فهاجت عيناه وانسكب الدمع بالرغم عنه فشاركه الرفاق بالبكاء

ثم ازاح الغفاري لثامه وقال له نعم اني صديقك كما قلت ولكن اعلم انك اذا كنت على غير ما تقول فاني اكون عدوك اهدر دمك بحد هذا السيف . قل ما بدا لك

فلما اطمأن عبدالله تذكر سعيداً فقال ولكن لي رفيقاً اريد ان ادعوه اليكم ليشهد ما نحن فيه ويشاركنا في هذا الجهاد

فقال له الغفاري انك غير خارج من هذا المكان الاّ بعد خروجنا جميعاً فقل ما تريد

www.marefa.org

فاطاعهم وقال « لا تجعلوا اولاً لاني اموي . وقد اصاب صاحبي الفقاري باني من انصار معاوية وقد كنت مطالباً بدم عثمان ولكن طرأ عليّ طارىء ساقصه عليكم اما الآن اخبركم اولاً اني قادم من الكوفة وقد علمت ان امير المؤمنين علي بن ابي طالب قد جمع رجاله هناك فاجتمع منهم حولة اربعون الف مقاتل [1] وكلهم مستعدون للقتال وبذل المال والرجال في هذا السبيل »

فقالوا ان رجالنا يعدون بالآلاف ونحن وهم واموالنا وكل ما نملكه نبذله طلاباً في نصرة الامام ابن عم الرسول

وهمّ عبد الله باتمام الحديث فاعترضه احدهم قائلاً عرفناك اموياً من الذ اعداء الامام كما ذكرت فما الذي حملك على نصرته حتى خاطرت بنفسك وجئت هذه البلاد

فاخذ يقص عليهم حديث ابي رحاب ولكنه لم يكد يقول كلمتين حتى سمعوا وقع حوافر الخيل فوق رؤوسهم وقد ارتج المكان فوقهم بالجلبة فانصتوا ووقع الرعب في قلوبهم وخيّل لهم انها دسيسة من عبد الله فهموا بقتله ولكنهم ما لبثوا ان رأوا انوار المشاعل مشتعلة من مدخل الدهليز وقد احاطت الشرطة عليهم فأرادوا الدفاع عن انفسهم فلم يفلحوا فشدوا وثاقهم وساقوهم في ظلام الليل الى الفسطاط

الفصل السادس والثلاثون

﴿ السجينة الامينة ﴾

ومكث سعيد في الجامع حتى دنا الغروب ولم يعد عبد الله فتردد برهة بين ان يذهب الى عين شمس او ينتظر عود عبد الله . ثم غربت الشمس فلم يريدّا من المسير الى عين شمس كما اوعز اليه . فخرج من الفسطاط وجعل المسلتين وجهته والظلام يكاد يحجبها عنه فمشى وقد اوجس خيفة من ابطاء عبد الله ولم يعد يرى المسلتين الاّ اذا برزتا في الافق . ثم اختفتا ولم يعد يراهما وخاف ان يضل الطريق . وفيما هو في ذلك سمع دبيباً وقرقعة كأن جنداً قادماً وراءه فتنحى عن الطريق فاذا

(١) ابن الاثير ج ٣

بكوكبة من الفرسان مرت به مسرعة تلتمس عين شمس فاضطرب وخاف الدسيسة . والتفت الى بيته فرأى بيتاً قائماً في بستان . فلاح له ان يتحول اليه يستفهم اهله عن الطريق فلما دنا منه سمع صوتاً خارجاً من بعض جوانبه فتوقف انتباهاً فوقف واصاخ بسمعه فسمع صوتاً رخيماً يمازجه بكاء ولم ير هناك نوراً ولا رأى احداً في البستان فالتمس باب البيت فاذا هو موصدٌ وقد وضح لديه صوت الباكي فخصصت فسمع صوت امرأة تبكي وتقول « ألا تخاف الله يا ظالم اما كفاك ما واطأت عليه من قتل البريء حتى رميت الوفاً من الناس تحت خطر القتل الفظيع . . . هل من يقي هؤلاء الابرياء بما وشوا به عليهم فينقذهم من خطر الموت »

فلما سمع سعيد تلك العبارات اقشعر بدنه ولم يعد يصبر على استطلاع سبب ذلك البكاء . فقرع الباب قرعاً خفيفاً فانقطع الصوت بغتة فصبر هنيهة وكرر القرع وبدأ ترتعش من شدة التأثر فلم يسمع شيئاً فازداد شوقاً لاستطلاع ذلك السر ولكنه خاف ان يقع في مكيدة وهو غريب هناك فلبث برهة والهواجس تتقاذفه وقد حدثته نفسه ان بين ما سمعه وبين ما يسعى في البحث عنه علاقة كبرى . وكان الفرسان الذين مروا به قد بعدوا عنه ولم يعد يسمع من وقع حوافر افراسهم غير الدوي البعيد . فايقن انهم يقصدون عين شمس ولم يفهم سبب ذهابهم اليها في ذلك الليل . وبعد التأمل بما سمعه ورآه اعتقد ان في الامر سراً يهمه الاطلاع عليه

فهز الباب بيده هزاً شديداً كأنه يريد فتحه بالعنف فلم ينفتح لانه موصد ولم يعد يستطيع صبراً والوقت ضيق فقال بصوت خافت « هل في المنزل احد يفتح الباب اني غريبٌ ضللت عن الطريق »

فاجابه الصوت من الداخل « ليس في البيت سواي والباب مقفل لا سبيل الى فتحه »

فازداد سعيد دهشة واستغراباً وقال « من انت ايها الخاطب اني اراك في ضيق فهل من سبيل الى انقاذك »

فأجابه الصوت « يا حبذا ذلك اذا استطعت اني حبيسة بالرغم عني . فمن انت »

قال « قلتُ لك اني غريب ضللت عن الطريق ارني وجهك او ارشديني الى وسيلة افتح بها الباب »

www.marefa.org

قالت « عالج الاقفال بالعنف لعلك تستطيع فتحها فتنقذني وربما انقذت الوفًا من الناس معي »

الفصل السابع والثلاثون

الشك واليقين

فثارت الحمية في رأسه واستل خنجرًا وجعل يعالج الاقفال وهي تساعده من الداخل حتى فتح الباب فبرزت منه فتاة محمولة الشعر عليها رداء اهل الاسطاط ولما رأت سعيدًا قالت من انت اصدقني الخبر

قال بل انت اصدقيني ولا تخافي لقد سمعتك تتذمرين الوفًا من الناس فمن هم اولئك الالوف

فتدرست فيه وتفرس فيها فلم يعرفها ولا عرفته لشدة الظلام

فقالت له من قال لك اني اندب الوفًا

قالت سمعتك باذني . افتحي ولا تخافي

قالت وما يهمك من امر هؤلاء الالوف

قال « اخاف ان اكون انا منهم ... »

قالت وما الذي جاء بك الى هذا المكان

قال كنت ذاهبًا الى عين شمس فتهت وجئت هذا المنزل لاسأل اهله عن الطريق فسمعت بكاءك ويحدثني قلبي ان حديثك يهمني . قولي لقد نفد صبري

قالت اني اخاف العيون ولا اثق باحد بعد ان غدر بي والدي ... فكيف اثق بالغرباء

قال رب غريب اقرب من القريب فولي لا تخافي

وفيما هما في ذلك سمعا وقع الحوافر وصوت الفرسان من ناحية عين شمس فدخلت الفتاة الغرفة وجرت سعيدًا بثوبه ولم تنه بكلمة فدخل في اثرها وقد تولته الدهشة والبث صامتًا . ولم تغض برهة حتى دنت الفرسان منهما وسمعا من بين الاصوات

www.marefa.org

قائلاً بقول « لقد وقعتم في ايدينا ايها الخائنون وعرفنا دسائسكم » وسمعا لفظاً كثيراً من هذا القبيل فظلاّ صامتين حتى مرّ الفرسان كلهم وهم يسوقون جماعة من المذناة مواثين

فلما تواروا عن النهت لطمت الفتاة وجهها وقالت « لقد نالوا بغيتهم فجعهم الله وقبضوا على الجماعة »

فقال وابي جماعة . هل قبضوا على جماعة عين شمس

قالت نعم انهم قبضوا عليهم وا أسفاه

فصفق عبدالله بيديه وخرج ليطلّ على الفرسان كانه يريد ان يلحق طريقهم فقالت له يظهر انك كنت ساترًا اليهم

قال نعم

فقالت لقد نجاك الله من ايديهم ولم يكن ضلالك الا وسيلة لنجاتك

فاضطرب سعيد واختلج قلبه في صدره وقال بالله عليك اقصصي يا اخية فقد نفد صبري وقد علمت غرضي فاخبريني عن حقيقة امرك

قالت لم يعد يمكني البقاء هنا مخافة ان يأتي احدٌ فيراك معي فتكون العاقبة وخيمة علينا

قال وهل تريدين ان نبعد من هذا المكان

قالت نعم هلم بنا فانا خلوبا تحادثنا وعساك ان تتلافى امرًا لا ازال خائفة من وقوعه وهو شر عظيم . قالت ذلك وخرجت من الغرفة فمشت امامه وهو يتبعها حتى خرجا من البستان وأوغلا في الحقول وهو يسير في اثرها الى حيث لا يدري وكلاهما صامتان لا ينبو احد بكلمة حتى دنوا من بناء عالي الجدران كانه بلا باب . فقالت له هذا دير للنبط فلندخله بحجة الزيارة فنكون في مأمن ومشت امامه الى باب صغير في اسفل الحائط مصفح بالحديد فقرعته فاطل عليها من نافذة في اعلى الحائط راهب في يده مصباح وقال من بالباب

قالت انا غريبة التمس زيارة الدير

ولم تمض هنيهة حتى فتح الباب وسمع للغير صرير فدخلا هابي الرأس لضيقه فاشرفا على دهليز دخلا منه والراهب يسير بالمصباح امامهما حتى انتهيا الى الكنيسة

www.marefa.org

فنظر الراهب اليها في نور المصباح فعرف الفتاة انها من اهل القسطاط بل هي من اعيانهم فسرّ من زيارتها ورحب بها وادخلها الى غرفة في الجانب الآخر من الكنيسة فيها مصباح فسألها اذا كانا يحتاجان الى شيء فقالا كلاّ فتركها ورجع

الفصل الثامن والثلاثون

﴿ كشف السر ﴾

اما سعيد فتأمل الفتاة في النور فاذا هي شابة في مقتبل العمر جميلة الطلعة وقد احمرت عيناها وتكسرت اهدابها من البكاء ولم يزدها ذلك الاّ جمالاً . وكانت قد ضفرت شعرها في اثناء الطريق وغطت رأسها بطرف ثوبها . فجلسا على وسادة فوق حصير وسعيد يتلهف لاستطلاع حديثها وقلبه يخفق لما يتوقعه من الخبر الغريب فابتدرها بالسؤال حالاً عن حقيقة امرها

فنظرت اليه ولم تكد تتأمله حتى قالت « الملك احد الغريبين اللذين وصلا القسطاط في صباح هذا اليوم

قال نعم اني هو وما ادراك بذلك

قالت رأيتكما مع جارنا الفخاري وها اني اقص عليك خبري الغريب والتمس منك ان تشرع في ملافاة الخطر العظيم الذي سيدهم المسلمين قريباً

قال بلهفة قولي اني لهذا الامر انت القسطاط فعسى ان اكون قد وقعت على ضالتي

قالت اني اطلعت على سرّ لا اظن احداً عرفه قبلي . . . المستدّ على دعوة الامام علي

قال بلى اني على دعوته وقد جئت في سبيل نجدته

وهمّت بالتكلم ثم توقفت برهة واطرقت فلحظ سعيد تردّدها وادرك انها ساءت الظن به فقال لها لا تظني السرّ الذي ستبديه لي مجهولاً لدي واذا شئت قبلة لك . ولاطمئنان بالك اقول انه يتعلق بالامام علي وفيه خطر على حياته . . .

www.marefa.org

فاطأنت ولكنها تنهدت وقالت « اعلم ياسيدي ان والدي يصنع السلاح ويبيعه في الفسطاط وقد ربيت وانا اسمع بتشيع للامام علي فاغرس حب هذا الامام في قلبي وما انا في حاجة الى امتداح والدي له وهو ابن عم الرسول وصهره ولكني ذكرت ذلك امتداحة لاذكر لك الفخر العجيب الذي طرأ عليه

« فما زلنا ندعو لعلي بالنصر حتى كانت واقعة صفين منذ بضع سنين فرأيت في والدي فتورًا من هذا القبيل ولكنه لم يذكر لنا دينًا صريحًا بهذا الشأن . على اني كثيرًا ما كنت اراه يخلي بجارٍ لنا من بني مراد كان يعلّم الناس القرآن وكنت احسبه من اهل التقوى . . . (قالت ذلك وتنهدت) ولكني وجدته وأسفاه من اهل العداء . وما زالا يتسارران في امر هذا العداء ولا يجهران على الظاهر بو لان مصر كانت لاتزال في حوزة الامام علي وعاملها محمد بن ابي بكر . فلما جاءنا ابن العاص بجيشه ورجله وحاربه دعاة علي فقتل ابن ابي بكر رحمة الله فحلّ لم يبقَ لها مقيل في الاسلام استقام الامر للامويين فجاهر والدي بعداوة علي وكان جارنا المرادي يزيده كرهًا له . فعلمت انهما تفاهما للخوارج فظللت مع ذلك صابرة كاظمة اذ لا سبيل لي الى شيء اعمله وانا فتاة ضعيفة كما ترى . وكان والدي يغلظ على دعوتي . فلي قامت يوم جاءنا ذلك المرادي خاطبًا وقلت والدي ان اكون خطيبة له فلم اجب لا حسدًا ولا قبحًا خوفًا من اكراهي على الزيجة . ولكني صممت في باطن سري اني اذا تخلصت هزمة على الزواج فررت وتركته وما زلت اماطل في كتابة العقد الى الآن »

الفصل التاسع والثلاثون

﴿ عبد الرحمن بن ملجم ﴾

وكانت في اثناء كلامها عن الزواج قد اطرقت حياءً فلما بلغت الى هذا الحد رأت سعيدًا مصغيًا الى حديثها بكليته وهي تعلم انه انما يشتاق الى آخر الحديث اكثر مما الى اوله فخافت ان يملّ فقالت « ولا اطيل عليك الحديث قبل ان اصل الى جوهره فاقول ان ذلك كله احتملته بالصبر ثم علمت ان المرادي خرج الى مكة فظننته بلبس الحج ووددت ان لا يعود ولكني ما لبثت ان رأيته عائدًا

www.marefa.org

قالت ذلك وتنهدت وسعيد يتطاول لسماع ما تقول وقد دهش لغرابة الحديث فقالت « عاد ذلك المرادي بهمة جديدة يا ليتني متُّ قبل ان سمعت خبرها ... ولكنني اذا لم اجد من يحمل المنفة في ملاقاتها تلافيتها بنفسي ... جاءنا هذا المرادي ثاني يوم وصوله فاستقبلناه بالدي الليل كلهُ يتكلمان وانا لا اعلم ما دار عليهِ حديثهما . ولكنني علمت بعد ذلك انهُ اوصى والدي ان يصنع لهُ سيفاً ماضياً انفق عليهِ الف درهم وقضى مدة يوم وهو يشحذهُ فلم افهم معنى هذا الاستعداد ولا اهتممت بهِ وبعد ان شحذ كلف والدي فسقاه السم . وقد علمت انهُ انفق على سقايتهِ الف درهم ايضاً (١) ... فويل لجسم يجرحهُ هذا السيف ولو جرحاً خفيفاً »

فملَّ سعيد ولم يعد يستطيع صبراً على التصريح باسم ذلك الرجل والافصاح عن غرضهِ بسقاية السيف وهو لا يشك انهُ المؤامر على قتل الامام علي . وكان قد صبر نفسهُ حتى يسمع ذلك من فم الفتاة ولكنهُ ملَّ الانتظار فسألها قائلاً « وما هو اسم هذا الرجل »

فقالت ان اسمهُ عبد الرحمن بن ملجم المرادي

فلم يذكر انهُ يعرفهُ اما خولة فتنهدت وقالت « فلما رأيتُ منهُ هذا الاستعداد وهو كاتم خبرهِ عني عمدت الى الحيلة فجاءني في صباح امس بودع والدي وقد عزم على الكوفة فقلت في نفسي سيذهب الرجل ولا ادري السر فتظاهرتُ باتجابي بمجاملتهِ واقدامهِ واطريت غيرتهُ على الاسلام ونحو ذلك وسألتهُ ان يريني السيف لأتأمل فرندهُ فجاءني بهِ واوصاني ان اتقي حدَّهُ لان جرحهُ يميت حالاً فسللتهُ بحذر كلي فاذا هو يلمع لمعاناً تقشعر منهُ الابدان فارتعد جسمي ولكنني اظهرت الجلد وقلت « اراك انفقت مالاً كثيراً على صقلهِ وما الفائدة من هذا اللمعان »

فضحك مستخفاً وقال الظنين اني انفقت كل هذا المال على مجرد صقلهِ

قلت وماذا اذاً اني لا ارى فيهِ غير اللمعان

فقال اني سقيتهُ السمَّ

فاظهرتُ الاستغراب وقلت وماذا سقيتهُ . وما زلت احاولهُ واجادلهُ حتى هان عليهِ التصريح فقال لي « اعلمي يا خولة اني سأقتل بهذا السيف رجلاً يزعمون انهُ

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

اكبر رجل في الاسلام ويقولون انهُ اقرب اقرباء الرسول » قال ذلك والشرُّ بادٍ في عينيهِ واصفرار الوجل يتخلل ما كان يحاولهُ من الابتسام . اما انا فلما سمعت قولهُ ارتعدت فرائصي واختلج قلبي واظنهُ قرأ ذلك على وجهي . كيف لا وقد ظهر لي انهُ يريد الامام علياً . ولكني احببت تحقق الظن فقلت « ومن هو ذلك الرجل » . فقال « ألا تعلمين من هو ألا تعرفين سبب كل هذه الانقسامات وإذا كنتِ لم تنهي بعد فاقول لك انهُ علي بن ابي طالب الذي يسميهِ اشياعهُ امير المؤمنين » . قال ذلك واحمرَّت عيناه وتجلى الغدر في وجههِ وقال « احذري ان تبوحي بذلك لاحد والاَّ فانك تنالين جرحاً من هذا السيف » . قال ذلك وهو يمزج الجد بالهزل اما انا فحقدت انهُ يقتلني ولا يبالي لانهُ تجرأ على قتل امير المؤمنين فكيف لا يقتل فتاة مثلي

فلم استطع جواباً وخفت اذا لطفت ان يبدو امري فصمتُّ وقد عوَّلت في باطن سري على السعي في ابلاغ امير المؤمنين ذلك على عجل لان موعد القتل قريب واظنهُ في ١٧ رمضان لاني كثيراً ما كنت اسمعهُ يذكر هذا التاريخ ويعرض بذكر الكوفة ولم اكن افهم مرادهُ بذلك . واما الآن فقد فهمت جيداً انهُ عازم على قتل الامام علي في ١٧ رمضان ونحن في اواسط شعبان واخاف ان ينال هذا الرجل بغيتهُ قبل ان يبلغ الخبر علياً . . آه يا ابتي طر بي احمل هذا الخبر اليهِ

الفصل الاربعون

﴿ برج الخفاء ﴾

وكان سعيد لما وصلت خولة الى ذكر اسم الرجل وتصريحها بقتل الامام علي قد نهض وجعل يخطر في الغرفة ذهاباً واياباً والحمية ملأت رأسهُ وندم على مجيئهِ قبل ان يخبر الامام علياً ولكنهُ تذكر انهُ لم يكن يعرف اسم المؤامر ولم تكن تمت فائدة من اعلامهِ اما الآن فانهُ يذهب اليهِ بالخبر الصريح

وكان مع شدة تأثرهِ من حديث خولة لا يغفل عما يتجلى في وجهها من ملاحة الجمال وما في حديثها من صدق اللهجة وقد اعجبهُ منها بنوع خاص غيرتها على الامام علي

www.marefa.org

فشعر بالعطاف نحوها . ولكنه تذكر عهده للعلام وما يظنه من حبها له فرأى ان لا يطلق لنفسه العنان في حب سواها . على انه لم يكد ذهنه ينصرف لحظة الى هذا الموضوع حتى عاد الى التفكر بعبد الله وبصيره وسبب وجود خوله في ذلك البيت المنفرد . فقال لها « لا ادري يا مولاتي ما الذي ساقني الى منزلك حتى حظيت بك وسمعت هذا الحديث الذي انما جئت للتطلع من اجله . ولا اخفي عليك اني كنت عالماً بعزم بعضهم على الفتك بالامام ولكني لم اكن اعلم اسم العازم ولا من هو فجئت للتطلع ومعي رفيق من ذوي قرابتي كان قد سبقني في صباح هذا اليوم الى مجتمع العلويين في عين شمس على ان يعود اليّ بخبر مكانهم فلما ابطأ سرت في اثره وانا لا اعرف الطريق فضللت في الظلام حتى اهتديت بك ونعم الضلال ضلالي . ولكنني في قلق على رفيقي اذ يلوح لي ان الفرسان الذين شاهدناهم الليلة كانوا قادمين من عين شمس ويظهر انهم قبضوا على انصار علي هناك . . ألا تظنين ذلك ؟ »

فقالت خوله لو صرتُ عليّ لاتمام حديثي لكفيت نفسك مؤونة الظن ويلوح لي انك تودّ الاطلاع على سبب وجودي منفردة في ذلك البيت وقد أوصدت الابواب دوني . فاعلم اني لما سمعتُ حديث المرادي سكتُ وكظمت فخرج الرجل واظنه تحص الى الكوفة ولبثت انا في حيرة لا ادري ماذا اعمل فقضيت نهار الامس في الهواجس والظنون وكلما تصورت علياً مقتولاً بسيف هذا الغادر يقشعر بدني . وكان والدي يخرج الى حانوته في كل صباح ولا يعود الى المساء وعندنا في المنزل عبدٌ رباني منذ حداثتي وهو يحبني ويكرمني وكنت قلما اكلمه فخطر لي ان اغتنم غياب والدي واكلم العبد عساه ان يطلعني على نبأ جديد او لعلي افهم شيئاً آخر . لان حديث ابن ملجم الصبي واقلق راحتي وليس لديّ من اشكو اليه امري او اكاشفه سري فخرجت من غرفتي لادعو العبد فلم اجده فناديته باسمه فاجابني ولم يجب فاطللت من الدار فرأيته واقفاً مع عبد آخر يظهر انه غريب وكانا يتحادثان ويتسارّان . فلما رآني تحول واسرع اليّ فدخلت غرفتي ودخل هو في أثري وعلى وجهه امارات الغبطة كأنه سمع خبراً غريباً يريد قصه عليّ . فقلت اين كنت وقد دعوتك فلم تجب ؟

قال كنت واقفاً مع عبد قادم من الكوفة لمهمة سريعة الى الامير عمرو

فقلت له وهل أطلعك على خبر تلك المهمة

www.marefa.org

الفصل الحادي والاربعون

﴿ اتمام الحديث ﴾

فسرّ عبدنا لما آنسهُ من ملاطفتي واراد ان يبرهن لي ثقتهُ بي فقال « انهُ اطلعني على سرٍّ لا اظن احدًا يعرفهُ في كل القسطاط سوى الامير وبعض شرطتهِ » ثم اخبرني ان ذلك العبد جاء الى الامير عمرو بان انصار علي يجتمعون سرًّا في عين شمس يوم الجمعة وان عمرًا عيّن جندًا للقبض عليهم او قتلهم في ساعة الاجتماع . فلما سمعت ذلك لم املك عن البكاء لشدة الغيظ ورأيت من أهم واجباتي ان ابلغ الجمعية تلك النية ليحذروا . ولكنني لم اكن اعرف احدًا اثق بهِ في انفاذ هذه المهمة فعوّلت على الذهاب بنفسي في ساعة الاجتماع

فاصبحت في هذا اليوم وانا اتوقع خروج والدي الى حانوتهِ لأتذكّر واسير الى عين شمس فاذا هو لم يخرج من البيت ورأيتهُ في اضطراب ووجل وما علمت ان العبد اخبرهُ بالحديث وانهُ اطلعني عليهِ فخاف والدي ان ابوح لاحد قبل القبض على المجتمعين . فلازمني في البيت الى الظهر ثم دعاني للخروج من القسطاط للنزهة فأتينا هذا البيت وهو بيت اشريك لنا في الفلاحة ولم يكن فيهِ احد فلم اظهر استغرابي ولا قلت شيئًا لاني كنت عالمة بان والدي سيكون في جملة السائرين الى عين شمس فلا بد من ان يتركني فاذا تركني خرجت وانا على مقربة من المكان . وما علمت ما اضمرهُ لي فاننا لم نكد نرى الشمس تميل حتى خرج والدي وتظاهر بامر هام يدعوهُ الى سرعة الذهاب وادعى انهُ اقفل الباب عليَّ خوفًا من الغرباء او ابناء السبيل ساعة الله وهو يعلم اني لا أستطيع النداء واستنجاد الناس لاني اذا تظاهرت بنصرة الامام كنت من المغضوب عليهم . فظللت هناك حتى جئتَ انت ورأيتني في هذه الحال . فرفيقك لا شك انهم قبضوا عليهِ في جملة اولئك الانصار

قال سعيد هل تظنين عليهِ باسًا

قالت لا اظنهُ الاَّ محبوسًا الآن حتى يسأموهُ استلة كثيرة ثم اذا رأوا قتلهُ قتلوهُ وكذلك يفعلون برفاقهِ . ولكن لا بأس عليهِ باذن الله وستند رفي امرهِ . وما العمل

www.marefa.org

الآن اني اخاف اذا عاد والدي ولم يرني في البيت ان تريد فتنة علي فاري ان اذهب الى منزلنا في النسطاط واتظاهر باني خفت من بقائي في البيت ففتحت الباب باسلوب اكيفنه على شكل مقبول ولا بد من تجاهلي كل ما حصل لاري ما يكون . وما انت فاعلة ؟

قال اود ان اسرع الى الكوفة لاري ابن ملجم فاقنعه او اخبر الامام علياً

فقطعت عليه الكلام قائلة « وكيف تقنعه وهو لا يقنع بل قد يسرع في القتل وليس افضل من ان تطلع الامام علياً على سرّ الامر وهو يدبر بما يراه »

قال وكيف افعل ترفيني هل اتركه في السجن

قالت « واخاف اذا تأخرت هنا ان تفوت الفرصة والمسافة من هنا الى الكوفة بعيدة واني لاتعجب منك كيف كنت عالماً بخبر هذه المؤامرة ولم تخبر بها علياً وانت في الكوفة »

فتنهد وقال « كفي الملام قد وقع ما وقع وكنت اظن الكتمان يبعد المصيبة وفاتني ان اخبرك بان المؤامرة ليست على مقتل الامام علي فقط بل هي على مقتل عمرو ومعاوية ايضاً » . وقصّ عليها الخبر مختصراً

الفصل الثاني والاربعون

﴿ الحبّ يعمي ويصمّ ﴾

فاستغربت خولة الخبر وقالت « ما لنا ولهذين انما نريد الدفاع عن علي الآن ولكنني لم افهم كيف انتقل خبر قدومكم الى هنا وانت تقول انه كان سرّاً مكتوماً لم يطلع عليه احد »

فكاد سعيد يعيّ الظن بقطام ولكن الحب غمّي بصيرته فانتقل سبباً آخر وقال « لا ادري » وخطر له ان يقصّ عليها حديثه مع قطام ثم امسك عن ذلك حفظاً لعهدها وهو كما قلنا غير مرة سليم النية لا يعرف الدهاء ولهذا السبب نفسه لم يطلق لعواطفه الحرية في حب خولة مع ان الاحوال تقضي عليه بحبها بالنظر لما آنسه من جمالها وحسنها مع استهلاكها في نصرة الحق

www.marefa.org

على انهُ ادرك مع ذلك ان كتمان خبر المؤامرة عن علي الى ذلك الحين خطأ ولكنهُ حملهُ على غلط قطام لا على سوء قصدها ومع ذلك فقد رأى الامر سهل الملافاة ولا يزال ثمت باب مفتوح لانفاذ علي بمجرد اعلامهِ . ولكن ذلك يدعو الى السفر السريع وهو لا يعلم ما آل اليهِ حال عبدالله فقال لها « اني عازم على الكوفة باقرب وقت فما الذي افعلهُ برفيقي وانا لا ادري اذا كان حياً ام ميتاً »

قالت « غداً لعلم الخفيفة دعني اذهب الآن الى منزلنا بالفسطاط وامكث انت هنا الى الصباح »

قال « كيف استطيع البقاء هنا وحدي ولا صبر لي على استطلاع خبر عبدالله فاري ان ادخل الفسطاط واتردد الى المسجد ولا يعرفني احد هناك فاما ان اسمع خبراً من يفد على المسجد من المصلين او تبعثي اليَّ بالخبر »

قالت لك الخيار في ذلك . ونهضت فنهض وخرجا فرافقها الى قرب منزلها وودعها وعاد يلتمس بيت الغفاري للمبيت وهو لا يدري ان الرجل في جملة المقبوض عليهم وقد اصبح بيتهُ موضع شبهة ولا كانت خولة تعلم ذلك

وكان الجند بعد القبض على اهل ذلك الاجتماع قد سافروا في الاغلال الى السجن وكان عمرو ينتظرهم في داره فلم يصبر على رؤيتهم الى الصباح فلما اخبروه بالقبض عليهم امر باستقدامهم اليهِ واحداً واحداً فرأى بينهم جماعة من لم يكن يخطر لهُ انهم على غير دعوة بني امية وخصوصاً الغفاري . ولما وصل الى عبدالله عرف انهُ من بني امية وتذكر قرابتهُ من ابي رحاب ولكنهُ تجاهل عن ذلك كلهِ وامر ان يسجن كل من هؤلاء في حجرة على حدة ويبعث جنداً يبغتون منازلهم ويقبضون على من فيها من الرجال لعلهم يطلعون على شيء جديد وهو معوّل على اعدامهم بعد ذلك . ولم يكن الجند يحتاج الى امر للنهب وقد اصبحت منازل اولئك العلويين وما فيها مالاً حلالاً لهم . فما صدقوا ان أُمروا بالبعث فيها حتى حملوا عليها واوغلوا فيها سلباً ونهباً

www.marefa.org

الفصل الثالث والاربعون

﴿ البغضة ﴾

وكان سعيد قد نزل في بيت الغفاري فسأل عن صاحبه فأخبره اهل المنزل انه خرج من الظهر ولم يعد . فلم يخطر له انه في جملة المقبوض عليهم فالتمس الحجرة التي وضع فيها ثيابه ونام بالرقاد ولم يكد يلقي رأسه على الفراش حتى تراكمت عليه الهواجس فاخذ يفكر في عبدالله وماذا عسى ان يفعل لانقاذه وخاف اذا ابطأ في المسير الى الكوفة ان يفلت ابن ملجم بغيته فيذهب سعيهم هباءً

وفيما هو في هذه الهواجس وقد طار نومه سمع لغطاً في الدار ولم تمض برهة حتى علت الضوضاء وضجّ الناس فوقف وتنصت فاذا برجال عمرو قد دخلوا المنزل واوغلوا في النهب ومَن تعرّض لم آذوه فايقن انهم آتون الى حجرته وتحقق انهم مؤذوه فتقلد حسامه والتفت يميناً وشمالاً لعله يجد مخرجاً يخرج به بنفسه فسمع صوتاً يناديه من وراء الحجرة فاستأنس بالصوت ثم عرف انه صوت خولة ولم يكن له سبيل الى مشاهدتها غير نافذة عالية لا يشرف منها الاّ اذا صعد على مرقاة فاحتال في الصعود اليها واطلّ وكان الظلام حالكاً ولكنه رأى شبحاً وسمع صوت خولة تقول له « ان الشرطة سيفتكون بكل من في المنزل واذا رأوك آذوك فاليك هذا الخمار والجلباب فالبسهما وافتح الباب واخرج فيظنونك امرأة فلا يتعرضون لك » فلم يصدق انه سمع ذلك حتى مدّ يده وتناول الخمار والجلباب وتنكر بهما وتخمر وهو يرتعش من الرعشة مخافة ان يسبق اجله فيدخل الشرطة قبل خروجه

فلم يكن الاّ كلمح البصر حتى لبس وتلثم بالخمار وفتح باب الغرفة وخرج يزجي امرأة فرأى الضوضاء لا تزال مرتفعة والنهب جارياً فلم يتعرض له احد فالتمس الشارع وراء البيت حيث كانت خولة واقفة وهو مع دهشته ويقظته لم يغفل عن الاعجاب بشهامتها والاقرار بفضلها عليه . وفيما هو يفكر بها رآها تمشي امامه فاقتفى خطواتها حتى وصلا الى متنفرد فوقفت وقالت له « الحمد لله على سلامتك وسلامة الامام علي » فلم يفهم مرادها فابتدرته قائلة « لا تعجب لقولي فان حياة الامام علي لتوقف على حياتك اذ ليس هنا من يعلم الخطر الذي يهدده سواك نعم اني اعرفه

ايضاً ولكني لا اضمن اقتداري على الذهاب ولا آمن الاعتماد فيه على احد »

فقال « وانا انما ابغي البقاء حياً لاقوم بانقاذ هذا الامام من القتل والفضل بالحقيقة لك انت فاخبريني كيف عرفت بالخطر المحدق بي حتى جئت بهذه الحيلة »

قالت « علمت من والدي ان عمراً امر بهدم منازل اولئك العلويين والقبض على من فيها من الرجال والمال واخبرني ايضاً ان هذا الغداري كان في جملة المقبوض عليهم وقد علمت انك نازل في منزلو فجئت اليك بهذه الحيلة فالحمد لله على سلامتك »

فشعر سعيد بفضل خولة واحس بانعطاف نحوها ولكن حبه قطامًا ما زال غالبًا عليه قابضاً على قلبه لا يترك له سبيلاً الى سواها

وبعد التأمل برهة قال « وما العمل الآن اني عازم على الكوفة عاجلاً ولكني لا ادري ما الم بعبدالله ولا ما يؤول اليه حاله هل علمت شيئاً عنه ؟ »

فتشاغلت خولة عن الجواب باصلاح ثوبها كأنها تحاول اخفاء ما تعلمه فظنها لم تسمع كلامه فاعاد السؤال . فقالت « لا يعلم المستقبل الا الله »

فلم يعجبه جوابها فقال افصحي عما تعلمينه يا خولة

قالت اعلم ان عمراً امر بقتل اولئك العلويين في فجر هذا الصباح ولكن من يدري النتيجة

فاختلج قلب سعيد ايما اختلاج وشعر كأنه صبت عليه ماء غالياً وقال مالنا نقولين هل يقتلون عبدالله ما العمل كيف يفلتونه

فقالت « دع الامر لله واعذرني اني لا استطيع البقاء معك طويلاً فلا يفتبه والدي لغيابي فلا نجو من القتل . واما انت فحياتك في اشد الخطر فيجب عليك ان تخرج من النسطاط حالاً »

فقطع كلامها وقال « كيف اخرج وعبدالله سيقتل غداً انه صديقي وابن عمي واعز من اخي كيف العمل يا رباه »

فقالت له لا خيرة في المواقع فان شرًا واحداً اهون من شرّين ومع ذلك ان الوقت ضيق لا مجال فيه للسعي او البحث عن سبيل لانقاذ حياة عبدالله اذا قدّر الله قتله ونحن الآن في نحو منتصف الليل وسيتم القتل عند الفجر . . . قالت ذلك وسكتت هنيهة

www.marefa.org

فابتدرها سعيد قائلاً يلوح لي ان الروح لعمرو بعزم بعض الناس على قتلوا حذره من الوقوع في الخطر الا نظيفة يعنو عن قتل عبد الله مكافأة لهذا الجميل

قالت « رباعنا ولكنه لدهاء وشدة بطش في قومك السوء فيتبض عليك ويؤجل قتل عبد الله حتى يأتي ١٧ رمضان فاذا لم يظهر صدق قولك قتلكما جميعاً . لهل انت ضامن ان المؤامر على قتل عمرو يأتي في الوقت المعين وخصوصاً اذا علم باطلاع عمرو عليه . فلا تكون النتيجة الا انك القيت بيديك الى التهلكة . ولكني ارى ان نترك هذا الامر الينا لعلي اهتدي الى وسيلة استغل بها والدي فاذهب بعني الى الامام واطلعه على هذا السر فاذا رأى ان يقبض علي فليفعل والمستقبل في يد الله . اما انت فسر حالاً الى الكوفة قبل فوات الفرصة ان الوقت قصير . . . ووقتي الآن اقصر منه . دعني اذهب الى والدي قبل ان يعلم بغيابي فيعرقل مساعي ثم ارى ما يكون . وسر انت الى الدير الذي كنا فيه في اول هذا الليل وسآتيك بالخبر . وقبل ان تصل الدير انزع عنك النقاب والازار وادخل بثوب الرجال ودنيس الدير يعرفك فلا يستفسك » . قالت ذلك وانصرفت تلتمس منزلها وهو يود لو انها بقيت

الفصل الرابع والاربعون

﴿ الخلوة ﴾

فلما خلا بنفسه مشى وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى اين يسير . فما شعر الا وقد خرج من الفسطاط ووصل الى حافة ترعة ظنها لاول وهلة النيل . ثم ما لبث ان رأى ضيقها فعلم انها خليج . وكان الغلام حالكاً فوقف برهة وافكاره تائهة في عبد الله ومدبج وكلما تصور ما هو فيه من الخطر هب جسمه واقشعر بدنه

وظل واقفاً وقد نسي موقفه لانشغال باله فرأى بالقرب منه نخلة فاقترب منها وجلس على حجر تحتها واسند ظهره اليها وجعل يفكر في حاله وحال عبد الله وما جرّه الى تلك المدينة من المتاعب الجامة . فتذكر قطاماً وعهودها وما مرّ له معها من الاحوال . وكان الجو هادئاً لا يكدره الا نقيق الضفادع على شاطئ ذلك الخليج

www.marefa.org

فاخذ نفيقها شؤما على عبدالله وتصور انه لا يطلع النهار حتى يكون في عداد الاموات . فلما تحيل ذلك اقشعر بدنه فوقف بغتة وقال في نفسه «أأبقى انا هنا وعبد الله في حال الخطر الشديد ... ما ذا تكون حالة مع عمرو .. هل يقتله أم يستبقيه آه ... ما ذا اعمل هل امكث في البسطاط لانقذ عبد الله من القتل ام اسير الى الكوفة لانقاذ الامام علي ... ولكن ما الفائدة من بقائي هنا وان العاص قد عوّل على قتل عبدالله في صباح الغد ... لابد من المبادرة الى انقاذه » قال ذلك ومشى بجانب الخليج جنوباً وهو يفكر في مجرى الماء هناك وتقيق الضفادع يعترض مجرى افكاره . ثم تأمل في ذلك الخليج فتذكر انها خليج امير المؤمنين وقد حفره عمرو بن العاص لما فتح مصر منذ عشرين عاماً لارسال المؤونة عليه الى الحجاز تلافياً لما كانوا يخافونه من القحط هناك . وكان قد حفره باشارة الخليفة عمر بن الخطاب[1] لما كان كرسي الخلافة في المدينة . فتذكر حال الاسلام في ذلك العهد وما كان فيه من اجتماع الكلمة وما فتحته سيوف المسلمين من البلاد الواسعة في الشام ومصر والعراق في بضع عشرة سنة . وكيف تحولت تلك السيوف الباترة بعد مقتل الخليفة عثمان الى الفتنة فانقسم المسلمون فيما بينهم وانشغلوا عن تأييد سلطانهم بالحروب الاهلية حتى اصبحوا يقتلون خلفاءهم بايديهم ما انزل الله بها من سلطان . واقبح ما آلت اليه تلك الفتنة انهم تآمروا على قتل امرائهم وخصوصاً الامام علي وهو ابن عم الرسول وصهره فؤاد المسلمين . ولا ذنب له غير السعي في تأييد الكتاب . ولما تصور تلك الحال انقبضت نفسه وغلب عليه الكدر حتى كادت تخنقه العبرات وهو لا يدري أيبكي عبد الله ام يبكي الجامعة الاسلامية ام يبكي الامام علياً ام يبكي سوء مجيء الذي جرّه الى تلك المدينة حتى وقع في تلك الحفرة

الفصل الخامس والاربعون

﴿ خليج امير المؤمنين ﴾

ثم وقف بغتة والتفت الى ذلك الخليج وجعل يحاطبه قائلاً « ألست الخليج

(١) المقريزي ج ١

www.marefa.org

الذي اشار امير المؤمنين عمر بن الخطاب بحفرك ؟ قل لي بالك الذي يجري فيك هل علم ان الخطاب لما اذن بذلك ان دولة الاسلام ستقضي عليها بالانقسام حتى يحمل عامتهم على مخالفتهم فيقتلونه ثم يختلفون على الخلافة فيقتسمونها ثم يختصمون على اقتسامها . هل خطر لابن العاص يوم نزل وادي النيل وحاصر هذا الحصن المنيع حصن بابل انه سيجرد سيفه على المسلمين ويقتل ابن ابي بكر حرقًا بالنار ثم يقتل على ابن عم الرسول فيستقر الخلافة من بعده بالحيلة .. اين انت يا عمر يا امير المؤمنين يا جامع كلمة المسلمين - كانت المدينة مقر الخلافة وانت على كرسيها فاصبحت منقسمة على نفسها يدّعيها غير اهلها ... آه يا ربي ما هذه الحال يا ليتني متُّ قبل ذلك .... هنيئًا لك يا ابا رحاب ان عظامك ساكنة في هذا التراب وروحك تنتظر لقاء ربها في يوم الحساب . اما انا الشقي فاني نائمٌ بعدك تتنازعني عوامل لا ادري مصدرها ولا اعلم مصيرها - أأبقى هنا لأرى مصير اخي عبد الله ام اسرع الى الكوفة لانبّئ الامام بما تآمروا عليه؟ .. ارشدني يا جدي وياسندي ... ابقى هنا ؟ وما الفائدة من بقائي هل يعنو عمرو عن عبد الله فيبقى حيًا فاراه .... ؟ لا اظنه يفعل .. اذًا ماذا يفعل ايقتله ولا استطيع الدفاع عنه ؟ ؟

« آه يا خولة ... يخيّل لي انك ملاكٌ ارسلك ربك لترشدني الى سواء السبيل .... فهل يتمّ لي السعد على يدك فتنقذين عبد الله من القتل .... »

الفصل السادس والاربعون

﴿ الإغراق ﴾

وفيما هو يحدث نفسه ويشفي الهواء على تلك الضفة سمع لغطًا وحركة عن بعد فاصغى وتقدم نحو الصوت وهو يحدق بنظره فعلم انه عجاب فلم الخليج عند اتصاله بالنيل ورأى في النيل سفنًا كبيرة وسمع لغطًا عميقًا كأن اصواتًا يهمسون فيما بينهم يحاذرون ان يسمعهم احدٌ . وكان هو لايزال بلباس النساء فخاف ان يراه احدٌ فيخبر بو فينكشف امره فانزوى وراء جميزة كبيرة بقرب الشاطىء ثم خاف ان

www.marefa.org

يدنو منه احدٌ فيراه . فتساق فرقاً من فروعها واخلباً بين الاغصان والاوراق وهو يحاذر ان يخفّ الورق . حتى اذا استكنّ على غصن غليظ جعل يفترس ما يراه فاذا هناك بضعة وعشرون رجلاً يحيطون ببضعة عشر آخرين كانهم اسرى مغلولون يسوقونهم الى قارب كبير وسمع بعضهم يقول « الى اين انتم ذاهبون بنا في هذا البحر لعلكم تريدون اغراقنا » فشجعه احدهم قائلاً « وما علينا اذا اغرقناكم وانتم عصبة شريرة تآمرتم على نصرة رجل قتل الخليفة عثمان »

فصاح آخر « أمن اعمال ابن العاص بقتل الرجال غيلة . اما كفاه انه يلتمس الخلافة لصاحبه بالحيلة حتى يقتل نصراء الحق غرلاً . . اما تخافون الله الا تخافون يوم القيامة »

فصاح بو اخر وقال « لا تخف يا فلان انما انا مأمورنا بنقلكم الى جزيرة الروضة تبقون فيها اياماً » . ثم علت الضوضاء . فعلم سعيد انهم انصار علي الذين قبضوا عليهم تلك الليلة في عين شمس . فتحقق ان عمرًا اشار بقتلهم غرقاً في النيل فارتعدت اعضاؤه حتى كاد يقع من الجميزة وحدثته نفسه ان ينزل لنصرتهم . ولكن الخوف غلب عليه لعلمه انه اعزل وانهم جماعة كثيرة وكلهم مسلحون . فلبث برهة كأنها سنة وهو يرتجف من شدة التأثر وتنصت لعله يسمع صوت عبدالله او براء فلم يسمع شيئاً ولم يكن يطمع ان يرى احدًا لشدة الظلام ولا هو بآمن من ان يفيق من ايديهم لكثرتهم وانفراده

ولم يكن الاّ بضعة دقائق حتى اصبح الكل في القارب ثم ادار ط الدفة وهو ينظر اليهم ولم يقلعوا حتى تدم على سكوته وودّ لو انه جاهر بنفسه لعله يستطيع نجدة اولئك المظلومين او يقتل . ولكنه تذكر ان بقاءه حياً ضروري لانقاذ الامام علي فمكث برهة كأنه في حلم وهو يتردد بين الندم والاسف ويلتمس عذرًا لسكوته حتى توارت السفينة عن بصره في لجج الظلام فأيقن ان عبدالله لا يلبث ان يبعث طلائعه للامساك اذا كان بين اولئك . وهو لا بدّ ان يكون بينهم لانهم عصبة واحدة نالوا جزاء واحدًا

www.marefa.org

الفصل السابع والاربعون

﴿ الندم ﴾

قلبت هنيهة يفكر بما مرّ به فاشتدت به هواجسه حتى بكى ونزل من الجمونة وهو يلطم وجهه ويندب عبدالله ويبكي حاله ويوبخ نفسه لفعله وتردده . فقال « أأرى عبدالله يساق الى القتل ولا اصرخ يا للجبانة يا للخيانة ... كيف اتخلّى عن رجل ذهب ضحية حبه لي ولولاي لم يأت هذه الديار ولا رأى ما رآه من البلاء ... آه يا ربي ما الفائدة من حياتي .... » ثم سكت هنيهة وهو يتجرع حوايله ويتأمل في موقفه فرأى انه ارتكب خيانة عظمى . فقال « اني لا استحق البقاء حياً ولا بد من ان القي نفسي في هذا الماء لعلي القى فيه حبيبي عبدالله فنذهب بقايانا معاً » قال ذلك وهمّ ان يلقي نفسه في النهر فشعر بقوة اوقفته بغتةً وقد فكر في الامام علي وما يحدق به من الخطر فقال « اذا قتلت نفسي انما اقتل عليّاً معي ... نعم اقتله لاني اذا لم القهم الكوفة وأنبئه بعزم ابن ملجم ذهب قتيلاً بذلك السيف المسموم ... آه يا خولة ابن وعدك بانقاذ عبدالله ... ولكن ما ذنبك وانت لا تعلمين انهم سيرجعون في اثراقو قبل انبلاج الصباح .. انه دهاء ابن العاص ومكره ... ولكنه سوف ينال نصيبه من اولئك المؤامرين ... يا ليتني انبأته بالمؤامرة وجعلتها فدية لعبدالله ... ولكن قضي الامر ولا خيرة في المواقع »

الفصل الثامن والاربعون

﴿ خولة ﴾

ثم سكت وجعل يتأمل في ما حوله ولا يطاوعه قلبه ان ينظر الى جهة معسكر الغارب . فاراد ان يتحول الى المكان الذي اتى منه فرأى شبحاً ممرعاً نحوه فخاف وتهيأ للدفاع اذا رآه يقترب منه . فلما اقترب الشبح اذا هو امرأة فعجب لقدومها وحدها في

www.marefa.org

ذلك الليل ولكنه ما لبث ان تفرس في قيافتها حتى علم انها خولة فخفق قلبه في صدره وغلب الخجل عليه لما رآه من جرأتها وقدومها في ذلك الليل وهي فتاة لعلمه انه لا يحملها على القدوم الا السعي في انقاذ عبدالله . فحدثته نفسه ان يخليّ سبيلها ولكن الحمية غلبت عليه فدنا منها وناداها . فلما عرفت صوته صاحت فيه « ابن عبدالله »

فأراد ان يجيبها فاختنق صوته وسبقته العبرات

فدنت منه وهي تقول « سعيد ... هل رأيت احداً جاء الى هذا المكان وما الذي جاء بك الى هنا »

قال « نعم اني رأيتهم يحملون اولئك الاسرى في قارب »

قالت « وأين هم ... ابن ذهبوا بهم ... هل رأيت عبدالله ... هل هو معهم ... »

قال « لقد حملوهم في القارب ولا ادري اذا كان عبدالله معهم لاني لم اسمع صوته ولا رأيته »

فصفقت بكفيها وقالت « لابد من ان يكون معهم . آه ما الحيلة الآن .. ما كنت اظن ابن العاص يجهل بفعلهم على هذه الصورة .. وكيف لم تحاول الدفاع عنهم ... »

فأجابها والاعتذار والخجل يتنازعانه وقال « لم أكن اعلم ان عبدالله معهم وهبي اني علمت فكيف استطيع انقاذه وانا فرد اعزل وهم جماعة مسلحون ..... »

فصمتت خولة برهة ثم قالت « لقد فعلت حسناً فأبقيت على نفسك لانقاذ الامام علي لان حياته موكولة الى سرعة رجوعك »

فقال بلهفة « وانت ما الذي جاء بك وكيف عرفت بسيرهم »

قالت « علمت ذلك من عبدنا وكنت قد دبرت حيلة ادخل بها على عمرو لأسهيلة في فتل عبدالله باطلاعه على سر المؤامرة فعلمت انه يبعث بهم هذه الليلة لاغراقهم في النيل مخافة ان يترتب على قتلهم جهاراً فتنة وهو يعلم ان انصارهم كثار في البسطاط . فاسرعت لعلي استطيع انقاذ عبدالله بحيلة ... فلم يساعدني القدر ... وا أسفاه عليك يا عبدالله .. آه من اهل الظلم ... ان عمراً قد غلب علياً بحيلته فاخرج الخلافة من يد الجهل الى موسى الاشعري ولكنه لن يخرج بنفسه من غائلة

www.marefa.org

المؤامرين ... »

ثم دنت من سعيد وقالت « انا اعلم ان فقدان عبدالله مصيبة علينا لا شيء ولكنه قضى نحبه واجباتو على اننا نرجوان نعوض عن خسارتو بانقاذ الامام علي من خطر القتل فاركب الى الكوفة على عجل وتم المهمة التي جئت من اجلها . فها قد عرفت اسم المؤامر وانهُ سار الى الكوفة فاسرع ما استطعت قبل فوات الفرصة »

وكان سعيد مع شدة تأثره مما رآه تلك الليلة من الاهوال لا يغفل عما ابدتهُ خوله من الحمية والجسارة وقد ازداد حباً لها واعجاباً بشهامتها ...

وفيما هو يفكر في ذلك ابتدرتهُ قائلة « اعلم يا سعيد اني خرجت الليلة من بيت والدي تحت خطر القتل وانا احسبك في الدير كما تواعدنا وكنت عازمة على الذهاب اليك لأستحثك في سرعة المسير ثم العود الى والدي الفضل لهُ سبباً في خروجي . اما وقد التقينا هنا فاني استودعك الله والتمس منك ان تسرع في الذهاب واني عائدة الى بيتنا وساُرسل اليك جملاً مع عبدنا وآمرهُ ان يسير في ركابك الى الكوفة »

الفصل التاسع والاربعون

﴿ السفر العاجل ﴾

فأعجب سعيد بتدبيرها وثبات جاشها ورأى نفسهُ ضعيفاً بين يديها ولم يستطع مخالفتها فقال لها « لا تلبث ان يتبين لنا الخيط الابيض من الخيط الاسود . وها اني خارج الى جبل المقطم فهل يوافيني عبدك وجملك الى هناك »

قالت « انهُ سيوافيك حالاً سر بحراسة الله واحذر ان تفوتك الفرصة . ان ابن ملجم قد سبقك الى هناك .. هل فهمت ذلك ؟ » قالت ذلك وبدت يدها البيضاء تصافحهُ وبدا ترتعش وقد لمعت عيناهُ لحظة ثم تذكر ما هو فيهِ من الامور الهامة . وربما اضطرب قلبهُ بين يدي خوله ولكن حبهُ قطعاً ما زال غالباً عليهِ على انهُ عوّل في باطن سره اذا نجح في مهمتهِ ان لا يدع خوله تخرج من بيتهِ فيجعل لها مقاماً في قلبهِ . فقال لها « ارجوان تذكريني وتدعي لي بالتوفيق »

www.marefa.org

قالت وقد فهمت مراده « سراتي معك وان كنت في الفسطاط وارجو ان يجمعني بك يوم يجيء الامام من ايدي الظالمين وينال ما يستحقه من الاستقلال بالخلافة »

فاخذ قولها تعهداً له لافتكاره بالحب ونحوه وهو في سعة ارفع منزلة من ذلك

اما هي فاسرعت في وداعه والحّت عليه في سرعة المسير وكلفته ان يلاقي عبدها والجمل وراء المقطم ثم تحوّلت بسرعة الى الفسطاط

فلما تركته وقفاً حوّل وجهه الى الميل حيث كان القارب . وتأوه وتحسر وقال « استودعك الله ايها الصديق الحميم استودعك الله ايها الاخ الحبيب لا غرو اذا ذهبت فهمة في سبيل نصرة امير المؤمنين انك اذاً لفديت عزيزاً واست حيّ مثلي ربك باسماً مفتخراً فادع لي ان القاه منتصراً على القوم الظالمين »

قال ذلك وتحوّل يلتمس جبل المقطم ولم يدركه حتى انبلج الصبح فلقي العبد قد سبقه الى هناك ومعه الجمل وسائر معدات السفر

الفصل الخمسون

﴿ تمام الحيلة ﴾

فلنتركه سائراً يطوي البيداء ولنعد الى قطام في الكوفة وما كان من دهائها ومكرها بعد سفره . فقد ذكرنا ارسالها عبدها الى الفسطاط للوشاية بسعيد وعبدالله ثم خلت بلبابة فقالت لها « لقد تمت لنا الحيلة في قتل هذين المغرورين فانهما مقتولان لا محالة . بقي علينا ان نعلم من هو المؤامر على قتل علي فاذا عرفناه تفطناه على قتله وساعدناه فان قيامي كلها تنصرف في ذلك »

فضحكت لبابة وقالت « انه امر سهل فان عبدك ريحان ماهر باساليب الدهاء مثل سيده ولا نظنه الاّ عائداً الينا بالخبر اليقين واما تعرض ذلك المؤامر على القتل فهو اسهل وخصوصاً اذا رأى هذا الوجه الجميل فانه مفتتن به لا محالة فما عليك حينئذٍ الاّ ان تعديه بالزواج وتجعلي قتل علي مهراً حلالاً لك . . . كيف رأيت رأيي ؟ »

www.marefa.org

فقالت قطام بورك فيك ياخالة والله انك معذورة عن احساسي . اما وعده بالرواح فهو امر سهل عليّ . ولا نظنا نحتاج في البحث عن ذلك الرجل الى كبير معنة فانه اذا دنا الميعاد المضروب لا بد من قدومه الى الكوفة واذا جاءها فلا بد من ان يطلع احدًا من اهلي على عزمه اعلمي انا على دعوته . فاذا عرفناه هان عليّ كل عسير

صدق القائل « كل سر جاوز الاثنين شاع » فلم يدخل شهر رمضان حتى تحدث اهل الكوفة في حادث فظيع بخافونه على حياة امير المؤمنين وكان الناس يتداولون ذلك الخبر همسًا وهم لا يعبأون به لانه غير مسند الى شاهد ولا احد عرف القائل . فضلاً عن علم العقلاء منهم ان امثال تلك الاشاعات جارية في مثل ما كان فيه الامام علي يومئذٍ . ولم يعبأ الامام واهل حاشيته شيئًا من تلك الاشاعة ولكنهم لم يعبأوا بها وحملها اهله واصحابه على الشاعات ينشرها ذوو الاغراض . وهنا نحسن الاشارة اليه انك قلما ترى حادثًا فظيعًا لم تتقدمه الاشاعات المنبئة بقربه وقوعه . وهو سرٌّ لا مهمة وهيا يكن من الامر فان اهل الكوفة كانوا يتحدثون بملاء بخافونه على امير المؤمنين ولكن اكثرهم كانوا لا يكترثون

ومضت ايام ودخل شهر رمضان فاصبحت قطام قلقة لتعرف من هو المؤامر على قتل الامام علي لتتصرف او تحرصه . فلما اقترب نصف الشهر ولم يأت احد ولا سمعت باحد ظنّت المؤامرين عدلوا عن عزمهم جبنًا وفرقًا واستطالت عندها ريحان وقد كانت في انتظار قدومه لعلها تسمع منه شيئًا عن اولئك المؤامرين ولكي تسأله عما آلت اليه حال سعيد وعبد الله . على انها لم تكن تشك في وقوعها في الخ

الفصل الحادي والخمسون

عود ريحان

واصبحت قطام في الخامس عشر من رمضان والباب يُقرع وكانت لمامة نبيت عندها بعد سفر ريحان . فهبت لمامة فسمعت جلبة جمل عرفت انه جمل ريحان فاسرعت الى الباب ففتحته فاستقبلها ريحان فقبّل يدها وهو لابرال بلباس السفر ودخل

www.marefa.org

تنّا الى غرفة سيدته فلما رأته ابتسمت له ابتسامة عوضت عليه كل شقائه . فتقدم لتقبيل يدها وهو مشرق الوجه اشارة الى نجاح مسعاه . فقالت اني اقرأ آيات البشر على وجهك وان كان اسود اللون فاقصص عليّ تفصيل ما أنبئك من آيات الذهاب والمهارة

فقال وهو ينفض الغبار عن ثوبه و وجهه « ركبت الى الفسطاط فوصلتها يوم الخميس قبل وصول سعيد وعبد الله بيوم فسرت تنّا الى الامير عمرو بن العاص وقصصت عليه خبر القادمين وان في الفسطاط جماعة من انصار علي يجتمعون في عين شمس كل جمعة . فأمر رئيس شرطته ان يتهيأ للوقت المعين وخفت ان يهاجموا المكان قبل وصول سعيد وعبدالله ولكنهما وصلا في اليوم التالي وذهبا الى المجتمع وقبضت الشرطة عليهم جميعاً ولكني لم ارسعيداً في جملة الاسرى »

فقطعت قطام كلامه قائلة وهل قبضوا على جماعة كبيرة من اولئك الانصار

قال قبضوا على نحو عشرين وعبد الله معهم

قالت وسعيد ؟

قال لم اره واظنه تأخر عن الاجتماع فلم يحضره فنجا بنفسه

قالت وماذا فعلوا بالاسرى

قال ساقوهم الى النيل واما نوم غرق في الليلة التي قبضوا عليهم فيها

فاشرق وجه قطام ثم انقبض بغتة ولبابة تنظر اليها كأنها تتأهب بالتأمل في ملامحها . فلما رأتها انقبضت تمتمت بها وقالت ما بالك ؟ ما الذي كدرك

قالت ان سعيداً لا يزال باقياً فاخاف ان يعرقل مساعينا

قالت لبابة لا خوف منه لانه كما تعلمين بسيط القلب سهل الانقياد تتطلي عليه الحيلة بسهولة . واما عبد الله رفيقه فقد رأيت فيه دهاء ومكراً فالحمد لله على نجاتنا منه

قالت صدقت ولكن سرّ المؤامرة عند سعيد فاخاف اذا جاء وانبأ علياً ان يحتاط عليّ بنفسه فيذهب سعينا هباء منثوراً

فاطرقت لبابة برهة ثم التفتت الى ريحان وقالت « هل عرفت الرجل المؤامر على قتل علي »

www.marefa.org

قال علمت انه من بني مراد واسمه عبد الرحمن بن ملجم

فبغتت لبابة وصاحت أأبن ملجم هو .. ؟ لقد هان الامر

فقالت قطام وهل تعرفينه

قالت اعرفه جيداً وهو جريء قلّ ان يقدم على مثل هذا العمل سواه واذا كان عبد الرحمن بن ملجم هو المؤامر فقد نلنا المرام فانه يحب الحسان ويستهلك في سبيل مرضاتهن . ثم ادنت فمها من اذن قطام وقالت ولا اشك انك راك الا خاطبك . ثم تحولت الى ريحان فقالت وهل رأيته قبل مجيئك

قال لا ولكني سمعت انه سافر الى هنا يوم وصولي الفسطاط وكنت اظنه وصل اليكم ولا اشك انه اذا جاء قدم اليكم لأني آنست من خير حزبنا هناك ما يدل على ذلك فهم يعتقدون فيما الكرم الشديد لعلي وانما نريد قتله وخروج الامر من يده . ولذلك فانا لا اظن المؤامر اذا اتى الكوفة الا مكاشفاً بعض اسيادي من اخوتك او اعمامك

فقالت بالله ألا سرت الى اهلي وبحثت عن الرجل فاذا سمعت بخبره فأتني على عجل واحذر ان يعلم بانك مرسل من قبلي لهذه الغاية وانت فطين عاقل فلا توقع نفسك في ما تلام عليه

وخرج ريحان ولم يبدل لبابة فتبعته لبابة الى حديقة البيت فوقفت به في ظل نخلة وتبسمت في اذنه قائلة « اذا لقيت الرجل قل له ان خالتك لبابة هنا وهي تريد ان تراك لامر هام » وعجلة بالمجيء واذكرله اني مقيمة في منزل سيدتك قطام واحتل في حديثك بحيث يفهم منك ما عليه سيدتك من الحسن والجمال واني ربما ساعدتك على الزواج بها . وانت فطن عاقل لا تحتاج الى تدريب في ذلك . فقبل ريحان يدها وهو يضحك ويهز رأسه كأنه يقول « يظهر انك لا تعتقدين فطانتي ولولا ذلك لم يكن ثمت داع لهذا التصريح »

www.marefa.org

الفصل الثاني والخمسون

﴿ لبابة وابن ملجم ﴾

وانصرف ريحان وعادت لبابة الى قطام وملامحها تدل على اعجابها بدهاء قطام واغتبطت وهي تقول لاريب عندي اننا فزنا بما نريد وقلبي يحدثني ان علياً سيقتل ويشفي غليلنا منه على الهون سبيل

اما قطام فظلت صامتة وقد اقطبت حاجبيها كانها تفكر في امر ذي بال · فقالت لها لبابة ما بالك يا قطام ما الذي حدث لك فاوجب هذا الاهتمام

قالت اني خائفة يا لبابة

قالت ما الذي يخيفك

قالت اني خائفة من سعيد فقد قال لنا ريحان انهم لم يقبضوا عليه في الفسطاط ولا بعد انه اطلع على اسم المؤامر وميعاد القتل ولا احالة الا قادماً يخبره الى علي فاذا اخبره بامرنا نعرقلت مساعينا وذهب سعينا عبثاً

فقالت لبابة وما الرأي يا بنيّة

قالت لا بدّ لنا من تدبير الامر باحكمة وتدارك الحادث قبل وقوعه

قالت هات رايك

قالت ارى اولاً ان نسعى في امساكه عن الذهاب الى علي · اذ قد يتراءى له ان يسير اليه حال وصوله الكوفة

فقالت وهذا سهل فاننا نبعث ريحان فيلاقيه في مكان خارج الكوفة لا بد له من المرور فيه فاما ان يؤخره عن دخول الكوفة او ان يدعوه الينا بحجة اشتياقك الشديد اليه !! ولا اشك انه اذا سمع بشوقك نسي كل شيء وطار اليك · ومتى جاءنا استبقيناه باي حيلة كانت واذا لم يبق مختاراً ابقيناه مجبوراً · ما قولك ؟

قالت ارى مثل رأيك ولكننا الآن في الخامس عشر من رمضان ولم يبق الا يوم واحد قبل اليوم المعين فلا بد من المبادرة في ارسال من يوقفه خارج الكوفة او يستقدمه الينا وريحان قد سار الى اهلي وربما ابطأ علينا

قالت لبابة دعي هذا الي ما انى ذاهبة في اثر ريحان فابعثه الى خارج الكوفة

www.marefa.org

واحث عن ابن ملجم بنفسي وذلك سهل عليّ لاني اعرفهُ شخصيًّا . قالت ذلك وتعرفت ولحاولت عكازها وخرجت تعدو ولا عدو الشباب

وخلت قطام بنفسها فتأملت بما في فيهِ من الامور وراجعت في مخيلتها ما دبرتهُ من الحيل في سبيل قتل الامام فرأت انها احسنت بارسال ريحان فاذا تجح في ايقاف سعيد ونجحت لبابة في استقدام ابي ملجم وتمّ لها اغراءهُ وتطبيعهُ نالت هي بغيتها وانتقمت لابيها واخيها . ولما تصورت وقوع ذلك انبعثت نفسها لمطاعة ذلك الامر ولكن شوقها للانتقام هوّن عليها كل صعب

وكانت قطام زكية الفؤاد متوقدة الذهن ولو انها كانت حسنة الخلق رقيقة العواطف واستخدمت ذكاءها وفطنتها في سبيل الخير لآتت باعمال يعجز عنها اعاظم الرجال ولكنها خلقت شريرة شديدة الانتقام فاستخدمت تلك الجوهرة الثمينة في سبيل الاذى . وذلك كثيرًا ما يحدث بين الناس اليوم وغدًا . فترى اناسًا خصتهم العناية بذكاء وعبارة وصفاء ذهن فيصرفون تلك القوى في سبيل الشر ويوجهونها الى الاضرار بالناس طوعًا لمطامعهم او رغبة منهم في الانتقام او نحو ذلك

فأعملت قطام فكرها بعد ما هيأت لها من ضروب الحيل فوجدت انهُ لا يزال ينقصها احتياط واحد لا بد من تداركهِ . وذلك ان سعيدًا ربما لا يلتقي بريحان لاختلاف في الطريق او ربما التقى بهِ ولم يصغ الى قولهِ والتمس الذهاب الى الامام علي فأطلعهُ على سرّ المؤامرة . فلما تصورت ذلك خفق قلبها واضطربت حواسها وهبّت للحال وجعلت تمشي في غرفتها ذهابًا وإيابًا وتخرج منها الى الغرفة الاخرى وهي تود ان تعود لبابة لتتداول وإياها في هذا الامر وندمت على ارسالها في تلك الهبة قبل الافتكار في ذلك

ولما لحاظم بلبابة خرجت الى حديقة النخيل وكانت الشمس قد تكبدت السماء وانحسرت الاظلال واتفق وقوع شهر رمضان في تلك السنة (٤٠ هـ) في ابان الشتاء لانهُ يبدأ في العاشر من يناير (ك ٢) [1] وكان يوم خروج قطام الى الحديقة يومًا صحا جوهُ فحسن الخروج بهِ الى الخلاء في ساعة الظهيرة للاستدفاء بأشعة الشمس . فمشت بين النخيل مبتعدة عن السور الذي يلي الطريق الى ما يلي البحيرة وهي لا تشبه لما حولها من صرير او تغريد او تفيق ولم يكن فيها الا انتظام مراعيها

(١) الفرق العام

www.marefa.org

الفصل الثالث والخمسون

﴿ لقاء ابن ملجم ﴾

قضت في الحديقة ساعة وهي وحدها في كل تلك الدار فملّت الشمس وحرارتها فعادت نحو البيت . وفيما هي عائدة سمعت اناساً يتكلمون عن بعد فوقفت على ارومة نخلة كانوا قد قطعوها للوقود منذ عامين والتفتت نحو الطريق فرأت شبحين ولم تلبث ان عرفت انهما لبابة ومعها رجل غريب الزي علمت انه عبد الرحمن ابن ملجم . فحوّلت انتباهها الى اتمام هذه الحيلة فدخلت البيت على عجل وكانت قد رأت لبابة تكلم عبدالرحمن وتشير اليها باصبعها . ولما دخلت الغرفة عمدت الى النقاب فارسلته على رأسها وجلست على وسادة تعوّدت الجلوس عليها اذا استقبلت الزائرين من الغرباء . ولبثت صامتة تنتظر دخول لبابة وما عتم ان سمعت صوت ضحكتها قبل سماع خفق نعالها . وبعد قليل دخلت لبابة وحدها فاستقبلتها فطام استقبال المشتاق ودعتها الى الجلوس

فقالت لا اجلس قبل ان ادعو رفيقاً لي صحبني لزيارتك

فقالت اهلاً بك وبرفاقك اجمعين فليدخل

فصاحت لبابة للحال ادخل يا عبدالرحمن

وما انتت كلامها حتى وقف في الباب رجل طويل القامة نحيف البدن خفيف اللحية اشعثها براق العينين بحيث يكاد الشرر يتطاير منهما وعليه العباءة والقفطان والعمامة وآثار السفر لا تزال بادية على نواحي وجهه وخصوصاً الانف فقد كان شديد الاحمرار . فخلع عبد الرحمن نعاله خارج الباب وحيّا ودخل . فردّت فطام التحية وهي تهمّ بالوقوف واشارت اليه ان يجلس فجلس الاربعاء وسيفه مستعرض على حضنه وظهر من كيفية جلوسه انه شديد الحرص على ذلك السيف كأنه يخاف عليه الضياع

فتحت فطام الكلام قائلة الى من ينتسب ضيفنا

قال الى بني مراد

قالت والنعم والبركة

www.marefa.org

فقالت لبابة وهو عبد الرحمن ابن ملجم من القراء المشهورين قرأ على معاذ بن جبل [1] . اظنك سمعت به

قالت امت تعلمين حالي يا خالة بل انت ادرى مني بما هو شاغل بالي من الاحزان والمصائب فلم يبق لي عقل اذكر به شيئاً غير مقتل اخي وابي ... آه من الظلام اهل المدينة . قالت ذلك واجهشت بالبكاء وما اسهل ما استنزل به الدموع

الفصل الرابع والخمسون

﴿ خطبة جديدة ﴾

وكان عبد الرحمن ينظر اليها من طرف خفي ويلاحظ ملامحها فافتتن بها ايما افتتان وكان قد سمع بجمالها وودّ لو انها تكون له . ولما لقيته لبابة لم تذكر له شيئاً مما عرفتم عن عزيمة ولكنها قالت له علمت بمجيئك الكوفة واعلم انك نجيب الحسان واعرف واحدة منهن ليس اجمل منها في العراق . فجاء ولما رآها تحقق ما سمعه فانشغف بها ومن عجيب امر هذا الرجل انه مع عظم ما انتدب نفسه له من الامر الهائل بقتل امير المؤمنين وقرب اليوم المعين لم يشغله عن مغازلة الحسان شاغل . فلما سمع كلام فطام ورأى اجهاشها قال وما الذي يحزن مولاتي ؟ ألا استطيع تفريج كربتها

فقالت لبابة لا يخفى عليك ما اصابها على اثر واقعة النهروان فقد قتل فيها والدها واخوها رحمها الله وهي لا يمضي يوم لا تذكر تلك المصيبة وتبكي ذينك الفقيدين ولكنني اريد ان اشغلها عن هذه الاحزان بمن يليق بها ...

ففهم عبد الرحمن انها تلمح الى خطبتها له فقال اني والله اكون اسعد حظاً من الجميع اذا تمّ لي ذلك

فجاهلت فطام وقالت وما الذي تتمناه يا سيدي

قال لقد جئتك خاطباً وانت في احزانك عساني ان استطيع تفريجها فاطلبي مني ما تشائين ما تقر به عيناك

فتبسمت فطام ثم قالت اني لأعجب من تسرعك في الطلب ونحن لم نلتق قبل الآن

(١) ابن دقاق ج ٩

www.marefa.org

فقطعت لبابة كلامها قائلة « نعم انكما لم تلتقيا قبلُ ولكن لبابة اعرفكما جيداً واذا اذنت مولاتي بكلمة فأقول انكما انما خلقتما لتعيشا معاً »

فسكتت قطام فقال ابن ملجم « ومع ذلك فاطلبي ما تشائين فيكون لك »

فظلت قطام ساكتة برهة تتظاهر بالحياء والتردد اتماماً للحيلة . ثم التفتت الى لبابة كأنها تقول لها « اني استحي ان اقول » فقالت لبابة انا اقول . . اجعل مهرها ثلاثة آلاف دينار وعبداً وقينة

ولم تتم لبابة قولها حتى صاحت قطام « لا . لا يرضيني ذلك ولا مطمع لي في المال كما تعلمون » فقال عبد الرحمن « اطلبي ما تريدين »

فتظاهرت بالتمنع وصبرت هنيهة كأنها تستفتي بما اقترحته عليها من المطالب ثم قالت « ان مهري انما هو قتل علي بن ابي طالب قاتل ابي واخي »

فابتسم عبد الرحمن ونظر اليها ويدهُ على قبضة سيفهِ وقال « ان ذلك وما قالته هذه الخالة سيكونان لك . ثلاثة آلاف دينار وقتل ابن ابي طالب وعبد وقينة . فان مثلك لا يعز في سبيل نيلها مهر . واعلمي اني انما جئت الكوفة لهذه الغاية انظري الى هذا السيف (وجردهُ فلمع نصالهُ لمعاناً شديداً) اني اشتريته بالف وصممته بألف لاقتل علي بن ابي طالب به

فابتسمت وقالت ولكني ارجو ان يكون ذلك عاجلاً لئلاَّ تفوت الفرصة

فقال ان موعدنا قريب لم يبق منه الاَّ يوم وليلة سأقتله في صباح ١٧ من هذا الشهر المبارك اي بعد غد فاطمئني

قالت وكيف علمت اليوم والساعة الا يحسن ان يكون ذلك غداً

قال ان لذلك سبباً سأذكرهُ لك بعدئذ ولكني اقول الآن اني مقيدٌ في انفاذ مهمتي في صباح ذلك اليوم

فسكتت قطام وهي تجاهل ما علمته من امر المؤامرة

وكانت لبابة عالمة بغياب ريحان وان لا بد من زاد يتناوله الضيف فاستدعت عبدها في اثناء قدومها فجاء واعدَّ لهم طعاماً تناولوه

وما صدقت قطام ان خلت بلبابة لحظة فاشارت اليها انها تحب مخاطبتها في امر ذي بال على انفراد فاحتالت هذه على عبدالرحمن حتى انس الخروج الى السوق في شغل له وخلت قطام بلبابة للبحث في تمام الحيلة

www.marefa.org

الفصل الخامس والخمسون

﴿ مهمة ريحان ﴾

اما ريحان فان لبابة ادركته في الطريق قبل عثوره على عبدالرحمن فأمرته ان يسرع في ملاقاة سعيد خارج الكوفة والتمس اليوم من اساليب المكر والدهاء ما يكفل نجاح مهمته . فسار اولاً الى ساحة كبيرة في وسط الكوفة تجتمع فيها الدواب من القوافل وغيرها . ولا بد للقادم الى تلك المدينة من المرور بها او النزول فيها

وقبل وصوله اليها سمع جعجعة الجمال وصهيل الخيل ولما وصل رأى الساحة غاصة بالدواب وبينها الناس في مرج بين راكب ونازل ورأى الاحمال ملقاة هنا وهناك فجعل يتفرس بالوجوه لعله يرى سعيداً او احداً من حلفائه فلم ير احداً . فجاء بيت سعيد فسأل عنه فعلم انه لم يأت بعد . فخرج بالتمس الطريق خارج الكوفة وهو ينظر الى الافق لعله يرى هجاناً او فارساً . فمشى ساعتين ولم ير احداً فوصل الى شجرة كبيرة يستظل بها المسافرون للراحة قبل دخولهم المدينة ولا بد لمن كان قادماً من الشام او مصر من المرور بها . فجلس هناك وعيناه شاخصتان الى عرض الافق يفكر في حيلة تطلي على سعيد فيستأنيه هناك او يسير به الى بيت قطام . فغربت الشمس ولم يأت احد وكان القمر بدراً فلم تكد تغرب الشمس حتى طلع البدر وانعكست الاظلال من الشرق نحو الغرب . فاتكأ على حجر وعيناه تنظران الى الافق

فقضى ريحان هناك اوائل الليل وعيناه شاخصتان وقلبه يخفق وكلما رأى شبحاً ظنه سعيداً فاشتد به البرد وهو يكابر ويتجلد . وحدثته نفسه ان يرجع فتخاف ان يأتي سعيد في اثناء غيابه فيذهب سعية هباء منثوراً فالتف بثوبه . وبعد نصف الليل غلبه النعاس وهو يتجلد ولكنه لم يقوَ على سلطان النوم فانغمضت عيناه على انه لم ينم طويلاً فاستيقظ مبهوتاً فاسف لما تولاه من الرقاد فنهض وهو يخاف ان يكون سعيد قد مرّ ولم يرهُ . فوقف برهة يفكر في ماذا يعمل فصبر نفسه الى الصباح فلم يأت احد فخيل له ان سعيداً مرّ في اثناء نومه فعاد الى الكوفة باسرع من لمح البصر فجعل يبحث في ساحتها وسار الى بيت سعيد فتحقق انه لم يأت بعد فرجع الى الشجرة وقضى معظم النهار نحوها

www.marefa.org

او نحوها كأنه على جمر الغضا . وهو مع ذلك صابر لا يتذمّر ولا يتضجّر حتى غابت الشمس وطلع الفجر . فقال في نفسه لم يبق الاّ هذه الليلة فاذا لم يصل الرجل لم يبق ثمت حاجة الى بقائي اذ يكون قد نفذ السهم وفتل عليّ . فازداد اضطرابه وتمنّى ان لا يأتي سعيد فيتخلص هو من تدبير الحيل في احضاره الى قطام وهو مع ذلك لا يرجو ذهابه معه لقرب ميعاد القتل

ولم يدن المساء حتى رأى جملين قادمين عن بعد وعليهما راكبان فاختلج قلبه واصطكت ركبتاه وزاده البرد ارتعاشاً . فلما اقتربا وقف وتقدم نحوهما فاذا هما سعيد وبلال عبد مولاه وكانا ملثمين فعرف سعيداً من قيافته واما بلال فلم يعرفه

الفصل السادس والخمسون

﴿ ريحان وبلال ﴾

وكان سعيد قد قضى مسافة الطريق في قلق على الامام وما صدق انه اطلّ على الكوفة فانفرجت ازمته وعوّل ان يسير توّاً الى منزل علي . فلما وصل الى تلك الشجرة ترجّل وترجل عبدٌ على نية الاستراحة هنيهة ثم المسير . فاستقبله ريحان وسلّم عليه فلما رآه سعيد استأنس به وردّ السلام ثم قال له ما الذي جاء بك يا ريحان

قال « ان سيدتي مشغلة الخاطر لطول غيابك » واشار اليه ان يدنو منه ليبث اليه ما اؤتمن عليه من السر . فدنا منه على انفراد وانشغل بلال بسياسة الجملين

فقال ريحان « ان سيدتي قطاماً تقرئك السلام وتقول لك لقد اطلت الغيبة عليها انت وسيدي عبدالله »

فنهره سعيد وقال « لا تذكر عبدالله فقد تركناه في مصر » قال ذلك وهو لا يريد ان يطارح العبد في مثل هذه الشؤون اتفةً وترفعاً فاكتفى بالسكوت فسكت ريحان عن سؤاله وهو يعلم ان عبدالله أُغرق في جملة من اغرقهم عمرو بن العاص في النيل ولكنه قال « وماذا القول الآن لسيدتي هل انت قادم للمبيت عندنا الليلة فانها قد اعدت لك كل وسائل الراحة »

فلبث سعيد برهة تتنازعه عوامل الشوق الى قطام وبواعث العجلة الى علي فرأى

www.marefa.org

ان ميعاد القتل قد آن فاذا بات تلك الليلة في منزل قطام يمتع برؤيتها ويشنف مماعهُ بحلو حديثها اصبح في الغد وقد قتل عليٌّ لان المؤمر لا يتأخر عن فعلهِ الى ما بعد صباح السابع عشر فقال « اذا ذهبت اليها الليلة اراها برهة ثم اسير الى علي » قال ذلك والتفت الى بلال فرآه منهمكاً في اعداد العشاء فناداه باسمهِ فجاءه فلما سمع ريحان اسم بلال اختلج قلبهُ في صدرهِ ولما دنا منهُ وتفرس فيهِ عرف انهُ عبد خولة وكان قد لقيهُ في القسطاط وباح لهُ بهواهُ ولم يكن يخطر ببالهِ بوجهٍ انهُ سيأتي مع سعيد . فارتبك في امرهِ وحاول اخفاء حالهِ لئلا يراه بلال فيعرفهُ . اما بلال فلما دعاه سعيد اسرع الى ما بين يديهِ فقال سعيد « ألا ترى ان نسير نوًّا الى الكوفة »

قال بلال « الامر لمولاي ولكنني اعددت لك طعاماً ألا تتناولهُ وتستريح هنيهة ثم نسير الى حيث تشاء »

فقال « ولكن بعض اهلي يعنيني في استقدامي للعشاء »

والتفت بلال الى ريحان فرآه قد انهزم الى جزع الشجرة يستتر بظلها فلم ينتبه لهُ وكان سعيد قد أنس ببلال في اثناء الطريق واطلعهُ على حديث المؤامرة فاغتنم بلال تلك الخلوة فقال لسعيد « ألا ترى يا مولاي ان تتم مهمتنا التي جئنا بها من القسطاط قبل كل شيء اني أخاف ان يكون ذهابنا الى اهلك سبباً في التأخير وهم ربما لا يعلمون الغرض الذي يدعونا الى الاسراع وربما حدث لك بعد العشاء ما يؤخرك عن تلك المهمة اما اذا انقذنا مهمتنا واطلعنا الامام على ما خبأهُ لهُ اهل البغي نمضي الى حيث تشاء هذا ما اراه والامر لك . على اني قد اعددت لك الطعام الآن فاذا شئت اكلت ثم فعلت ما يحلو لك »

فارتاح سعيد لهذا الرأي ولكنهُ اراد ان يخبر بلالاً باطلاع ريحان على سرّ الامر فقال لهُ « ولا اخفي عليك ان هذا الغلام (واشار الى ريحان) من جملة المساعدين في ما نحن فيهِ »

فقال بلال « فهو يعذرنا اذًا اذا رأى اننا نفضل المسير الى منزل الامام . نتفضل الآن الى المائدة واما اشتغل معهُ في تهيئة الجملين فاذا فرغت من الطعام سرنا جميعاً »

www.marefa.org

الفصل السابع والخمسون

﴿ انكشاف الخديعة ﴾

قال ذلك وتحوّل نحو ريحان وكان ريحان واقفاً بجانب الشجرة وهو يود ان لا يخاطبه احد . وحدثته نفسه ان يرجع الى الكوفة قبلاً براءة بلال فينكشف امره . ولكنه ما لبث ان رأى بلالاً يدنو منه ويكلمه فردّ عليه بصوت مخنوض وهو يتشاغل باصلاح نعليه وشملته لا يرفع نظره اليه . فاستغرب بلال ذلك فتقدم اليه وناداه وقال « تعالَ يا اخي نمكث هنيهة ريثما يتناول مولاي طعامه ثم نسير معاً »

فسكت ريحان ولم يجب ولكنه تظاهر بانه اضاع عصاهُ وتحوّل للبحث عنها وبلال يتبعه ويتعجب لما يبدو منه . فلما بعد ريحان عن ظل الشجرة بانت سحنه فتذكر بلال انه يعرفه وفطن للحال انه هو الذي اسرّ اليه خبر مهمته الى القسطاط . فانبه ان في الامر خديعة وخصوصاً لما رآهُ يحاول اخفاء وجهه . فتقدم اليه وامسكه بيده وقال « تعالَ يا صاحبي نمكث هنا ريثما ينهض مولانا فنسير معاً » فلم يرَ ريحان خيراً من ان يجانب يدهُ ويتظاهر بالغضب فتبعه بلال وهو يقول « يظهر انك لم تعرفني يا صاح الا تذكر اننا التقينا في القسطاط »

فصاح به ريحان « واي قسطاط . . اني لا اعرف القسطاط ولا اعرفك فهل الآن وليتني لم اعرفك فقد اضعت عصاي بسببك »

فسمع سعيد صياحهُ وكان قد جلس الى الطعام فنظر اليهما عن بعد فرآهما يتحاوران فوقف ونادى عبد قطام قائلاً « لا تغضب يا ريحان ان بلالاً على دعوتنا »

فلم يبالِ لريحان غير السكوت والمجيء اليه لئلاً تنكشف التهمة عليه . ولكنه اصرّ على تكران ذهابه الى مصر

فلما دنا من سعيد قال له « ما بالك تخاصم بلالاً »

قال « اني لا اخاصمه ولكنني اضعت عصاي وفيما انا ابحث عنها جاءني بحديث لا اعرف له اصلاً »

قال سعيد « وما ذلك يا بلال وما الذي قلته له »

www.marefa.org

قال « لم اقل له شيئاً ولكنني تذكرت اني رأيته في النسطاط منذ بضعة عشر يوماً وهو ينكر ذلك كل الانكار »

فلما سمع سعيد ذلك استغربه وقال « يجق له ان ينكر عليك ذلك لانه لم يبرح الكوفة منذ اشهر »

فاعاد بلال النظر الى ريحان ونفرس في وجهه وقال « بل انا على يقين مما اقول وقد لقيته هناك غير مرة ولكنه معذور في انكاره لان وجوده هناك عاد باشر العواقب على سيدي ورفيقي »

فبغت سعيد وكانت اللقمة في فيه فلم يعد يستطيع ازدرادها وكاد يغص بريقه ووقف للحال وقال « ما تقول يا بلال اظنك تغلط في القول ان ريحان عبد قطام بنت شجنة وقد تركته هنا يوم سفري وانا واثق بانه لم يبرح الكوفة ولعل الذي رأيته في النسطاط عبد آخر يشبهه »

الفصل الثامن والخمسون

﴿ يحاول عبثاً ﴾

فلما سمع ريحان ما اتهمه سعيد من العذر عنه اطمأن باله وقال بصوت هادىء « يظهر انه غلطان كما قلت لان البشر يتشابهون ولكنه سامحه الله جاءني مغضباً وانا افتش عن عصاي فاغاظني حتى سمع مني كلاماً سوءاً فانا اطلب اليه ان يعذرني على ما فرط مني » والتفت الى بلال وهو يبتسم ابتهاماً بسلامة نيته

اما بلال فكان في اثناء ذلك ينظر الى ريحان ولا يزداد الاَّ اعتقاداً بانه هو الرجل الذي خاطبه في النسطاط وناداه سيدنا خوفاً في اثناء خطابه ونصَّ عليها خبره كما مرَّ . فلما آنس منه ذلك اللين ظلَّ يتفرس فيه وهو صامت فلما اتمَّ ريحان كلامه قال له بلال « ربما كنت مخطئاً في ظني ولكني اسألك سؤالاً ارجو ان تجيبني عليه »

قال « قل ما بدا لك »

قال « ألا تذكر انك رأيت هذا الوجه » (واشار الى وجهه هو)

www.marefa.org

فتنفس فهو ريحان وهو يظنه يقول ذلك بمذاجة ثم قال « لا يا ابني لا اذكر اني رأيتك قبل الآن »

فقال « يا للعجب ولكنني واثق بأني لقيتك وخاطبتك فرأيت هذا الوجه وسمعت هذا الصوت . فالظاهر انك سرت الى الفسطاط قبل هذا العام »

قال « نعم اني سرت اليها منذ بضعة اعوام »

فضحك بلال وقال « ولكنك قلت الآن انك لا تعرفها »

فارتبك ريحان في نفسه وعمد الى المغالطة فقال « دعنا من هذه الاوهام ولا نشغل بالنا بما لا طائل تحته »

وكان سعيد في اثناء ذلك يسمع كلامهما والاخلاص لا يزال غالبًا عليه

اما بلال فخاف ان يترتب على سكوته ذهاب سعيد مع ريحان . فقال لريحان « اذا كان الحال على ما تقول فعليك ان تساعدنا في انفاذ المهمة التي نحن قادمون بها دعنا نذهب الى منزل الامام الآن »

قال « انا اكثر رغبة منك في هذا السبيل ولكن الليل طويل فاذا ذهب معي مولاي الى سيدتي فطام فتراه ثم يذهب الى حيث شاء كان ذلك اوفق »

قال « فليذهب هو معك وانا امضي الى منزل الامام بالنيابة عنه »

فضاق ريحان ذرعًا وظهرت البغتة على وجهه ولم يرَ له مخرجًا من ذلك غير التظاهر بالغضب فقال « ولماذا هذه الظنون أتظنك تسيء الظن بنا ونحن اولى منك بهذا الامر »

فخفق بلال حينئذٍ ان ظنه في محله فقال « نعم اني اظن السوء بك وبسيدتك بعد هذا »

فخاف ريحان ان يفضي الامر الى انكشاف امره فتظاهر بالغضب وقال « اني لأعجب من هذا الاحمق ويظهر ان مولاي صار على وفاحته فاما ذاهب منذ الآن وافعلا ما تشاآن »

قال ذلك وتحوّل يعدو نحو الكوفة وظل سعيد وبلال صامتين كأن على رأسيهما الطير

www.marefa.org

الفصل التاسع والخمسون

﴿ انشاع الغشاوة ﴾

مضى ريحان وهما ينظران اليه لا يفوه احدهما بكلمة . فلما توارى قال سعيد « ما الذي اراه يابلال اني احسب نفسي في حلم ؟ ما الذي نقوله عن هذا العبد هل انت متفق انك رأيته في القسطاط ؟ »

قال « نعم يا مولاي اني شديد الوثوق بذلك وقد زادني وثوقاً تناقض اقواله ونسيانه بعد ما اقترحته عليه »

قال « فلو كان قدم القسطاط ما الذي يدعوه الى التستر »

قال « يدعوه الى التستر ما ارتكبه من الخيانة هناك . آه من هذا الذل يا ليتني قبضت عليه وأهرقت دمه قبل فراره من بين يديّ . انه وشى بكما لعمرو ابن العاص »

فبغت سعيد وبدأت الغشاوة تنحسر عن بصيرته وتذكر ما قصته خولة عليه من حديث عبدها مع عبد آخر وشى بها الى ابن العاص . وانه استغرب يومئذٍ ان يتصل خبرها الى القسطاط وها انما قدما اليها سرًّا لا يعلم بهما احد غير قطام ولبابة وهذا العبد . فانجلت لديه الواقعة وخطر له ان ريحان لا يسير الى القسطاط الاّ بايعاز سيدته وتذكر ما كان يؤانسه في ابن عمه عبدالله من الشك في قول قطام فندم على استسلامه لها وعض على سباجه وظل واقفاً لا يبدي حراكاً وبلال واقف بين يديه صامتاً . ثم قال سعيد آه يا بلال يورك بخوله ويورك بابن رضعته انها والله كانت ملاكاً ساوياً بعثه الله لكشف تلك الخديعة . ولكن يا ويلاه قد نفذت حيلة قطام على عبد الله فمات غريقاً . . . . ولكنها لن تنفذ على الامام علي فاحمد الله على انكشاف امرها قبل انقضاء اجل المؤامرة

ثم صمت وتذكر حبة قطاماً وما بذلته لها من الاخلاص وما اجرته عليه من الخجل فعظم الامر لديه وامست عواطفه تتراوح بين ما انغرس في قلبه من الحب وما انكشف له من الخديعة فلم يتمالك عن البكاء . ولكنه خجل ان يذرف الدمع بين

www.marefa.org

يدي بلال فاشار اليه ان يهيء الجمال وحوّل وجهه الى الخلاء ومشى وقد اطلق لنفسه عنان البكاء وهاج به الاسف لما اصاب ابن عمه عبد الله من البلاء بسببه فجعل يندبه ويندب سوء حظه ويقول

« تبًّا لك يا قطام . اصحيح انك انفذت عبدك للوشاية بنا الى ابن العاص ليقتلنا ... ابن عهودك وابن وعودك ابن ما سمعته منك من الرجوع عن قتل الامام علي ... وا اسفاه عليك يا اخي وحبيبي عبد الله انك ذهبت ضحية جهالتي ودهاء هذه المرأة .... آه يا قطام ..... هل يوجد في الدنيا اناس قساة القلوب الى هذا الحد (قتل الانسان ما اكفره) اتسمحين بقتل صهرٍ استهلك في سبيل هواك وتقتلين بريئًا حملته غيرته على السعي في انقاذ امير المؤمنين ..... وتسمحين مع ذلك بقتل امير المؤمنين وانت تنظرين ...

« آه لا يسعني في الوقت ان اسير اليك فانتقم منك قبل الذهاب الى الامام ... »

ثم وقف بغتة واتجه لنفسه كأنه افاق من رقاد ونظر الى ما حوله فاذا هو في ليلة مقمرة صفا هواؤها ورقّ نسيمها فجعل يراجع ما مرّ به من الاحوال والاهوال ويتذكر حبة قطاماً فغلب عليه حسن الظن بها فقال في نفسه « ولعل قطاماً بريئة وربما كان ريحان صادقًا وبلال مخطئًا » فلما تصور ذلك انبسطت نفسه . والحب الغيور كثير الظنون الاّ في ما يأوّل الى الاضرار في حبيبه . على انه ما لبث ان تدبر القرائن والحوادث حتى رجح التهمة

وفيما هو يناجي نفسه التفت فرأى بلالاً قد اعدّ الجملين وهمّ بالقدوم اليه فمسح دموعه وتحوّل نحوه وهو يقول في نفسه « لقد انفذت حياتك في اخي عبدالله ولكنها لن تنفد في الامام علي . ها انني ساتر الساعة الى بيته وساستعين به على قتلك وقتل تلك العجوز الخبالة وذلك العبد الشرير ... »

قال ذلك وركب جمله وركب بلال في اثره وسارا يلتمسان منزل الامام علي

www.marefa.org

الفصل الستون

﴿ منزل الامام علي ﴾

وكان منزل الامام علي بجانب المسجد بينهما باب السدّة يدخل منه الامام للصلاة. وكان المنزل دار واسعة فيها المقاعد والمجالس لمن يفد عليه من العمال واهل الامصار. وبجوار المنزل ساحة واسعة فيها مرابط للخيل ومواقف للجماعات لا تبرح خاصة بجماهير الناس من دعاة الامام وكلهم مستهلكون في نصرته معترفون بامامته لا يرون احداً اولى بها منه . وكان اهل العراق وغيرهم قد اجمعوا في تلك السنة على نصرته فبايعه منهم اربعون الفاً على الموت [1] . ولعله كان ينتظر الفراغ من صيام رمضان ليعمل على معاوية بذلك الجند العظيم لا يغتر بمثل ما مرّ به من الحيل في صفين وغيرها بعد ان رأى ما آل اليه ذلك من تأييد سلطان معاوية

وكنت اذا دخلت مجلس الامام في تلك الاثناء رأيت رؤساء القبائل يترددون عليه ولا حديث لهم الا ما كان من اجماع كلمتهم وما يتوقعونه من النصر وما يرجونه من احقاق الحق وكبح جماح الطامحين للخلافة من غير اهل البيت

ذلك كان شأن الكوفة في ذلك الشهر المبارك اما علي فلم يكن يشغله عن فروض الصوم والصلاة شاغل فاذا دنت الساعة واذن المؤذنون تكاثف الناس في صحن المسجد لسماع كلامه بما فطر عليه من البلاغة وشدة الغيرة على الاسلام والمسلمين . فاذا وقف على المنبر رأيت الناس سكوتاً كأن على رؤوسهم الطير انتجاباً بما يسمعونه من درر الفاظه وبديع حكمه وبليغ آياته وهم يعجبون لما قام في أنفس المعارضين ممن تخلفوا عن بيعته وخصوصاً الخوارج الذين اختلقوا لمعاداته اسباباً ما انزل الله بها من سلطان

فاذا فرغ من صلاة الغروب تحوّل الى داره ومعه جماعة من الامراء يتقدمهم اولاده وسائر اهله فيجلسون الى الاعضاء للافطار والقراء يتلون القرآن في جوانب الدار والكل يسجعون ويهللون حتى يخيل لك انهم في موقف يتوقعون فيه الحساب

---

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

وما فيهم من يخاف عقابًا لما يعتقدونه من صدق دعوتهم وقيامهم بالحق المبين

وكان الامام اذا فرغ الناس من الافطار وجلسوا للاحاديث رأيته اقلهم كلامًا وانصرفهم عن التهديد. وربما مكث ساعة او بضع ساعات لا يئيس ابدت شفقة كأنه يفكر في امر ذي بال وربما كان تفكيره في ما يخشاه من سفك الدماء اذا حمل برجاله على الشام ونفوس الناس وديعة عنده يضن بها ان تذهب ضياعًا ولا يضن بها اصحابها في سبيل نصرته

الفصل الحادي والستون

﴿ ضمير ابن ملجم ﴾

كان ذلك شأنه خصوصًا في اواسط رمضان وعلى الاخص في ليلة السابع عشر منه وهي الليلة التي بات فيها ابن ملجم يترقب انبلاج الصبح ليفتك بابن ابي طالب. وفي تلك الليلة اسرع سعيد وعبيده الى منزل الامام ليبتاعه بعزم ذلك الرجل

وما ظنك بابن ملجم تلك الليلة .. هل نظنه بات ساكن الجاش مطمئن الخاطر ... هل عرف الكرى جفناه ... كلاّ . لا نخاله قضى ليلته الاّ قلقًا مضطربًا طول ما عوّل عليه من الامر العظيم . وما اعظم من ان يسفك دمًا بريئًا دم رجل جمع الى كرامة الخلافة شرف النسب واحرز من العلم ما لم يحرزه احد من المسلمين في ذلك العهد ؟ اليس هو ابن عم الرسول وخليفته وصهره . أليس هو ذلك العالم التقي العادل المخلص الغيور على الاسلام والمسلمين ؟ لا نظن ابن ملجم والحالة هذه قضى ليلته الا على شوك القتاد لم يغمض له جفن وقد طال ليلة . وربما حدثته نفسه بالرجوع عن عزمه فغلب عليه عهده لرفقائه ولعهده لخطيبته قطام بنت شجنة وخصوصًا بعد ان اشركت معه في ذلك الفعل ابن عم لها يقال له وردان حرضته على الاخذ بناصره . ولقي هو رجلاً من الشيع يقال له شبيب استعانه على ركوب ذلك المركب الخشن معه . فتواعد الثلاثة على العمل معًا في فجر الغد . فهل نظنه بعد تلك العهود والمواثيق يصغي لنداء ضميره اذا كان له ضمير . ولو اصغى لما ارتكب ذلك المنكر

www.marefa.org

على انك لو سبرت غورَ قلبه في تلك الليلة وهو يتقلب على فراشه وسيفة المسموم الى جنبه لرأيته يناجي نفسه ويدفع تبكيت ضميره بحجة انه انما عمد الى ذلك دفعاً لفتنة كان سببها تنازع علي ومعاوية وعمرو على السلطة والفتنة شرٌّ من القتل

وكأن نفس الامام علي حدثته نحو ذلك الزمن بخطر يتوقعه على حياته . فكان منذ دخل رمضان يمشي ليلة عند الحسن وليلة عند الحسين وليلة عند جعفر لا يزيد على ثلاث ثم يقول « احب ان يأتيني امر الله وانا خميص » (١) واما في تلك الليلة فانهم تعشوا جميعاً في منزل الامام وهو جالس على المائدة لا يأكل الا قليلاً وأولاده بين يديه ينظرون اليه ويحزنون لحاله

وكان حاجبه قنبر رجلاً من اهل الحيرة كهلاً اذا نام علي بات عند بابه وكان في تلك الليلة اشد الجميع قلقاً لم يتناول الافطار ولا هدأ له بال . اكل الناس وهو جالس القرفصاء عند الباب وعيناه شاخصتان الى الفضاء كأنه يتوقع قدوم قادم وهو لا يكلم احداً ولا انتبه احد لحاله ولو سأله بعضهم عن سبب قلقه لباح له بما اطلع عليه من الاسرار التي ظن نفسه اكتشفها وهم يجهلون عنها عمياً

وبعد صلاة العشاء انفضَّ المجلس فذهب كل الى منزله . وناموا جميعاً الا قنبر فانه لبث ساهراً وقد اخذ الاضطراب والقلق منه مأخذاً عظيماً . وما جلس للحراسة وهو يعلم ان الامام لا يلتمس حرساً بجرسة (٢) ولكنه جلس يفكر في امر أذهب رقاده والقاه في حيرة

الفصل الثاني والستون

﴿ فتح جديد ﴾

اما سعيد وبلال فانهما دخلا الكوفة واسرعا يلتمسان دار الامام علي وكان القمر بدراً (او حوالي البدر) وقد تكبَّد السماء فارسل اشعته على ابنية الكوفة وقد انقشعت الغيوم عن السماء على غير المعتاد في ذلك الفصل . فلما دخلا الكوفة رأياها

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) الخميس ج ٢

www.marefa.org

ساكنة هادئة لانقضاء بقيات السهر . وقد نام الناس وهم يتوقعون اذان السحر ليهبوا للعبور

سار سعيد وهو يسمع جلبة وقلبة يرقص طربًا لما يتوقعه من نجاح مهمته وقد شكر الله لاطلاعه على حيلة قطام قبل فوات الوقت . فلما دنا من المسجد ترجل وقال لبلال خذ الجمل وسر به الى ساحة الكوفة وامكث حتى آتيك

فلم يسع بلالاً غير الطاعة فتحوّل نحو الساحة . ومشى سعيد على قدميه وركبتاه تصطكان من شدة الاضطراب . وما صدق انه اقبل على دار الامام ولكنه رأى السكون سائدًا عليها . فوقف هنيهة يفكر في السبيل الذي يدخل به الدار واهلها نيام فليس برهة يتردد وهو يخاف ان يستغيثه احد لفدومه في ذلك الوقت وهو لم يدخل تلك الدار من قبل ولا لقي الامام عليًا لقاء اهل الولاء . ولكنه لم يرَ بدًّا من الاقدام فمشى بخطوات المتردد حتى دنا من باب الدار فرأى شبحًا جالسًا لم يعرفه ولكنه سرّ به لعلمه انه لايخلو ان يكون من بعض رجال علي فيساعده في مهمته . على انه لم يكد يقبل عليه حتى وقف ذلك الشبح يغنه ونقدم نحوه وهو يقول « من القادم »

فقال سعيد وهو يتلجلج بكلامه « اني رسول الى الامام علي . ومن انت ؟ »

قال « اني قنبر حاجب الامام ومن انت »

قال « اني سعيد الاموي اريد مقابلة الامام علي »

فصاح قنبر قائلاً « أأنت سعيد تعال معي . »

فسرّ سعيد لسرعة الاجابة ومشى في أثر قنبر حتى دخلا باب الدار وتحولا الى حجرة فيها مصباح فدخل قنبر اولاً والتفت اثنين كانا نائمين هناك وسعيد يتبعه بسذاجة ولم يكد يدخل الحجرة حتى رأى الرجلين قد اطبقا عليه وقيدا يديه ورجليه وهو واقف لايبدي حراكًا من شدة البغتة فلما رآهما يقلانه وقنبر واقف وقد تغيرت محنته قال له « ما الذي نفعله ماخذه الوقاحة ابن الامام علي »

قال « لقد كذب قاتلك ايها الوغد اللئيم انك لن ترى عليًا حتى ترى الموت قبله »

فبغت سعيد وهو لا يعلم سببًا لذلك العمل فقال « ما بالكم تستغيثوني وقد جئتكم في مهمة انقذ بها الامام علي من القتل »

www.marefa.org

قال « اخساً ولا تطل الكلام انك اموي وتطلب ان ترى الامام لتقتله . اتظن قتله امراً هيناً »

فقال « وكيف اريد قتله وانا انما جئت لانقاذه من القتل »

فامسكه قنبر بيده ويداه ترتعدان من شدة التأثر وقال له « الظن حبلك لتطلي علينا ؟ أما كفى بني امية ما فعلوه حتى جئتم لتقتلوا الامام في منزله »

فبهت سعيد وقد جمد الدم في عروقه وقال « ما بالكم تسيئون بي الظن وانتم لم تروا مني خيراً ولا شراً ألا تسمعون قولي ثم ترون رأيكم »

فقال قنبر « وما الذي نسمعه من قولك وانت اموي وقد تعهدت بقتل الامام علي مهراً لفتاة خطبتها من اهلها على هذا الشرط »

فاندهل سعيد واراد ان يدافع عن نفسه فرأى قنبر يستخرج من جيبه رقاً فلما استخرجه دفعه الى سعيد وجذبه بيده الى المصباح وهو يقول له « اقرأ ... اليس هذا خطك ؟ »

فلما وقع نظر سعيد على الرق علم انه الصك الذي كتبه لقطام يوم خطبها فايقن ان قطاماً هي التي ارسلت هذا الرق الى دار الامام لتوقع به . ورآها لشرط حبلها قد محت اسمها عنه ووضعت اسم فتاة اخرى فتصبب ولم يجب . فاخذ قنبر سكوته حجة عليه فصاح فيه « اجب قل ... اليس هذا خطك ؟ »

فارتبك سعيد في امره ولكنه ما زال يرجو التخلص بما يحمله من النبأ الاكيد عن مكيدة ابن ملجم فقال له « هب انه خطي ولكني جئتكم بخبر المكيدة التي كادها بعض الناس على الامام ألا تهاونني ربما اخبرتكم »

فلم يصبر قنبر على سماع كلامه وصاح فيه قائلاً « وأي مكيدة اعظم من ان تتعهد بقتل الامام ... امكث هنا الليلة وغداً لناظر قريب »

قال ذلك وخرج واغلق الباب عليه

www.marefa.org

الفصل الثالث والستون

بلال

فلما خلا سعيد في تلك الحجرة ظل نفسه في منام وجعل يفكر في امره وفي دهاء قطام وكيف اوصلت هذه الورقة الى هذا الرجل لاتمام حيلتها ولكنه لم يكترث بما عاملته به قنبر وعوّل على مقابلة الامام في الصباح باكرًا واطلاعه على سر الامر

واما ابصال ذلك الصك الى قنبر فانما سعت فيه لبابة المحتالة باشارة قطام بعد ان تداولتا في اتمام الحيلة مخافة ان يطلع سعيد على مكيدتها قبل وصوله اليها اي ان يذهب الى منزل الامام قبل المرور بها . فاستخرجت ذلك الصك وغيرت فيه الفاظًا رفعت بها الشبهة عنها وكلفت لبابة فانت منزل قنبر في صباح ذلك اليوم بدعوى انها دلالة تبيع الاقمشة والفت الى قنبر حديثًا لفقته بحيث تثبت الشبهة على سعيد فلا يصغي احد الى كلامه . وكان انصار علي قد سمعوا طنينًا عن عزم بعض الناس على قتل الامام . فلما رأى قنبر الصك وعلم ان صاحبه اموي ورثي في بيت حسان وقام بنصرته لم يبق عنده شك بتهمته وخصوصًا بعد ان رآه قادمًا قدوم اللص بعد منتصف الليل . فلما قبض عليه حبسه في تلك الحجرة الى صباح الغد ليرى رأي الامام به بعد ان يعود من صلاة السحر . وما علم ما خبأته الاقدار للامام قبل اتمام تلك الصلاة

اما بلال فانه مكث بالجماين في ساحة الكوفة ينتظر قدوم سعيد . فلما ابطا عليه انشغل بالهُ ولكنه لم يظن سوءًا لما يعلمه من سلامة نية سعيد . وفيما هو جالس يفكر في ذلك سمع آذان السحر فعلم ان عليًا يخرج في تلك الساعة للصلاة فهرول نحو المسجد وهو على مقربة منه فدخله فرأى فيه قمة مضروبة علم انها قبة بعض النساء ممن يجلسن لسماع الصلاة . فوقف وعيناه شاخصتان لعله يرى سعيدًا . فاذا برجال دخلوا وفيهم رجل ملثم وقد التف بعمامة يخفي تحتها سيفًا فتفرس فيه عن بعد فرأى على جبهة اثر السجود فعلم انه ابن ملجم [1] فارتعدت فرائصه

(١) الشيس ج ٢

www.marefa.org

وحدثته نفسه ان يصيح به ولكنه خاف على نفسه وهو لا يشك مع ذلك ان عليا اطلع على مكيدته ولا يلبث ان يدخل المسجد حتى يأمر بالقبض عليه ثم رأى ابن ملجم مشى ومعه رجل آخر هو شبيب نحو تلك القبة فكلما من فيها وكان فيها قطام بنت شجنة [١] ثم مشى ابن ملجم حتى اقترب من السدة و بلال يراعيه بنظره و يتوقع ساعة الامر بالقبض عليه حالما يدخل علي

وبعد هنيهة فتح باب السدة ودخل منها علي يمشي الهوينا، وعمامته على رأسه تتصل صلعته وكان ذا بطن ولحية كثيرة الشعر ضخم العضل [٢] وفي يده درة (سوط) كان يوقظ الناس بها للصلاة كل صباح . فمشى الامام وابن النباح المؤذن بين يديه والحسن بن علي خلفه . فلما دخل انصت الناس و بلال ينظر اليه ولا يشك في انه سينادي من يقبض على ابن ملجم . فاذا به قد وقف ونادى « ايها الناس الصلاة الصلاة »

الفصل الرابع والستون

﴿ مقتل الامام ﴾

والتفت بلال الى ابن ملجم فاذا هو لا يزال واقفا لكن رفيقه (شبيب) تقدم مسرعا وسيفه بيده ضرب به الامام علنا فاصاب عضادة الباب وسقط السيف من يده فاجفل بلال وهم ان يسرع الى علي يخبره بامر ابن ملجم فاذا بابن ملجم قد اقبل على علي باسرع من لمح البصر والسيف يبرق بين يديه وضربه على جبهته وهو يقول « الحكم لله يا علي وليس لك ولاصحابك »

فصاح علي « فزت ورب الكعبة » ثم قال « لا يفوتنكم الرجل »

فتكاثف الناس على ابن ملجم فدفعهم بسيفه ففرجوا عنه فهجم عليه المغيرة بن شعبة وتلقاه بقطيفة فرماها عليه واحتمله وضرب به الارض وقعد على صدره وانتزع السيف منه واما شبيب فانفلت في الغلس وخرج من باب كندة

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٣ (٣) الخميس ج ٢

www.marefa.org

واختلط عقد الناس ونظر بلال الى القبة المضروبة فرأى امرأة خرجت من تحتها وإذا هي قطام اسرعت وغرت في غمار الناس . فانذهل لما رآه ولكنه رجا ان لا تكون الضربة قاضية ثم تذكر ان سيف ابن ملجم مسموم فيئس من حياة الامام . وجعل يتفرس في الناس لعلة يرى سعيدًا فلم يقف له على اثر فتقدم في جملة من تقدم الى السدة حيث كان علي مطروحًا فاذا هو يقول « احضروا الرجل عندي » فاحضروهُ

فقال له علي « اي عدو الله ألم أحسن اليك »

قال بلى

فقال « فما حملك على هذا »

قال « شحذت سيفي هذا اربعين صباحًا وسألت الله ان يقتل به شر خلقه »

فقال علي « لا اراك الاَّ مقتولاً به ولا اراك الاَّ شر خلق الله » ثم التفت الى من حوله وقال « النفس بالنفس ان هلكتُ فاقتلوهُ كما قتلني وان بقيت رأيت فيه رأيي . يا بني عبد المطلب لا الفينكم تخوضون دماء المسلمين تقولون قد قتل امير المؤمنين ألا لا يقتلن الاَّ قاتلي . انظر يا حسن ان انا متُّ من ضربتي هذه فاضربه ضربة بضربة ولا تمثلنَّ بالرجل فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول اياكم والمثلة ولو بالكلب العقور »

قال ذلك وابن ملجم مكتوف وكانت ام كلثوم ابنة علي واقفة بجانب ابيها فقالت لابن ملجم « اي عدو الله لا بأس على ابي والله مخزيك »

قال « على من تبكين ويلك ان سيفي اشتريته بالف وسممته بالف ولو كانت هذه الضربة باهل مصر ما بقي منهم احدٌ »

ثم تقدم جندب بن عبدالله الى علي وقال « ان فقدناك ولا نفقدك فبايع الحسن »

قال علي « ما آمركم ولا انهاكم انتم ابصر »

www.marefa.org

الفصل الخامس والستون

لات ساعة مندم

ولما علم الناس ان سيف ابن ملجم مسموم تحققوا دنو الاجل وخافوا الفتنة في من يخلف الامام . فسأله جندب بن عبد الله ما سألة عمن يخلفه فاجابه على بأنه لا يأمرهم ولا ينهاهم كما تقدم

ثم نقلوه الى داره ماشيًا وهو يتوكأ على ولديه الحسن والحسين والدم يغشى جبهته وكان الدم لم ينفصل لعلة بعد

اما ابن ملجم فكان لثامه قد وقع عن وجهه و بانت سحنته وكان اسمر اللون في جبهته اثر السجود[1] فساقوه الى السجن واوصى امير المؤمنين بان لا يقتلوه الا اذا مات هو اثر الضربة لقطعوه اربًا اربًا . ولكنهم اضطروا امتثالاً لامر الامام ان يسوقوه الى السجن ريثما تظهر لهم عاقبة ذلك الجرح

اما بلال فانه سار في اثر الجمع الى منزل الامام علي وقد تولته الدهشة لهول ما رآه في تلك الساعة وما زاد اسفه وضاعف حزنه ما اصابه من الذهول بصعود سماء وسعى سيدته لانه انما كان يودّ نجاة الامام من تلك المؤامرة اكرامًا لمولاته خوله وخصوصًا بعد ان صحب عبدالله وسمع منه في اثناء الطريق ما حدثه به جده ابو رحاب من فضائل الامام علي التي يندر اجتماعها في رجل . وقد وردت في كلام ابي رحاب

على انه كان مع ذلك في شاغل عما كان فيه الناس بالفوضاء والانهماك بامر الامام وجرحه والتفكر بسعيد وحاله وقد عجب لفشل مهمته مع علمه انه انما اسرع بعد طول ثنة السفر والسعي في منتصف الليل لينهي القوم بذلك الخطر . فمشى بلال وهو يتفرس في الناس واحدًا واحدًا لعله يرى سعيدًا بينهم فلم يقف له على اثر . على انه ما لبث ان رأى الجمع دخلوا المنزل وادخلوا الامام محمولاً الى غرفته وتفرق الباقون في صحن الدار جماعات تحدث كل جماعة منهم بحديث ذلك الصباح .

---

(١) تاريخ الخميس ج ٢

www.marefa.org

ومدار ابحاثهم ما اصاب الاسلام في تلك الساعة مما لم يكن في الحسبان وما فيهم الا من يقول « ليتني اشلي عاملي بضربة في عنق ذلك الباغي »

وفيما هو بنظر في وجوه الناس لعله يرى سعيداً اذا بقنبر حاجب الامام علي قد خرج من الغرفة والدمع ملء عينيه وهو يقول « اقتلوني ايها المسلمون اقتلوني اني جنيت على امير المؤمنين »

فنهض الناس والتفتوا اليه ولم يفهموا مراده فاذا به قد اخترق الجمع ومشى الى الحجرة التي كان سعيد محبوساً فيها وفتحها واخرج سعيداً منها وهي لا يزال مملوءاً

الفصل السادس والستون

﴿ الوصية ﴾

وكان سعيد لا يزال في تلك الحجرة وقد اقفلوها عليه ولم يدر ما اصاب الامام علياً . فلما اخرجه قنبر على تلك الصورة ورأى الجمع متكاثفاً هناك ظنّ يريد به سوءاً . فقال أروني الامام علياً فأطلعه على دمه وقد درها له اهل البغي ولا اغلوط في سوءا

فلما صوت قنبر بالبكاء وقال « لقد نفذ السهم يا سعيد انهم قتلوا يا امير المؤمنين »

فصاح سعيد « ومن فعل به »

قال « ان ابن ملجم ضربه ضربة قاتلة فعله الله »

فصاح سعيد « ويلاه واحسرتاه كيف يقتله وقد قطعتُ البراري والقفار سعياً في تلافي ذلك المصاب . . ألم اقل لك ذلك يا قنبر »

قال « انك لم تفصح المقال وقد نفذ السهم وجرح الامام جرحاً لا اظنه يجو منه ولو اصغيتَ لمقالك لفجا امير المؤمنين ولكن وقع القضاء ولا مرد لقضاء الله »

ولم يتم قنبر كلامه حتى بكى سعيد وبكا الناس وعلا الصياح وهم مبهوتون ينظرون الى قنبر يتوقعون منه تفصيلاً

اما هو فاشتغل بحل قيود سعيد بيده وهو يقول « قاتل الله تلك العجوز المحتالة

www.marefa.org

ايها الخرقي بك وقد نجحت سعايتها »

فهمّ سعيد ان ينص عليهم حديثه على أثر ما رآه من رغبتهم في ذلك واذا ببعض الناس يقول « ان الامام قد شعر بالراحة وهو يخاطب ابنيه الحسن والحسين »

فحول الجميع الى غرفته كالسيل واغتنم بلال تلك الفرصة فدنا من سعيد كأنه يستنبئه عن سبب ذلك الفشل . فقص عليه الخبر باختصار ووعده باتمام الحديث في فرصة اخرى . وسار مع الجميع الى غرفة الامام فلم يستطع الدخول اليها لتزاحم الاقدام . فاطل من نافذة فرأى عليًا متوسدًا فراشه وهو معصوب الرأس بمنديل يغطي الجرح وكانوا قد غسلوا الدم عن وجهه ولكن آثاره ما زالت ظاهرة على بعض لحيته

فتذكر سعيد جده ابا رحاب وما اوصاه به فلم يتمالك عن البكاء على انه ما لبث ان سمع عليًا يتكلم فوجه اليه انتباهه فرآه يخاطب ولديه الحسن والحسين وهما جاثيان عند رأسه وامارات الكآبة والحزن ظاهرة عليهما وهما يتطلعان تجلد الرجال وقد اصاخا بسمعهما وحوّلا اعينهما الى وجه والدهما الجريح والناس سكوت وكلهم آذان يسمعون ما يتلوه الامام من الآيات البينات وهي آخر خطبة القاها . فاذا هو يقول

« اوصيكما بتقوى الله ولا تبغيا الدنيا وان بغتكما ولا تبكيا على شيء زوى عنكما وقولا الحق وارحما اليتيم واعينا الضائع واصنعا للاخرق وكونا للظالم خصمًا وللمظلوم ناصرًا واعملا بما في كتاب الله ولا تأخذكما في الله لومة لائم »

ثم نظر الى محمد بن الحنفية فقال « هل حفظت ما اوصيت به اخويك »

قال « نعم »

قال « فاني اوصيك بمثله واوصيك بتوقير اخويك العظيم حقهما عليك وتزين امرهما ولا تقطع امرًا دونهما » ثم قال « اوصيكما به فانه شقيقكما وابن ابيكما وقد علمتما ان اباكما كان يحبه » وقال للحسن « اوصيك اي بني بتقوى الله واقامة الصلاة لوقتها وايتاء الزكاة عند محلها وحسن الوضوء فانه لا صلاة الا بطهور واوصيك بغفر الذنب وكظم الغيظ وصلة الرحم والحلم عن الجاهل والتفقه في الدين والتثبت في الامر والتعاهد للقرآن وحسن الجوار والامر بالمعروف والنهي عن المنكر واجتناب الفواحش »[1]

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

الفصل السابع والستون

﴿ موت الامام ومقتل ابن ملجم ﴾

وبا اتمّ وصيته حتى نعب من الكلام وما عهدناهُ يعب من المقال في الوعظ والخطب ساعات متوالية . ثم امر بتلك الوصية فكتبت ودُفعت الى الحسن ولم ينطق الامام بعد ذلك الاّ بقوله « لا اله الاّ الله » حتى مات (١) فعلا الضجيج وزاد العويل والبكاء . ثم غسلهُ الحسن والحسين وعبدالله بن جعفر وكفن بثلاثة اثواب ودفن

واما سعيد فلما تحقق وقوع المصاب بموت علي تذكر قطاماً وخبثها وقال في نفسه والله لم يقتلهُ الاّ هي ولولاها لم يقتل امير المؤمنين

وفيما هو يفكر في ذلك و يبكي جاء قنبر فقبض على يده وجرّه فسار في اثره وهو لا يدري ما يريد منهُ . وسار بلال في اثرهما حتى دخلوا سجن ابن ملجم وكان مغارلاً هناك . فلما دخلوا عليهِ همّ سعيد بالكلام فقال قنبر تمهّل لنرى ما يقول هذا القاتل . فلما رآهم ابن ملجم قادمين عليهِ ظلّ جالساً ولم يعبأ بهم ولكنهُ خاطب قنبر قائلاً « اظنك جئت تدعوني الى القتل لان صاحبكم مات »

قال « الى ذلك جئت ولكنني اسألك عن هذا الرجل هل تعرفهُ » (واشار الى سعيد) فقال « كلاّ »

وكان قنبر قد اراد ان يتحقق براءة سعيد وقد شك في اشتراكهِ مع ابن ملجم في تلك المؤامرة . فقال لهُ « الم يكن لهذا الاموي شركة معك في القتل »

فتبسم ابن ملجم وقال « انهُ اضعف من ان يقدم على ذلك . اني لا اعرفهُ »

---

(١) هذا ما رواه ابن الاثير من امر مقتلهِ . وذكر صاحب تاريخ الخميس انهُ توفي في صبيحة يوم ١٧ رمضان مثل صبيحة بدر . وقيل ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة منهُ سنة اربعين من الهجرة من ابي عمر وابن عبد البر . وفي الصفوة قال الحفاء بالسيف ضربهُ عبد الرحمن بن ملجم بالكوفة يوم الجمعة لثلاث عشرة بقيت من رمضان وقيل ليلة احدى وعشرين منهُ سنة اربعين فبقي الجمعة والسبت ومات ليلة الاحد وقيل يوم الاحد وغسلهُ ابناه وعبدالله بن جعفر وصلى عليهِ الحسن ودفن في السحر . وقالوا غير ذلك مما ليس هنا مكان تحقيقهِ وذكروا انهُ دفن في مسجد الكوفة وقيل حمل الى المدينة ودفن عند فاطمة وقيل غير ذلك (من تاريخ الخميس)

www.marefa.org

فقال بلال « ولكنك ألا تعرف قطاماً بنت شجنة ؟ »

قال « اعرفها وهي خطيبتي ودم ابن ابي طالب مهرٌ لها »

فلم يتمالك قنبر عن ان صاح فيه « اخسأ يا لئيم انك ستلقى حتفك قريباً ثم الى الموت »

فوقف لساعته ومشى وهو لا يكترث بما يتهدده من الاجل العاجل

اما سعيد فلما سمع قولة ان قطاماً خطيبته خفق قلبه غيظاً من تلك المرأة وقال في نفسه اني والله سآخذ بالثار منها بيدي

وكان الحسن هو الذي امر باحضار ابن ملجم ليقتله عملاً بوصية ابيه فلما حضر بين يديه نظر الى ما حوله فرأى الناس ينظرون اليه باعين تلهب حنقاً وكلٌ يود ان يقتله بيده فلم يعبأ ان ملجم بما يراه . ولم يصبر حتى يخاطبه احد منهم فنظر الى الحسن وقال « هل لك في خصلة اني والله قد اعطيت الله عهداً ان لا اعاهد عهداً الاّ وفيت به واني عاهدت الله عند الحطيم ان اقتل علياً ومعاوية او اموت دونهما فان شئت خليت بيني وبينه . فذلك عهد الله عليّ ان لم اقتله ثم بقيت ان آتيك حتى اضع يدي في يدك »

فقال له الحسن « لا والله حتى تعاين النار [1] »

وكان الناس قد جاؤا بالحطب والنيران والنار وقالوا « نحرقه »

فقال عبدالله بن جعفر وحسين بن علي ومحمد بن الحنفية دعونا نشفي أنفسنا منه . فقطع عبدالله بن جعفر يديه ورجليه فلم يجزع ولم يتكلم ثم كحل عينيه بمسمار محمى فلم يجزع وجعل يقول « انك لتكحل عيني عمك بمكحول محمص » . وجعل يقرأ « اقرأ باسم ربك الذي خلق » حتى اتى على آخر السورة ولان عينيه لتسيلان على خديه ثم أمر به فعولج على لسانه ليقطعه فجزع فقيل له « قطعنا يديك ورجليك وعملنا عينيك يا عدوّ الله فلم تجزع فلما صرنا الى لسانك جزعت » . قال « ما ذاك من جزع الاّ اني اكره ان اكون في الدنيا فواقاً لا اذكر الله » . فقطعوا لسانه ثم جعلوه في قوصرة فأحرقوه بالنار [2]

---

(١) ابن الاثير ج ٣ (٢) تاريخ الخميس ج ٢

www.marefa.org

الفصل الثامن والستون

﴿ سرٌّ جديد ﴾

ولما اشتمّ سعيد رائحة الغدر المتصاعد عن بقايا لحم الشاة غليظة وأكثره ما زال قوله « ان قطامًا خطيبتي وانّ قتل علي مهر لها » يرنّ في اذنه وازداد تعجبًا من دهاء تلك المرأة واستغرب ان يكون في النساء واحدة في مثل ذلك الدهاء . وتذكر ما مرّ له معها من الوعود وما ارتكبه في سبيل الانتقام لوالدها واخيها من الجرائم وكم قتل بسببها من الرجال وعبدالله ابن عمه في جملتهم . فلما تصور ذلك كاد يفقد شعوره وظلّ برهة وهو غارق في مثل هذه الهواجس لا يتنبه لما دار حوله من الاحاديث ولا فقه لاشتغال الناس في متابعة الحسن . ولم ينتبه حتى ناداه بلال فلباه فقال « ألا تخرج بنا يا مولاي من هذا المكان ان لي كلامًا اقوله لك »

قال « هيا بنا » وتحولا ولم ينتبه لهما احد لاشتغال الناس بالمبايعة

وعادا توًّا الى ساحة الكوفة حيث تركا الجملين وسارا من هناك الى منزل سعيد وكانا في اثناء الطريق يلتقيان باهل الكوفة مسرعين زرافات ووحدانًا الى منزل الامام علي على اثر ما سمعوه من مقتله وهما لا يكلمان احدًا

وكان سعيد لم يدخل منزله منذ ذهب الى الفسطاط فلم يجد فيه احدًا لان الخدم ساروا في جملة من سار الى منزل الامام . وكان النهب قد اخذ منه مأخذًا عظيمًا لطول ما قاساه من الصبر والقلق بعد سفره الطويل . فدخل الدار من باب خصوصي كان مفتاحه معه وترك بلالاً يهتم بالجملين . وبدّل ثيابه وهو غارق في بحار الهواجس يفكر في ما رآه من الاهوال وما يتوقعه بعد موت الامام علي من اختلاف الاحوال

ولما فرغ من تبديل ثيابه توسد وسادة بقصد الاستراحة وهو يفكر في ما يتوقع سماعه من بلال ولكن التعب تغلب عليه وغلب عليه النعاس فنام . ودخل بلال عليه فرآه نائمًا فتوسد مقعدًا في غرفة اخرى وجعل يستعد لمكاشفة سعيد بما يحول في خاطره من الشؤون حتى نام

www.marefa.org

الفصل التاسع والستون

﴿ خولة وابن ملجم ﴾

وظلاّ ناظرين الى الغروب فأفاق سعيد من صوت الخدم وهم يفتحون الباب بعد عودتهم الى البيت وقد يئسوا لما رأوا سيدهم هناك على غير انتظار

اما هو فعذرهم لغيابهم ودعا بلالاً فوقف بين يديه فدعاه للجلوس فاستأذن في اغلاق الباب والاحتلاء فأمر بعض الخدم فأضاء له مصباحاً وضعه على مسرجة وخرج فاغلق بلال باب الغرفة وجلس الى سعيد والاهتمام بادٍ على وجهه

فقال سعيد « تكلم يابلال ما بدا لك »

قال « اباذن لي سيدي ان اسأله اولاً ما الذي دعا الى نقل مهنو »

فتنهد سعيد وقال « ان السبب قديم يا بلال لم أكن لأقعه عليك لولم اتأنس منك ما آنسته من الديانة والشهامة »

قال بلال « ولم يكن من شأني ان اسألك عنه لولم ألحظ من خلال الوقائع ما يكشف عن حقيقة السر ولعلي اذا اطلعت على حقيقة الحال ان آتيك بخبر جديد »

قال « لا اخفي عنك بعد ذلك ان السبب في نقلي امرأة اظنك سمعت اسمها في هذا الصباح من فم ابن ملجم »

قال « اظنها قطام بنت شجنة »

قال « نعم هي فجعها الله من داهية محتالة ، فانها كانت سبباً في قتل ابن عمي وقتل الامام وابن ملجم ، ولا يخفى عليك ان قتل الامام لا يقتصر شره على مجرد قتل النفس ولكننا نخالف منذ الفتنة ، ولا ريب انها ارادت ايضاً ان تفتلني بوسيلة دبرتها » وقص عليه حديثه مع قطام مختصراً من اول معرفته بها الى تلك الساعة

فلما فرغ من كلامه عض بلال على انامله وتحرق ثم تنهد وسكت

فقال سعيد « ما يخطر لك يا بلال وما الذي يدعوك الى التنهد »

قال « يدعوني الهوى بدمي على ما فاتني من القبض على هذه المرأة في صباح هذا اليوم لاني رأيتها في ضحاها بالمسجد وقد مرّ بها ابن ملجم ورفيقه فكلماها فدل اقدامها على تلك

www.marefa.org

الفعلة الشنعاء ولكنني كنت اظن علياً والهني عليه قد علم منك يا يدويو ابن ملجم فلا يترك له فرصة لارتكاب ذلك المنكر . . . . وقد رأيت بنت شفة خارجة من المسجد بعد ان تحققت قبل بغيها بقتل الامام فبا ليتني قبضت عليها . . . ولكن ما قدّر فقد كان . وقد قتل الامام وقتل قاتله والامر في ذلك لله . على اني اذا عشت فاني منتقم لك وللاسلام من هذه الفاجرة . ومن غريب الاتفاق ان ابن ملجم هذا كان قد خطب سيدتي خولة من والدها ولكنها لم تكن تحبه ولا ترضى به »

ولم يكن بلال عارفاً باطلاع سعيد على ذلك الخبر من خولة فلم يشأ سعيد ان يعترف له به فتجاهل وظل صامتاً ليسمع بقية الحديث

فقال بلال « ولا شك ان سيدتي خولة اذا سمعت بمقتل هذا الغادر فرحت لخلاصها من شراكه »

فقال سعيد « وما الذي كان يحملها على القبول به ألم يكن لها ان ترفضه »

قال « كلاّ يا مولاي لان سيدي والدها هو الذي احتمه بها ووعده بزفافها اليه ماما هي فقد تحققت من قرائن مختلفة انها كانت مصممة على رفضه ولو مها كلها ذلك من العناد »

الفصل السبعون

﴿ قلب خولة ﴾

فتذكر سعيد حديث خولة وتمثلت له صورتها كالملاك وتذكر ما آنسه فيها من الحصافة والاناقة والشهامة وما شعر به نحوها من الميل يوم لقيها في السطاط . وعولا يزال مخدوعاً بمواعيد قطام ومشغولاً بامر الامام علي فلم يترك لقلبه ومنذ مجالاً للحب فلما سمع ذكرها الآن تجددت ذكراها في ذهنه فقال لسماع اخبارها فظل على تجاهله فقال « وهل انت متحقق انها كانت مصممة على رفضه ولو اغضبت والدها »

قال « نعم اني واثق بما اقول وقد لحظت شيئاً آخر . . . » وسكت وهو يبتسم

قال « وما هو »

قال « ألم تلحظه انت »

www.marefa.org

قال « كلاً وما هو . قل »

قال « لحظت انك وقعت من نفسها موقعاً عظيماً . ولحظت ايضاً انك لم تجهل ذلك

قال « كيف عرفت اني لم اكن اجهله »

قال « عرفته مما رأيت من خروجها اليك غير مرة بالليل التماساً لجانبك وهي تستجهلني ولا تنبهة للاحظاتي . ولكنك كنت مستغلاً بهمتك على انقاذ الامام علي من مخالب الموت ... »

فعجب سعيد لما ظهر له من اطلاع بلال على سرّه وتذكر انه شعر بشيء منه يوم كان في الفسطاط وان الشغالة بهمته على الامام وخوفه عليه مع تعلقه بقطام وعهودها حال بينه وبين تمكين علائق المودة مع خولة . فلما سمع ما سمعه من بلال ساعتئذٍ احب ان يستطلع جلية الخبر فقال له « افصح عما في نفسك اني لم افهم مرادك »

فقال بلال « ان مرادي واضح مما ذكرته لك واقول بالاختصار ان سيدتي اسرّت اليّ يوم امرتني ان اسير في ركابك انها انما انتمها مهتمة بكشف دسيسة ابن ملجم وانقاذنا الامام علياً ان اطلعتك على رغبتها في عودك الى الفسطاط لانها تكون قد فرغت من خطبة ابن ملجم وتكون انت قد فرغت من مهمتك ولا ادري ما تنويه هي في رجوعك ؟ »

فهم سعيد ما وراء ذلك فقال له « اما رجوعي الى الفسطاط فلا يخلو من الخطر عليّ لاني انما جئت منها فراراً من القتل . فاذا عدت انما اعرض نفسي لما هو شرٌّ من القتل وابن العاص لا يعلو عني على اني اكره ان ارى الفسطاط بعد ان فقدت فيها ابن عمي رحمة الله ... » وسكت هنيهة وتنهد ثم قال « هل انت واثق بميلها اليّ فاني والحق يقال قد آنست في خولة من الحمية وعزة النفس مع الاستهلاك في نصرة الامام ما جعل لها في نفسي مقاماً رفيعاً . ولا اكتمك ما يخالج ضميري بوشك من الميل اليها ولكني كنت عالق القلب بقطام اخزاها الله انها خدعني ... »

فقطع بلال الكلام عليه قائلاً « لا تذكر هذه الخائنة يا مولاي اني والله اكره ان اسمع ذكرها لاني اشعر بقصوري وبجهلي اللذين سببا نجاتها وهي والحق يقال اصل هذا الشر العظيم ... ولكنها انتقمت لوالدها واخيها فارتكبت اعظم اثم حدث في الاسلام فقتلت ابن عم الرسول (صلعم) ولكنني سوف اذيقها حتفها واسفك دمها

www.marefa.org

ولو كلفني ذلك بذل النفس » قال ذلك وهو يحرق اسنانه حقاً واسفاً

فقال سعيد « وما ظنك بها الآن . هل هي باقية في الكوفة ؟ »

قال « لا اظنها تبقى هنا بعد ما ارتكبته وقد فضح امرها وعلم الخاص والعام انها شريكة في القتل »

قال « والى اين تظنها خرجت »

قال « لا ادري وسابحث عن ذلك في صباح الغد اما الآن فلنعد الى ما كنا فيه فانك اذا لم ترجع معي الى الفسطاط احسبني مقصراً بالواجب عليّ . وخولة يامولاي يندر مثالها بين البنات جمالاً واتقاناً وعقلاً وادباً ولولا والدها وشيعة لمعاوية لآثرت بها لم يأتو اعاظم الرجال . ولكنه كثير التطبع لابن ابي سفيان كما قد علمت وهو وسيدتي خولة يحسبانني ساذجاً لا افهم الامور ولذلك فكثيراً ما كانا يختلفان امامي ويختصمان على امور استدل منها على ذلك »

الفصل الحادي والسبعون

﴿ حب جديد ﴾

فاحسّ سعيد بتجدد عواطفه نحو خولة وتاقت نفسه الى الحصول عليها ولكنه استثقل الذهاب الى الفسطاط مخافة الوقوع في قبضة عمرو بن العاص . ثم تذكر بغتة ان المؤامرين كانوا قد اقروا على قتله وقتل معاوية في مثل ذلك اليوم فقال « ألم اخبرك ان اثنين آخرين تآمرا على قتل ابن العاص ومعاوية ايضاً »

قال « بلى اخبرتني ولكنني لا اخاف على ابن العاص الوقوع في تلك الشراك »

قال « وما الذي يجيء منها وهو لا يدري بما نووه له . . . فاذا كان المؤامر على قتله قد قتله فان عليّ الدخول الى الفسطاط ويكون ذلك امون اذا قتل ايضاً معاوية في الشام »

فقال بلال « ان البحث عن ذلك يحتاج الى وقت ولا بد لنا من التربص ريثما نسمع الاخبار او أن نسهر للبحث عنه بانفسنا »

قال سعيد « لا صبر لي على التربص ولا اظنك تصبر عليه . فارى ان نسهر انت

www.marefa.org

على عجل الى الفسطاط لتستطلع جلية الواقع وتعود بالخبر اليقين . واذا جعلت طريقك بالشام جئت بالخبرين معاً »

قال « ذلك اليك يا سيدي . وانت ماذا تعمل ؟ »

قال « اني اود البقاء هنا للبحث عن تلك الخائنة فعلام لعلي اتوفق للانتقام منها واذا لم اتوفق الى ذلك عشت منغص العيش طول عمري . آه كيف يهنأ لي عيش وهذه المرأة حية وقد فعلت ما فعلته معي ... قتلت ابن عمي وامير المؤمنين وكادت تقتلني ! »

قال « بالله دع امر الانتقام اليّ فاني اريد ان اشفي غليلي منها ومن عبدها المذبم ريحان لا اراحة الله ... ولكني ارى سفري الى الفسطاط ادعى الى العجلة ... فما العمل »

فاعجب سعيد بحماسة بلال وزاد ميلاً اليه والى سيدته وليث برهة يفكر في حاله وهو يزداد شعوراً بالانعطاف الى خوله ويردد في ذاكرته ما آنسه فيها من الخلال الحميدة والغيرة نحوه وكيف كان التفافها بها سبباً في نجاته من القتل ليلة ذلك الاجتماع . فضلاً عما رآه فيها من الغيرة على امير المؤمنين . ولكنه لم يكد يتقل فكره الى عاقبة ذلك السعي وحبوط تدابيره في انقاذه حتى همّ جسمه وتمرمر في داخله على انه لم ير حيلة في ما مضى فقال « لقد قضي الامر يا بلال ولم تبقَ لنا حيلة في ملافاة ما مضى فاذهب انت الى الفسطاط وعرج في طريقك الى الشام ثم عد اليّ بالخبر اليقين عن عمرو ومعاوية . واما انا فاني باقٍ هنا ابحث عن قطام وعجوزها وعبدها واذا انت عدت من سفرك افتقدني في هذا المنزل وسترى ما يكون »

قال « وخوله ؟ ما ذا اقول لها »

قال « قل لها اني لا اقدر اصف شوقي اليها وان ما عندي اضعاف ما عندها ولها مني عهد الله ان هي رضيت بي ان لا التفت الى سواها والايام بيننا »

قال « اما رضاها فانا الضمين لك به ... » وسكت بلال وقد ارتسمت البشرة سروراً باسعة ثم اقطب وجهه بغتة وقال « ولكن هب ان ابن العاص ما زال حياً ووالدها كما تعلم شديد التشيع له فلا اظنه يأذن بزفافها اليك اختياراً فما الحيلة ؟ »

قال « ذلك راجع الى اختيارها ومتى عدت اليّ بالخبر تتدبر الامر في حينه اما

www.marefa.org

الآن فينبغي ان لا نضيع الوقت . امض الى الفسطاط على عجل وعد اليّ بالخبر اليقين وعلى الله الاتكال »

فاخذ بلال يهتم بالرحيل وسعيد صامت يفكر في ما حدث له من الهواجس الجديدة . واصبح الحصول على خولة شغله الشاغل ولكن فشله في انقاذ الامام نار في خاطره حب الانتقام من قطام فصمم على الفتك بها اما بيده واما بمساعدة الحسن بعد تبوئه عرش الخلافة

الفصل الثاني والسبعون

﴿ خولة في الفسطاط ﴾

فلنترك سعيداً وبلالاً في حالها ولنعد الى خولة في الفسطاط . فقد تركناها عائدة في ذلك الليل الى منزلها وكان والدها كما علمت قد حبسها في ذلك البيت على طريق عين شمس . فلما اخرجها سعيد منه كما رأيت وسارا الى الدير ثم خرجت هي وجدها لم تر خبراً من ان تظاهر بالبكاء والخوف . فهرعت الى منزل والدها باكية وكان هو لا يزال غائباً لاشتغاله بمقابلة عمرو بن العاص بشأن الذين قبض عليهم في ذلك الدهليز . فلما فرغ من امرهم وحرّض ابن العاص على اغراقهم سار الى محبس ابنته فرأى الباب مفتوحاً وليس هناك احد . فاستغرب الامر وعاد توًّا الى منزله فرأى خولة جالسة في غرفتها تبكي . فتجاهل سبب بكائها وقال لها « ما بالك يا خولة »

قالت « كيف تتركني وحدي في ذلك البيت ألم تخف عليّ ابناء السبيل »

قال « ألم تري اني اقفلت الباب واوصدته خوفاً عليك من ذلك »

قالت « كيف تفعل بي هذا الفعل العلي عاصية امرك » واستغرقت في البكاء

فتحركت فيه عاطفة الابوة وظنها تقول ذلك عن سذاجة فقال لها « وكيف خرجت »

قالت « لما رأيت نفسي محبوسة هناك خفت على حياتي فجعلت اناديك واستغيث بك ثم سمعت قرقعة وضجيجاً ووقع حوافر كثيرة فازداد خوفي فصحت واستجرت فنبض الله في نفس الناس فتح الباب العنف فخرجت وهرولت الى البيت واما ارتعدت من

www.marefa.org

شدة الاضطراب »

فطيّب خاطرها ولامها على خوفها ولكنه سرّ لفلبه بالعطاء حبلتو عليها . وما زال يهون عليها حتى تظاهرت بالرضاء فتركها وخرج وهو يظنها عازمة على الرقاد ثم سمعت حولة لغط الناس في المدينة فانتبهت ان الجند لا يلبثون ان يفتشوا بيت الغداري فاذا رأوا سعيدًا هناك قبضوا عليه فخرجت لانقاذه كما تقدم . وقبل خروجها اوصت عبدها ان يوصد الباب واذا سأل والدها عنها ان يقول له انها نامت واوصدت الباب وراءها لشدة ما اعتراها من الخوف في ذلك المساء . فبات والدها تلك الليلة وهو يحسبها نائمة اما هي فبعد انقاذها سعيدًا عادت الى غرفتها وهي لا تزال مضطربة فلم تستطع رقادًا وجعلت تفكر في طريقة تنفذ بها عبدالله ولم تمكث قليلاً حتى سمعت لغطًا في دار والدها وفهمت من خلال اللغط ان عمرًا عوّل على اغراق اسراء تلك الليلة في النيل وسمعت والدها يضحك سرورًا بذلك الاقرار . فاستت اسفًا شديدًا ولبثت برهة تفكر في ماذا تعمل حتى حدثتها نفسها لشدة التأثر ان تخرج في اثر الخارجين لعلها تستطيع انقاذ عبد الله . فاستغاثت والدها وكان قد ذهب الى فراشه وخرجت واوصدت الباب وراءها كالمرة الاولى وبلال نائم امام عتبته وسارت نلمس ضفة النيل حيث ظنت انهم ساقوم وهي عزلاء لا سلاح معها ولكنها انما اندفعت الى الخروج بحميتها . فالتقت هناك بسعيد ودار ما دار بينها وبينه ووعدته بارسال عبدها بالصحيفة الى الكوفة كما تقدم . ثم عادت وحدها

فلما اشرفت على المنزل رأته هادئًا واهله نيام فانسلّت الى الدار فرأت عبدها بلالاً نائمًا فايقظته فهب من رقاده مذعورًا وكانت تعلم باستهلاكه في مرضاتها فدعته الى غرفتها فتبعها فلما دخلت به قالت « اتدري لماذا دعوتك »

قال « كلاّ يا مولاتي ولكنني رهن اشارتك »

قالت « اطيعني يا بلال »

قال « كيف لا وانا عبدك ورهن اشارتك »

قالت « اعلم ذلك ولكني اريد ان اعهد اليك امرًا خطيرًا فهل انت مستعد للقيام به حتى الموت »

قال « ان الموت هين في سبيل مرضاتك . فقولي يا سيدتي مرني بما تشائين فقد

www.marefa.org

قضيت عمري في خدمتك وانا اتوقع مهمة ترضيك واوالى القتل »

فالت « أسمعت ماحدث اليوم في عين شمس وما فعل ابن العاص بالخمسين هناك

قال « نعم وقد ارتكب اميرنا فيه امرًا عظيماً وقتل كثيرين »

قال « اما سرّك ما فعلة ابن العاص باولئك الملوثين »

قال « اذا كان ذلك سرّك فانه يسرني »

فالت « وما ظنك بي »

قال « لا اظنك راضية عن ذلك لعلمي انك على غير دعوة الامويين وان يكن سيدي والدك مسهلكًا في سبيل التشيع لهم »

قالت « وكيف عرفت ذلك »

قال « انت تحسبيني سادجًا وقد قضيت في خدمتك اعوامًا طوالاً واطلعت على مكنونات قلبك وانت لا تعلمين . واما الآن وقد دلعتني الى التصريح فاقول لك اني اعلم غرضك ولم يخفني شيء مما تقاسينه في سبيل الدفاع عن الامام علي . . . وخصوصًا في بالامس وانت لا تعلمين الاّ اني احرس هذا الباب الموصد وأكتم خروجك منه عن والدك »

فاستغربت خولة قوله وأكبها سرت بما سمعته منه وقالت « وما مرادك بما حدث بالامس »

قال « انظنين اني غافل عما قاسيتيه في سبيل انقاذ ذلك الشاب الغريب الليلة وقد كان في جملة من خيف عليهم الوقوع في شراك ابن العاص فانقذتي بخبرتك »

فحققت انه كان يراقب حركاتها وسكناتها . فتهلل قلبها سرورًا فقالت « اما والحال على ما ارى فاخبرك ان ذلك الشاب مسافر الآن الى الكوفة واريدمنك ان تذهب اليه بالجملين الى مصنع المقطم فاذا التبست به هناك سر في ركابه الى الكوفة واحذر ان يدري بك احدٌ او ان تذكر ذلك لأحد »

ولم تتم كلامها حتى تحوّل مسرعًا بهم باعداد الجملين فاسترجعته وقالت « قف يا بلال بورك فيك واسمع كلمة اخرى اقولها لك »

فعاد وقال « لبيك يامولاتي قولي ما تشائين »

قالت « انك ذاهب مع هذا الشاب الى الكوفة لانقاذ الامام علي من القتل وستعلم

www.marefa.org

تفصيل ذلك منه . واما الآن فيكفيني ان اوصيك به خيرًا واذا انتما فرغتما من تلك المهمة أرجع به الينا فاني اكره ابن ملجم الذي يريد والدي ان يجعله خطيبًا في ... هل فهمت ؟ »

فضحك بلال وهز رأسه ولسان حاله يقول « فهمت »

فقالت « سر بحراسة الله وكنت اود ان اريدك بيانًا ولكن الوقت ضيق فاذهب وعد سالمًا باذن الله واحذر ان تبوح لاحد بما سمعته او رأيته »

فخرج وهو يلتفت اليها كأنه عاتب على ما ظهر من ضعف ثقتها بامانته ولكنه كان يباسم فرحًا بما كلفته به . فاعدّ الجملين وخرج الى سفح المقطم وصحب سعيدًا كما تقدم

الفصل الثالث والسبعون

﴿ نفوذ الحيلة ﴾

اما هي فلما خرج بلال عادت الى غرفتها واوصدت الباب وراءها واستلقت في فراشها وقد تعبت ما قاسته في ذلك اليوم من المشاق وكان يجب ان تنام لولم يشغل خاطرها ما شغله من الامور الهامة . ويخال ذلك شعور داخلي جديد لولا الحشمة وإعظامها بانقاذ الامام لصرخت به . ألا وهو انعطافها الى سعيد لما آنست فيه من الرغبة في انقاذ الامام علي واستهلاكه في سبيل ذلك مع ما في قلبها من النفور الشديد من ابن ملجم حتى كرهت والدها من اجله واجل تشيعه للامويين

وقضت بقية تلك الليلة لم يغمض لها جفن وهي تارة تفكر في سعيد وقلبها يخفق انعطافًا له وخوفًا من فشل مهمته . فجعلت تقدّر الوقت اللازم لسفره الى الكوفة فرأت انه اذا اسرع لا يلبث الوصول اليها قبل الاجل المسمى للقتل . وكان يعترض تسلسل افكارها خوف ما ربما يطرأ عليه في الطريق فيعيق وصوله فتتبعد فرائصها فرقًا من قتل الامام . وفي قتله ضربتان كبيرتان الاولى موته والثانية عود ابن ملجم اليها . ولكنها كانت تتعزى بان ابن ملجم اذا ظفر بقتل الامام لا يجبو هو من القتل . ثم

www.marefa.org

تحول ذهنها الى والدها وخروج عبدها بالجملين واعدت اعذارًا تتحلها في سبب خروجهِ فلم تجد خيرًا من ان تدعي فراره الى حيث لا تعلم

وكان والدها قد افاق في اثناء الليل وهي غائبة فجاء غرفة ابنتهِ ليرى حالها فرأى الباب موصدًا فسأل العبد عن ذلك « فقال ان سيدتي باتت مبغوتة وقد تولاها الخوف على غير المعتاد في تلك الليلة فاوصدت الباب واوصتني ان انام خارجًا »

فقال والدها في نفسهِ « مسكينة خولة يظهر ان رعبها من ذلك الحبس لا يزال مؤثرًا عليها » وعاد الى فراشهِ وهو مقتنع بصدق ما قالهُ العبد

وفي الصباح جاء الغرفة فرأى الباب لا يزال موصدًا ولكن بلالاً ليس امامهُ فقرعهُ فنهضت خولة وفتحتهُ وهي تتظاهر بالذبول لتطول استغرابها في النوم . فاستكها والدها بيدهِ ووضع يدهُ على كتفها وهو يقول « العلقم لا تزالين خائفة يا بنية »

قالت « كلاَّ ياسيدي اني تحت جناحك في امن وطمأنينة »

فقال « بورك فيكِ تعالي تناولي الطعام » ثم نادى بلالاً فلم يجبهُ احد فقال « اين بلال »

قالت « لا أدري لعلهُ خرج الى السوق في غرض »

فصبر هنيهة فلم يحضر فارسل بعض الخدم في اثرهِ فلم يقف لهُ على خبر . ثم علم بضياع الجملين ولما انقضى معظم النهار ولم يعد بلال ولا الجملان اشكل عليهِ امرهُ

فقالت خولة « يظهر انهُ اخذ الجملين وفرّ » فهمت الناس في اثرهِ الى ضواحي المدينة فلم يبلغهُ احدٌ بخبرٍ فصدق فراره

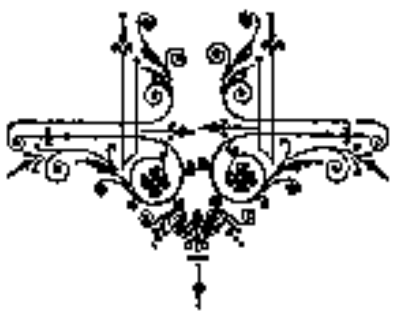

www.marefa.org

الفصل الرابع والسبعون

﴿ خولة ووالدها ﴾

أما خولة فلما تحققت امتلاء الحيلة على والدها عادت الى هواجسها وتذكرت المهمة التي سار فيها سعيد واخذت تفكر في امره وهي خائفة ان يتأخر في الطريق عن الوقت المعين لقتل الامام فيذهب سعيها هباء منثورًا . ولكنها كانت مع ذلك مطمئنة الخاطر بنجاتها من ابن ملجم لعلمها انه وان فاز بقتل الامام عليّ فلا يخلو من سيوف اشياعه وهم كثار في الكوفة

على انها باتت منشغلة الخاطر على سعيد بعد ان فرغت من تدبير الحيل في ارساله لانها لم تحقق وقوعها من نفسه مثل وقوعه من نفسها وودت لو يسرع عبدها بلال بالرجوع لترى ما تمّ . ولكنها حسبت الايام الباقية ربما يرجع فرأت الاجل لا يزال بعيدًا فصبرت نفسها ولبثت تنتظر ما يأتي به القدر

وبعد مضي ايام من ذلك جاء والدها ذات مساء بعد عودته من جولته وعلى وجهه امارات البشر فتوسمت في طلعته خيرًا جديدًا فالتفت الى استطلاع ما في خاطره لعلها تعلم منه شيئًا يهمها . فلما جلسا الى المائدة احتالت في اجتذاب حديثه فذكرت له ما مرّ في تلك الاثناء من القبض على اولئك العلويين وتمنت في استرضائه فابتسم والتقمة ملء فيه وكاد يريد ان يقصّ عليها قصة بعد ان يزدرد تلك اللقمة . فكفّت هي عن الطعام ولم تعد تستطيع صبرًا على سماع الحديث

فلما ابتلع اللقمة نضح وسح شاربه ولحيته والتفت اليها وقال وهو لا يزال يبتسم « لقد عودتني يا خولة ان احاذر الكلام بين يديك في ما اخشى افشاءه »

فتظاهرت بالاستغراب وقالت « اني لأتعجب يا ابتاه من سوء ظنك بي مع علمك اني فتاة محتجبة في هذا البيت لا اعرف من اهل الدنيا احدًا سواك فكيف تقول انك تحاذر ان تذكر بين يديّ ما تخاف افشاءه . اني سرّ بحت به الى فاطمة » قالت ذلك وكادت تجهش بالبكاء

فأثر والدها من منظرها ولكنه عاد فابتسم وقال لها « لم اقل انك تبوحين

www.marefa.org

بالسر ولكنني .... » وسكت

فقالت « ولكن ماذا يا ابتاه انك والله ظالمني بظنونك ويسؤني ان لا يكون لي نصيب من الثقة حتى ولا من والدي الذي لا اعرف احداً سواه »

قال « لا اخفي عنك يا ولدي انني كنت ولا ازال اعتقد انك ميالة الى الاعداء .... و... »

فابتدرته وهي لتظاهر بالبغتة والاستغراب وقالت « واي اعداء تعني ... اعوذ بالله من هذه التهم ... كيف تقول ذلك ... » وتنحت عن المائدة واظاهرت بالاعراض

فقال « اعترف لك اني ارتاب ميالة الى حزب العلويين وانت تعلمين ان علياً حاربنا وقتل منا جماعة كبيرة في النهروان وغيرها .. ولا اومنك لانعطافك نحوه لانني كنت انا ايضاً معلك وقد كنت في جملة المشيعين له . ولكنني اصبحت بعد واقعة صفين ناقماً عليه لما ارتكبه في مسألة المحكمين بحيث اخرج الخلافة من بيته وجعل لمعاوية يداً دونه .... »

الفصل الخامس والسبعون

﴿ خبر جديد ﴾

فادركت ايها اذا اقرت بحقيقة ميلها الفت نفسها في مهلكة فلم ترَ خيراً من المبالغة في الانكار فقالت « وما ادراك اني ما زلت على القديم اذا كنت قد عدلت عنه ومن أكون انا حتى اخالفك في مثل ذلك »

قال لو لم تكوني كذلك لما كان ثمت داع لتمنعك عن القبول بابن ملجم زوجاً واست تعلمين ان هذا الرجل قد عاهد نفسه على القيام بعمل لم يقدم عليه احد غيره من المسلمين في هذا العصر . انه كما تعلمين قد تعهد بقتل علي .... »

فاجفلت عند سماعها ذلك التعريض وحدثتها نفسها ان تبوح بحقيقة ميلها ولكنها خافت ضياع الفرصة وهي انما افتتحت الحديث لتستطلع ما في نفس والدها فانكرت نحته كل الانكار وقالت « ان ما تنسبني اليه من امر ابن ملجم ظلم يا مولاي فاني لم

www.marefa.org

ارفض هذا الرجل وهو لا يزال خطيبي متى عاد من رحلته هذه . وكيف تقول اني لم اقبل يده وانا لم افه بكلمة في هذا الموضوع »

فضحك والدها وهو يتشاغل بتقطيع قطعة من الضأن بين يديه وقال وهو ينظر الى تلك الفتاة « نعم انك لم تفوهي بكلمة ولكنني فهمت من مجمل حالك انك غير راضية به » وكان قد اتم تقطيع اللحم فقدم لها قطعة فابت ان تتناولها واعرضت دلالاً وحمقاً

فقال لها « خذي كلي يا خولة ولا يسوءك قولي اذا كان صحيحاً »

« قالت وهو انما ساءني لانني ارائي به مظلومة واظنك بناء على هذه الظنون قد عاملتني معاملة العدو فحبستني في ذلك البيت المظلم سامحك الله »

قال لقد اذكرتني حديث تلك الليلة وما كان فيها من الاهوال وهو الامر الذي جئت لاقص خبره عليك ولكنني لا اقول كلمة قبل ان تصدقيني الخبر هل انت على ولاء والدك لأمرين بأمره . ام ساخطة »

فتظاهرت بالغضب وقالت « اني لا اراك بهذه الظنون الاّ تريد ان تبعثني على الشكوك وتلجئني الى الانحراف وانا لا علم لي بما وراء هذا البيت ولا ابغي من هذه الحياة غير مرضاتك »

فمدّ يده وهو لا يزال قابضاً على قطعة اللحم وقال لها « خذي اذاً هذه اللقمة واصغي لما اقوله لك »

فتناولت خولة اللقمة من يده وقالت « تفضل » ووضعت اللقمة في فيها وهي لا تعرف كيف تمضغها لانشغال خاطرها بما ترجو سماعهُ من والدها فاذا هو يقول « اعطي يا خولة ولا ازيدك علماً ان اميرنا حفظهُ الله علم منذ ايام باتيان اثنين من الكوفة لمخابرة بعض كبار العلويين الذين كانوا يجتمعون سرّاً في خرائب عين شمس فبعث جنداً من شرطته فقبض عليهم وهم في مجتمعهم تحت الارض الا تعلمين ذلك ؟ »

قالت « لحظت شيئاً من بعد حدوثه »

www.marefa.org

الفصل السادس والسبعون

﴿ عبد الله حيّ ﴾

قال « فاعلمي اننا وجدنا في جملة المقبوض عليهم في تلك الليلة واحداً من ذينك الاثنين اسمهُ عبدالله . واما الثاني فانهُ نجا ولا ندري من هو والظاهر انهُ لم يكن في ذلك الاجتماع لانهُ عمر كان طويلاً . اما الاول فانهُ سيق في جملة من سيق تلك الليلة الى دار الامارة . وربما بلغك ان الامير عمرًا رأى ان يقتل اولئك المقبوض عليهم وقد كنت انا في جملة من اشار عليهِ بذلك مخافة الفتنة اذا ظلوا أحياء . فأمر عمرو باغراقهم في النيل وعبدالله معهم وقد عدت انا من حضرة الامير ولم يتهيأ لي لارسالهم الى النيل وعلمت في الغد انهم اغرقوهم »

فلم ترَ خولة بجديثهِ شيئًا لم تكن تعرفهُ ولكنها علمت ان الحديث لم يتم فصبرت نفسها وتظاهرت بخلو الذهن من هذا الموضوع وفي نيتها الاستغراب

اما هو فقال « وما زلت اعتقد انهُ اغرقهم جميعاً الى اليوم وانا في منزل الامير فرأيت في بعض جوانبهِ غرفة مقفلة كنت كلما جئتهُ في هذه الايام اراها مقفلة فلم اهتم بشأنها فلما كان عصر هذا اليوم دخلت على الامير وانا عائد من عملي فذكرت لهُ امر ابن ملجم ومهمتهِ وطفقنا نتحدث في ما عسى ان يكون من امرهِ في الكوفة . فلما وصلنا الى ذلك رأيتهُ يبتسم وتوسمت في وجههِ خيرًا فرغبت اليهِ ان يطلعني على ما حدث وانت تعلمين مالي من الدالة عليهِ . ولكنني رأيتهُ يتردد في الامر فالححت عليهِ فقال لي « اتعلم من هو المقيم في هذه الغرفة »

قلت « لا يامولاي لا اعلم وليس من شأني السؤال عما في منزل الامير »

فضحك عمرو حتى رقصت لحيتهُ وقال « اني حبست فيها رجلاً سينقذ حياتي من القتل »

فعجبت لقولهِ واستغربت ما يشير اليهِ ولبثت انتظر الافصاح فقال لي « اعلم ياصاحبي اني حبست في هذه الغرفة عبدالله الاموي الذي كان قدومهُ سببًا بقتل العلويين منذ ايام »

www.marefa.org

فلما سمعت خولة ذكر عبدالله علمت انه رفيق سعيد وخفق قلبها فرحاً بنجاته من القتل وأكبها استغربت سبب تلك النجاة على انها ظلت مجاهلة وهي تتوقع سماع نتيجة الحديث ووالدها يشاغل عن اتمامه بالمضغ والابتلاع وكان اكولاً

فلما خلا فاه من الطعام عاد الى الحديث فقال « فاستغربت ما يقوله وقلت ما الذي عساه ان ينجيك يا من الموت » فاخبرني قائلاً « ان ابن ملجم خطيب خولة الذي قلت لي انه عازم على قتل علي انما هو مؤامر رجلاً آخر على قتلي وانهما تواعدا على قتل علي وعمرو في يوم واحد » . قال عمرو — « فلما قال لي عبدالله ذلك استغشيته ولم اصدق قوله لغرابته ولعلمي ان ابن ملجم من رجال دعوتنا وخصوصاً بعد ان خطب ابنتك فقلت في نفسي لو صح حديث هذا الاموي لما خفي ذلك الحديث عنك وانت لو علمته ما كتمته عني فلم ار مجيراً من ان استبقيه واحبسه في منزلي ريثما يأتي الاجل المضروب لقتل هذين الاثنين وهو يوم ١٧ رمضان فاذا تحققنا قوله افرجنا عنه والاّ ضربنا عنقه »

قال والد خولة « فلما سمعت قول عمرو استغربته كل الاستغراب وخفت ان يكون عمرو قد ساء الظن بي فاقسمت له الايمان المغلظة اني لم اكن عالماً بخبر عزم ابن ملجم وسألت عمراً هل عرف اسم المؤامر على قتله . فقال ان ذلك الاموي لم يكن يعرف الاسم . ولم اعد اعرف يا خولة كيف اؤكد له صدق اخلاصي له مخافة ان يبقى على سوء ظنه بي فبالغت في اظهار الغضب من ابن ملجم وقلت له اني لو عرفت خداع هذا الرجل ما رضيت به صهراً واما منذ الآن فمحرمة من خولة فلما قلت له ذلك التفت اليّ وقال « لا يكفيني هذا الوعد واما اعرف خولة واعرف مقامها وطالما كنت اريدها لاحد اولادي واما الآن فاني اطلب اليك اذا صدق هذا الأموي بقوله ان تكون ابنتك خولة عروساً له لان الرجل اموي وكان على دعوتنا ولكن بعض الناس اغروه على التشيع لعلي »

www.marefa.org

الفصل السابع والسبعون

﴿ عريس جديد ﴾

فلما وصل الى ذلك الحد علمت خولة ان عبد الله لا يزال حياً واطمأن بالها عليه وعلمت انه لم يذكر خبر المؤامرة الثالث على قتل معاوية مخافة ان يرسل عمرو بخبره الى الشام فيخبر معاوية بذلك

ولكنها لما سمعت ذكر خطيبها له اطرقت حياء وتظاهرت بالسكوت وقلبها يخفق فرحاً بنجاتها من ابن ملجم . ولكنها تذكرت حبها سعيداً وما بعثت اليه مع عبدها بلال فاحتارت في امرها . على انها لم يسعها الا كتمان كل ذلك والتظاهر بالاستغراب فقالت وهي عهز رأسها استغراباً « اصحيح انهم تآمروا على قتل عمرو ايضاً انها لصدفة غريبة »

قال « بالحقيقة انها صدفة يندر مثالها ولكن ما قولك باقتراح عمرو عليك »

فسكتت ولم تجب

فقال « ما معنى سكوتك وانت تعلمين اننا لا نستطيع رد ذلك الاقتراح »

قالت دع ذلك الآن فانه ليس بالامر المهم وما خولة الا جارية حقيرة لا تستحق هذا الاهتمام ولنصبر الى الاجل المسمى لنرى ما يكون »

فقال « اننا صابرون ولكني ارجو ان يكون خطيبك الجديد اهلاً لك وليس مثل ابن ملجم الخائن على اني ادركت من خلال حديث عمرو ان عبد الله رجل صادق ومع ذلك اسوي ربي في منزل الخليفة عثمان ولكنهم اغروه على التشيع لعلي ثم عاد الى ما كان عليه . واذكر اني رأيته ليلة قبضوا عليه فاذا هو شاب في مقتبل العمر واظنك سترتاحين اليه »

فظلت خولة ساكتة فحسب والدها سكوتها قبولاً فسكت وكانوا قد فرغوا من الطعام فنهض ونهضت خولة فغسلت يديها والتفتت لتفاذفها المواجس وهي تفكر في ما سمعته من والدها وتحسب نفسها في حلم

فلما خلت بنفسها تذكرت سعيداً وحبها له وجعلت تتفاذفها المواجس وهي

www.marefa.org

تخاف ان يحملها عمرو على الاقتران بعبد الله قبل ان تعلم مصير سعيد في سعيه الى الكوفة وقد اعجبت بدهاء عبد الله لانه باح بخبر المؤامر على قتل عمرو وكتم امر المؤامر الثالث . وهو معذور في ما اباح به انقاذاً لحياته . ولكنها خافت ان لا تتم نبوءة فلا يأتي المؤامر في الاجل المعين فيقتل عبد الله . على انها كانت اذا تصورت صدق نبوءته وانجاته من القتل يخفق قلبها لاضطرارها عند ذلك الى القبول بعبد الله زوجاً لها وهي تحب سعيداً . فهاجت اشجانها وارتبكت في امرها وجعلت تبحث عن طريقة تنجو بها من هذا التردد فلم تر خيراً من الصبر لما يأتي به القدر

الفصل الثامن والسبعون

﴿ نجاة عمرو ﴾

اما عبد الله فكان قد جنح الى هذه الحيلة املاً بالحياة وهو مع ذلك يخاف ان لا يتأخر المؤامر عن الوقت المعين لسبب من الاسباب فيذهب سعيه عبثاً

وظل عمرو اياماً لا يخرج للصلاة فلما كان فجر ١٧ رمضان شكا من بطنه فلم يخرج واتفق خروج خارجة بن ابي حبيبة صاحب شرطته للصلاة وهو لا يعلم بخبر المؤامرة ولا امر عمرو بالخروج ولو علم بخروجه لمنعه . على انه لم يكن يحسب المؤامر يأتي لقتله في الفجر وهو يصلي بل كان يحسب انه يراقب خروجه في اثناء النهار الى بعض الاماكن . ولكن منية خارجة عاجلته فخرج في فجر ذلك اليوم الى الجامع ليصلي في الناس ولم يكد يبدأ بها حتى هجم عليه رجل من الوقوف وهو يحسبه عمراً فضربه بالسيف فقتله [1] فقبضوا عليه وساقوه الى عمرو فلما رآه عمرو بغت وصاح به « ويلك قد قتلت صاحب شرطتي قتلت خارجة بن ابي حبيبة » فاجابه الرجل بقلب لا يهاب الموت « والله اني كنت احسبك انت »

فقال له عمرو « اردتني واراد الله خارجة . من انت يا غادر »

---

(١) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

قال « الى عمرو بن بكر »

قال « ومن انت »

قال « من تميم »

فقال اقتلوه فقتلوه وقد اسفوا لقتله خارجة ولكن القدر كائن لا يبقى

اما خولة فانها باتت ليلة ١٧ رمضان على مثل الجمر وهي تتوقع ان تسمع خبرًا جديدًا في اليوم التالي ولم تكن تتوقع ان يفعل المؤامر فعلته في الفجر فاصبحت وقد ضجت القسطاط بخبر خارجة وجاءها ابوها فاخبرها بو ولسان حالو يقول « لقد صمت القوال عبد الله فحا هي للاقتران بو »

اما هي فانها تحققت وقوع المحظور ولم تعد تدري ماذا تفعل وندمت لانها لم تخرج من بيت والدها سرًا قبل ذلك اليوم على انها لم تكن من الجهة الاخرى موقنة ببقاء سعيد على عهدها او انهُ رضي بها . وكانت لما لقيته في القسطاط لم تخفق مبلة نحوها . فوقعت في حيرة ولكنها كانت من الجهة الاخرى في قلق على الامام علي لاتدري هل نجا كما نجا عمرو ام ذهب فريسة ابن ملجم ووددت لو ان عبدها يعود في ذلك اليوم بالخبر اليقين لتعلم كيف تتصرف

الفصل التاسع والسبعون

﴿ ضياع قطام ﴾

فلنعد الى سعيد وبلال في الكوفة فقد تركنا بلالاً يتأهب للقدوم على القسطاط وسعيد يفكر في ماذا يفعل بعده وكان قد امر بالذهاب الى القسطاط على ان يبقى هو هناك حتى يعود اليهِ بالخبر عن عمرو . ثم رأى ان المسافة بعيدة ربما لا يصبر عليها . فقال لهُ « لقد امرتك بالرجوع الى الكوفة ولكني ارى الاجل بعيدًا فاني شاخص الى دمشق فاذا سرتَ الى القسطاط واطلعت على ما جريات الاحوال وافني الى دمشق فاني اكون هناك في انتظارك في المسجد بعد عشرين يومًا سواء تمكنت من الفتك بقطام الخائنة ام لا ولكني اكون قد اطلعت على مصير معاوية »

www.marefa.org

فودعه بلال ومضى وصبر هو الى الفد فخرج الى الكوفة يلتمس بيت قطام فرآه مقفرًا ليس فيه احد فوقف عند باب الحديقة وجعل يتأمل بخلالها وطرقاتها ويفكر في ما مرّ له هناك من الاهوال وما طلي عليه من خيانة قطام غير مرة فشعر بضعفه وتذكر آخر مرة زارها في ذلك المنزل ومعهُ ابن عمهِ عبد الله فاسف لفقده وازداد به الميل للانتقام من قطام ففكر في امرها وفي المكان الذي عساها ان تكون قد انصرفت اليهِ فخطر له ان تكون قد سارت الى اهلها في جوار الكوفة فخرج للبحث عنها فلم يقف لها على خبر فمل البحث وخاف ان ينقضي الاجل الذي ضربهُ لبلال فيعود اليهِ في دمشق ولا يجدهُ فخطر لهُ ان قطامًا ربما سارت الى دمشق تلتجئ الى معاوية بعد ان نجحت في قتل مناظرهِ علي فسار يلتمس دمشق على ناقة تسابق الرياح

اما قطام فكانت في الليلة التي وصل بها سعيد الى الكوفة قد علمت بقدومهِ من رجلان اذ عاد اليها بما دار بينهُ وبين بلال عبد خولة واحكى لها ما فعلهُ بلال من سرهِ وكيف كان ذلك سببًا في انكشاف امره لدى سعيد فلم يعد يصدقهُ ويذهب معهُ الى منزلها فخيفت على بلال وعلى سيدتهِ ومازج ذلك الخوف غيرة من خولة . لان قطامًا اللعينة مع كرهها لسعيد لم تكن تصبر على من يحبهُ وخصوصًا لما علمت ان خولة كانت عونًا على عرقلة مساعيها في قتل الامام علي فاضمرت لها السوء ولكنها شغلت عنها تلك الليلة بما كانت فيهِ من انتظار الفتك بعلي وكان ابن ملجم باتًا عندها . فلما كان الفجر خرجت هي وعجورها وعبدها وضربت قبتها في المسجد كما تقدم وفي ذلك من الجرأة والوقاحة ما فيهِ ولم تكن تخاف انكشاف حيلتها ولو تعمد سعيد ان يكشفها لما دبرتهُ من الحيلة في ايصال الصك بعد خروجهِ الى قبر صاحب الامام علي مع اباية المحتالة كما علمت

الفصل الثمانون

﴿ نجاة معاوية ﴾

فلما قُتل الامام علي على ما تقدم ورأت ان ملجم مقبوضًا عليهِ وكانت تتوقع له

www.marefa.org

ذلك من ذي قبل فرّت بعبدها وتجوزها الى مكان خارج الكوفة وقد شفت غليلها بقتل الامام . ولكنها مازالت ناقمة على سعيد وزادت نقمها عليه بعد ماعلمته من امر خولة فعوّلت على اللحاق بالنسطاط لتشي بها الى عمرو بن العاص لاعتقادها انه يقدّر عندها له حق قدرها لانها انبأته بجشع العلويين . وهي لا تشك انها بمجرد وشايتها على خولة وإتهامها لصار علي يقتلها عمرو اذا كان لايزال حياً . واذا كان قد قتل فتدبر حيلة اخرى . فلما خطرها ذلك استشارت ابابة سرّاً فاستحسنت رأيها وحرضتها على المسير الى الفسطاط واستشارت ريحان فقال لها اني في ركابك رحلت او اقمت فاشت على غيرتو بالفاظ ملؤها التملق والرياء واصبحت في اليوم التالي تلتمس الفسطاط على ان تمرّ بدمشق وتستطلع حال معاوية وما كان من امره بعد ١٧ رمضان حتى اذا كان قد نفذ السهم وقتل معاوية تحمل ذلك الخبر الى عمرو وتعرضه على الناس السلطان لنفسه

فلما وصلت دمشق سمعت ان المؤامر على قتل معاوية واسمه البرك بن عبد الله التميمي الصريمي قعد لمعاوية في فجر ١٧ رمضان في مسجد دمشق . فلما خرج معاوية للصلاة شد عليه بالسيف فوقع السيف في الية [1] فسبق البرك الى معاوية فقال لمعاوية ان عندي خبراً اسرّك به فان اخبرتك فنافعي ذلك

فقال له معاوية نعم

قال ان أخاً لي قد قتل علياً هذه الليلة

فقال « فلعله لم يقدر على ذلك »

قال « بلى ان علياً ليس معه احد يحرسه »

فأمر به معاوية فقتل وجعل يطبب جرحه

فلما علمت قطام بنجاة معاوية لم يبق لديها الاّ الشخوص الى الفسطاط للايقاع بخولة

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الحادي والثمانون

﴿ عبد الله في دار الامير ﴾

اما عبد الله فانهُ مكث في محبسهِ وقلبهُ واجف مما قد يطرأ من تغيير خطة المؤامرة وقد عظم الاحتياط من ذلك فلما باح لعمرو بالسر اشترط عليهِ ان لا يطلع احداً عليهِ لانهُ اذا شاع وعلم المؤامر بهِ ربما غير خطتهُ فيتقدم الميعاد او يؤخرهُ فيظهر ذلك من عبد الله مظهر الكذب . وهذا الذي دعا عمراً لكتمان امر المؤامرة عن كل واحد حتى عن صاحب شرطتهِ . واما والدهُ خولة فقد كان من اكثر الناس تقرباً من عمرو واعظمهم غيرة عليهِ فكان عمرو يسارهُ في مثل هذه الشؤون ولولا رغبتهُ في معاقبتهِ على خيانة صهرهِ ابن ملجم ما كشف لهُ الامر

فلما كان ليل ١٧ رمضان اخذ القلق من عبد الله مأخذاً عظيماً لعلمهِ انهُ ليلتئذٍ بين الحياة والموت . فاصبح ذلك اليوم وهو لا يزال محبوساً لا نافذة في محبسهِ يطلُّ منها او يسمع ما يجري على انهُ سمع لغطاً لم يفهم منهُ شيئاً صريحاً فتربص حتى جاءهُ الخفير بالطعام على جاري العادة فاستفهمهُ فعلمَ انهُ باختصار فسرَّ ولبث الى مساء ذلك اليوم

وبعض العشاء جاء بعض رجال عمرو الى محبس عبد الله ففتح ودخل عليهِ فحلَّ قيودهُ ودعاهُ الى الامير فمشى في اثرهِ وقد انبسط وجههُ لما كان من نجاتهِ بعد ان كان في عداد الاموات . فقاده الرجل الى قاعة في صدرها عمرو بن العاص على وسادة وفي يدهِ درة (سوط) يلاعبها بين اصابعهِ وليس في القاعة احد سواه . فلما اشرف عبد الله على القاعة نزع حذاءهُ في الخارج ودخل توًّا الى مجلس الامير وقبَّل يدهُ باحترام فامسكهُ ابن العاص بيدهِ واجلسهُ الى جانبهِ وهو يقول بصوت منخفض « لقد كانت نجاتك على يدك فوجبت علينا كرامتك ولكن للاسف ان صاحب شرطتنا وقع في الشراك التي كانت منصوبة لنا ولو علمنا الساعة او المكان المعينين لتلك النعالة الشنعاء لاستطعنا تداركها او لو اطلعت خارجة على سر الامر فربما كان نجا بنفسهِ ولكنني لا اظنهُ كان يستطيع ذلك وهو لا يعلم الزمان والمكان المعينين »

www.marefa.org

فقال عبد الله « اعلم يا مولاي ان كتمان هذا الامر متوقف عليه حياتي اذ لو شاع خبر اطلاعك على هذا السر لغيّر المؤامر خطته فربما أخر موعده اسبوعاً او شهراً فكنت انا المقتول بدلاً من خارجة لانك نسيء الظن بي فتقتلني . ومع ذلك فهو القضاء يجري الى حيث لا نعلم » .

ولم يتم كلامه حتى دخل بعض الخدم يقول « ان في الباب ابا خولة »

فقال عمرو « ادخلوهُ »

فرجع الخادم ودخل ابو خولة وهو صاحبنا والد خولة ولم يكن هو من مصاف الامراء ولا من القواد الانداد حتى تكون له تلك المنزلة عند عمرو ولكنهُ نال تلك الحظوة خصوصاً بعد ان اطلع عمراً على عزم ابن ملجم على قتل علي . ثم ما زال يتردد على دار عمرو ببطل ما في وسعه لخدمته فعدّه عمرو من اصحابه

فلما دخل ابو خولة القاعة حيّى وقبل ان يجلس قال له عمرو اغلق الباب ومر الخدم انا لا نريد احداً يدخل علينا . ففعل ودخل . فدعاه عمرو الى جانبه وعرّفه بعبدالله فاعجب ابو خولة بعبدالله لانهُ كان شاباً جميلاً مع نباهة وذكاء وسرّ لما درى عمرو من مصاهرته له . واما عبدالله فكان لا يزال خالي الذهن من ذلك

فلما جلس الثلاثة التفت عمرو الى عبدالله وقال له « لقد عرفتك بصاحبنا ابي خولة ولم أتم لك المعرفة فازيدك علماً انهُ من اعز اصدقائي وقد كتمت امر المؤامرة عن كل أحد سواه ولكنني اشترطت عليه شرطاً اظنهُ يعود عليك بالمنفعة وقد فعلهُ مكافأة لك على خدمتك لي »

فوقف عبدالله متأدباً وقال « يأذن لي مولاي بكلمة »

قال قل

قال « لا ارجو ان تحسب لي فضلاً بما بحت لك به فاني والحق يقال انما فعلتهُ استبقاء لحياتي فلا اظنني اغشُّ نفسي »

www.marefa.org

الفصل الثاني والثمانون

﴿ عبد الله وخولة ﴾

فاعجب عمرو بحرّية ضمير عبدالله وقال له « لم تزدني بهذا التبرع الاّ رغبة في مكافأتك ان ابن العاص لا يجهل قدر الرجال ولا هو ساديج لا يفهم انك لولم تقع بين يديه وتخبره بأمر الاجل ولا ترى لك مخرجاً بغير هذا الافضاء لما فعلته. ولكنني مع ذلك اشعر بجميل لك عليّ فأريد مكافأتك عليه وخصوصاً بعد ان رأيت من صدق لهجتك ما اكد لي انك لو كنت من انصارنا لكان لنا بك نعم النصير وانت على ما بلغني امري فليس تشيعك للعلويين معلولاً .. » قال ذلك وفي صوته غنة استفهام كأنه يستفهم عن سبب تشيعه فسكت عبدالله. فتم عمرو انه يريد الكتمان فغير الحديث وقال له « ولكنك لم تسألني عن المكافأة التي اعددتها لك »

قال « قلت لك اني لا استحق مكافأة فيها اكرمتني به كان فوق ما استحق »

قال عمرو « هل انت متزوج »

قال كلاّ يا مولاي

قال اعلم ياعبدالله ان في الفسطاط فتاة تحدث بجمالها وتعقلها اهل هذه المدينة هي ابنة صاحبي هذا (واشار الى والد خولة) ولا اخفي عنك انها كانت مخطوبة لعبد الرحمن بن ملجم وهو احد المؤامرين على قتل عمرو وعلي ولا ندري ما كان من امره اليوم فانه موعد القتل ... »

ولما قال عمرو ذلك تذكر عبدالله ما كان قادماً من اجله مع سعيد وكيف فشلت مهمتها فاحس كأنه تصبب ماء غالباً على ظهره ولكنه تجلد وصبر نفسه الى آخر الحديث

فاتمّ عمرو كلامه قائلاً ان خولة هذه كانت مخطوبة لابن ملجم على ان يقترن بها بعد عودته من الكوفة ولا ريب ان ذلك الخائن كان عالماً بتواطىء عمرو بن بكر على قتلي فكتم ذلك في قلبه وسار ولم يطلعني على شيء منه فاعتبرته شريكاً في قتلي فاحرمته من خولة ولي داله على والدها لانها بمنزلة ابنتي وقد طلبت منه ان تكون لك عروساً ومتى رأيتها تعلق اننا قد ازوجناك زهرة الفسطاط وخورة بنانها . ثم التفت

www.marefa.org

عمرو الى ابي خولة وقال « ولا تغلدنا فرطنا بخولة فان هذا الذئب من سلالة الامراء ويكفي انه اموي وبينه وبين الخليفة معاوية نسب قريب . اما ابن عم الخائن اذا عاد الينا فلا أبقاني الله ان ابقينه حياً . ولكنني لا اظنه الاَّ مشغولاً في دار ابن ابي طالب فاز في مهمته او لم يفز » قال ذلك والغضب بادٍ على وجهه

ففرح عبدالله بما نالهُ من الحظوة في عيني عمرو وارتاح لما بلغهُ عن خولة ولكنهُ مازال منشغل الخاطر على ابن عمهِ سعيد وما كان من امرهِ بعد ان فارقهُ في مسجد الفسطاط يوم اجتماع عين شمس . وحدثتهُ نفسهُ ان يسأل عمرًا عنهُ مخافة ان يكون قد وقع في ايدي رجاله ولكنهُ لبث ساكتًا يتردد وقد نسي اقتراح عمرو . فظنهُ عمرو غير راضٍ بهِ فقال لهُ « مابالك لم تحبب العلك لم ترض خولة والله اني ارضاها لاعزّ ابنائي »

فابتدرهُ عبدالله قائلاً « عفوك يامولاي كيف لا ارضى بما رضيتهُ انت لي وما سكوتي الاَّ لاني اعتبرت اقتراح الامير امرًا نافذًا لا خيرة لي فيهِ فماذا اجيب . اما اذا تعطفت في سؤالي فاني راضٍ ولكني ارجو ان تكون هي راضية بهذا الرجل الغريب »

فقال ابو خولة « ان خولة جارية بين يدي مولانا الامير ومايرضاه لها لا مندوحة لها عنهُ وانا وهي طوع ارادتهِ »

الفصل الثالث والثمانون

﴿ بقية الحديث ﴾

واستولى السكون على تلك الجلسة لحظة ثم التفت عمرو الى عبد الله فقال « وقد كنت اظنكما اتيتما جئتما معًا الى الفسطاط ولكنني لم ارَ سواك »

ولم يتم عمرو كلامهُ حتى علت البغتة على وجه عبدالله ونظر الى عمرو قائلاً « وهذا هو الامر الذي شغل بالي في اثناء حديث مولاي . ان رفيقي هو ابن عمي بل هو اخي وقد كنّا برعاية جئنا معًا الى هذه المدينة ولكنني بعت عين شمس وحدي وتركتهُ في المسجد على ان استطلع المكان واعود اليهِ فقبضوا عليَّ ولم اعد اعرف شيئًا عنهُ الى الآن فهل عثر احد من الشرطة عليهِ فقتلوهُ »

www.marefa.org

قال عمرو « لم اسمع عنه شيئاً ولا اخبرني احد بخبره والظاهر انه نجا بنفسه لما سمع بما وقع لكم في ذلك الاجتماع »

فاطمأنّ بال عبدالله على سعيد ولكنه ظلّ مشتاقاً لاستطلاع حقيقة حاله . فودّ لو انه يسير حالاً الى الكوفة فيستطلع كل شيء ويتحقق ما وقع للامام علي ولكنه خجل من ابداء رأيه وهو في مجلس عمرو فكيف يظاهر برغبته في شؤون علي مع علمه بما بينهما من المنافسة . فرأى ان يجعل الذهاب في اسراع البحث عن ابن عمه فقال « لقد اوضحت لمولاي ما انا فيه من انشغال البال على ابن عمي هذا فهل يأذن لي الامير بالانصراف الى الكوفة استطلع حاله ثم اعود واكون في خدمتك الى الممات فقد اولفني جميلاً لا انساهُ لك »

قال عمرو « ويكون ذلك بعد كتابة الكتاب . فاذا عقدنا لك على خولة وصرت من انصارنا سرا الى حيث شئت »

وكان عمرو لفرط دهائه وحسن سياسته قد ادرك ان رجلاً حرًّا صادقاً مثل عبدالله لا يفرّط فيه . لانه اذا اخلص الخدمة كان نعمة عظيماً . فلم ير لتقييد فليوخيرًا من ان يبادله بالجميل وان يزوجهُ ببنت صاحبه وهو يحسب خولة على دعوته فاذا كانت هي زوجته حببت اليه الرجوع الى حزب الامويين . لا سيما وهو لا يعلم بعد هل نجح ابن ملجم بمهمته في الكوفة ام لا . فلما اقترح على عبدالله كتابة الكتاب قبل السفر قبل عبدالله واطاع فضرب عمرو اجلاً لذلك اسبوعاً وقال « فنقيم عندنا في اثناء ذلك ضيفاً كريماً فاذا آن الزمن عقدنا لك على خولة ثم تنصرف للبحث عن ابن عمك »

فوقف عبدالله ثم جثا بين يدي عمرو وهمَّ بتقبيل يده وقال « لقد خجلتني بفضلك فما انا مستطيع الشكر على نعمتك » والتمس الخروج فاذن له

وخرج ايضاً ابو خولة وهو يكاد يطير فرحاً لما آنس من كرامة عمرو . ومرَّ النصيب الجديد لابنته فسار توًّا الى المنزل وكانت خولة جالسة هناك على مثل الجمر تتقاذفها الهواجس بعد ان تحققت نجاة عمرو وعلمت بما فرضهُ من زواجها بعبدالله . وهي مع حبها له تفضل البقاء على حب سعيد وهو اول من وقع في نفسها موقع الحبيب في احوال قضت بذلك . فلما كان المساء وابطأ والدها في الرجوع الى البيت انشغل بالها وليتت تنتظر عودته بفارغ الصبر لعلمها انهُ لابد من مروره بعمرو على اثر ما

www.marefa.org

كان من نجاتهِ في ذلك اليوم . وحدوث لابطائهِ الف حساب . واشد ما خافتهُ من ذلك الابطاء ان يكون سببهُ المداولة في امرها وامر عبدالله وهي لا تريد ذلك

الفصل الرابع والثمانون

﴿ البشارة غير السارة ﴾

فلما انقضى العشاء ومضى بعد ساعتان سمعت قرع الباب وعلمت انهُ قرع والدها فدقَّ قلبها دقات متسارعة وعلمت وجهها صفرة الوجل فظلت مستلقية على الوسادة في غرفتها ولم تمض برهة حتى فتح باب الدار . فتحوَّل والدها نوًّا الى غرفتها فقرعها فنهضت لتفتح لهُ وركبتاها تصطكان من الاضطراب . فلما فتحت لهُ الباب دخل والمصباح في يدهِ فوضعهُ على مسرجة وجلس اليها وعلى محياه امارات البشر والسرور وهو بحسب نفسهِ جاءها ببشرى عظيمة . فرآها مضطربة الحواس قلقة الخاطر مع انها كانت تحاول التجلد ولكن القلق والاضطراب غلبا عليها فقال لها « ما بالك يا بنيَّة ما الذي يزعجك »

قالت « لا يزعجني شيء ولكنني قلقت لغيابك وانا وحدي في هذا البيت لا ارى فيهِ احدًا غير الخدم »

قال وهو يبتسم « لقد دنا الوقت الذي لا تكونين فيهِ وحدك »

فتجاهلت مرادهُ وقالت « يظهر انك علمت بما اقاسيهِ من الوحدة فعوَّلت على ان لا تتركني وحدي »

فضحك لسذاجتها وقال لها « ليس هذا قصدي يا خولة ولكني اذكرك باقتراح الامير الذي اطلعتك عليهِ منذ بضعة ايام فانهُ قد تمَّ اليوم بعد ان صدق قول عبد الله الاموي فجمعني عمرو بهِ الليلة في داره فرأيتهُ شابًّا جميلاً عليهِ مهابة الامراء وقد تزين الشجاعة والانفة تجليان في وجههِ . ويكفيني ان عمرًا سحرهُ وبالغ في اطرائهِ امامي . فهذا هو خطيبك ومتى كتب الكتاب طبعًا لا تكونين وحدك »

ولم يتم كلامهُ حتى صبغ وجهها احمرار الخجل وظلت صامتة ثم اخذ العرق ينسكب عن جبينها كاللؤلؤ المنثور وهي مطرقة لا تنبو بكلمة

www.marefa.org

ولم يكن سبب اضطرابها مجرد الخجل كما ظن والدها ولكنها اصبحت آلة تتقاذفها الهواجس حائرة بين ان تطيع عواطفها او تطيع والدها وامرها . ولو انها لم ترمق الى سعيد بخبر حبها له مع بلال لكانت المحاسنة اقرب الى الحل واذا رفضت عبدالله رفضاً باتاً تغضب عمراً ووالدها . وهي مع ذلك لا تدري مصير سعيد ولا ما آلت اليه حالته بعد هجره من الفسطاط مع بلال ولم ترَ حلاً غير الاصطبار فصبرت حتى يعيد والدها السؤال فتستمهله

اما هو فلما آنس فيها ذلك الاضطراب حملهُ محمل الخجل وهو عادتهُ في الفتيات في مثل هذه الحال . فوضع يدهُ على شعرها المسدول على كتفها وقال لها « لا تخجلي يا بنية ان والدك يخاطبك وليس احد سواه وقد تمّ الامر على يد الامير وهو شرف كبير لنا كما تعلمين »

فاجابت وهي لا تزال تنظر الى الارض وقالت « وهل ضرب لذلك اجلاً »

قال « لقد ضرب اجلاً لذلك اسبوعاً »

قالت « فليكن ثلاثة اسابيع على ما ارى »

قال « ما الداعي الى هذا التأجيل فاني اخافهُ ان يغضب عمرو . فاطيعيني وانا حامل تبعة ذلك . فان عبدالله شاب يقدر مقالة وانا افتخر بمصاهرتهِ وليس هنالك محل للاعتراض » قال ذلك وفي كلامهِ نغمة الجفاء على عادتهِ معها اذا اراد الاصرار على امر فخافت اذا جادلتهُ ان لا تحسن العقبى فسكتت ثانية واظهرت الارتياح فلما رآها كذلك قال لها « بورك فيك يا بنية وبعد اسبوع تكون كتابة الكتاب وتتم معدات الزواج »

فظلت ساكتة وقد عوّلت على اتخاذ وسيلة اخرى للتأجيل

الفصل الخامس والثمانون

﴿ الخطبة الجديدة ﴾

اما عبدالله فانهُ خرج من مجلسهِ بالمقدس مكاناً يقيم فيهِ ولم يكد يخرج من دار

www.marefa.org

الامير حتى ادركه بعض رجال عمرو وناداه فعاد . فقال له « والى اين »

قال « الى الخمس مكاناً اقيم فيه »

قال « لقد اوصانا الامير ان نعدّ لك منزلاً في داره فانك ضيف عليه »

فازداد عبدالله امتناناً من عمرو وفرح بتلك الدعوة لانه غريب لا يدري كيف يذهب . وتبع الرجل الذي كلفه الى غرفة فيها مراش وغطاء وبعض الآنية وسأله هل يحتاج الى طعام فاعتذر وسار توًّا الى فراشه

ولما خلا بنفسه جعل يفكر بخباثة وصورة ابن عمه سعيد لم تبرح من خياله طول ذلك الليل . على انه اطمأن على حياته ولكنه مال بكليته الى استطلاع خبر مهمته ليدري ما عمّ للامام علي

وكانت ذكرى خولة تعترض هواجسه وود لو يراها ليستطلع ما يكون من حظه معها ولكنه لما تذكر اعتاب عمرو بها تحقق لياقتها على انه ما زال مشتاقاً لرؤيتها

ولما اصبح سار الى المسجد صلى الصبح وهو يتوقع ان يرى والد خولة لعلة يدعو الى منزله فيتفقد ذلك وسيلة لرؤية خولة ولو خلسة . وكان والد خولة قد مرّ بالجامع في ذلك الصباح عمداً لهذه الغاية فلقيه فسلم عليه ودعاه العشاء فقال له « اني في ضيافة الامير ولا يليق بي قبول الدعوة الاّ بعد استئذانه »

فقال « انا استاذنه عنك »

قال حسناً وافترقا . فمشى عبدالله في شوارع الفسطاط واسواقها فمرّ ببيت خولة وهو لا يعرفه . وكانت خولة قد اصبحت في ذلك اليوم وهي لا تزال قلقة البال فخرجت تمشي في الدار فوقع نظرها على عبدالله وهو مارٌّ ولم تكن رأته قبل ذلك الحين ولكنها استنتجت من لباسه وهيافته مع مشابهته سعيداً انه هو عبدالله فخفق قلبها في صدرها وثارت لاول وهلة ولكنها ارادت ان تتبين حالة فتفرس فيه وهو ماش فرآته معتدل القوام رشيق الحركة فارتاحت لرؤيته وسرّت به لمشابهته بسعيد ولكنها ما لبثت ان نفرت منه لما تذكرت انه سحرها من حبيبها ومازالت تتبعه بنظرها حتى توارى وهو لم يلتفت

الفصل السادس والثمانون

﴿ الزيارة الاولى ﴾

عادت خولة الى غرفتها وهي منقبضة النفس وقضت نهارها لم تذق طعاماً

ولما كان الغروب آن زمن رجوع والدها من شغله وكان الخدم قد اعدوا المائدة له ولضيفه وخولة لا تدري . وما عتم ان دخل الدار وتصبح على جاري عادته كانة ينبه اهل المنزل الى مجيئه . فتظاهرت خولة بارتياحها لقدومه ولكنها عولت على التهارض على انها ما لبثت ان رأت مع والدها شاباً عرفت انه عبدالله فخفق قلبها وغلب عليها الاضطراب وتوارت في غرفتها وقد بردت اطرافها

واما والدها فانة ذهب بضيفه الى غرفة الضيوف فتركة هناك وجاء الى خولة فرآها مستلقية على الفراش وقد امتقع لونها فتحفزت للنهوض وهي تتظاهر بالضعف . فقال « ما بالك يا خولة »

قالت لا باس عليّ غير اني اشعر بانحطاط وانحراف لا ادري سببه

فدنا منها وهمس في اذنها قائلاً « ليس لمثلك داع الى الانحطاط وقد جاء ابن ضيف عزيز »

قالت وهي تتجاهل « مالي وللضيوف اني لا استطيع النهوض ولا يطالب مني ملاقاة الضيوف »

قال « انا لا نكلفك ملاقاتهم ولكن هذا الضيف اصبح من اقربائنا ولا باس من ملاقاتهِ عملاً بامر الامير عمرو بن العاص »

فقالت « ولكني فقدت القوى . دعني امام الآن وسالاقيهِ في فرصة اخرى وانا مستعدة ان شاء الله »

قال « ولكني كنت اظنك اكثر رغبة مني في رؤيتهِ بعد ان قصصت عليك امر خطبتهِ لك . اليق بنا بعد هذه الخطبة ان نظهر له هذا الجفاء »

فتحيرت خولة ولم تدر بماذا تجيبهُ وهي تخاف غضبهُ لما تعلمهُ من سوء خلقهِ وسرعة حمقهِ فظلت صامتة

www.marefa.org

فامسكها بيدها وايبضها فوقعت بالرغم عنها وسارت في اثره وهي مطرقة فلما وصلا باب الغرفة وقف بها وقال لها « ضعي خمارك على راسك والزمي هذا الذلول واستقيلي الرجل بما يليق بامثالك لئلا يبلغ عمرًا عنا ما يدل على مخالفة رأيه فتقع تحت طائلة غضبه »

فرأت خولة من الحكمة ان تخلد وتصبر لئلا يحمق والدها فيسمعها ما يكدرها فمدت الى خمارها فوضعته على رأسها واصلحت ثيابها بما يليق ان تقابل به الضيوف وخرجت في اثر والدها حتى دخلا على عبد الله

الفصل السابع والثمانون

﴿ الزفاف الكاذب ﴾

وكان عبدالله قد لحظ من ابطاء ابي خولة في غرفتها انه يعتدعيها فاصبح مشتاقًا الى رؤيتها وهو لا يعلم ان يرى وجهها دفعة واحدة بما كان يتوقعه من جمالها ولكنه فضل ان يرى قامتها وتجمل حالها . فلما أشرفت على الغرفة وتبين جمالها واعتدال قوامها انفتح قلبه لها وحمد الله لتوفيقه الى مثلها بعد نجاته من الموت . فدخلت وجلست بما يجدر بمثلها في مثل هذا المقام وجلست على وسادة بجانب والدها . وكان عبدالله يسارق اللحظ اليها فلا يزداد الا اعجابًا . ولم تمض تلك الليلة حتى علق بها وقعت من نفسه موقعًا ساميًا لما آنسه من جمالها مع ما بدا له من ذكائها وتعقلها في اثناء الحديث بما يدر مثالة في امثالها من ربات الخدور . فخرج بعد العشاء وقلبه منعقل بخولة وقد ندم لتاجيل الاقتران

فمضى عبدالله في مثل ذلك بقية الاسبوع وهو يتردد على بيت خولة ويزداد تعلقًا بها . ولم يصدق ان آن يوم الزفاف . فدعا عمرو اليه وقال « اريد ان اعقد لك عليها في داري وتقيان عندنا حتى يتراءى لكما مفارقتنا » فعمل عمرو ذلك الماسًا لما عزم عليه من استقلاب عبدالله الى جانبه . فسرّ عبدالله بذلك واثنى على الامير ولما كان الوقت المعين زفت خولة الى عبدالله وكتب كتابها عليه على جاري العادة بمثله

www.marefa.org

وعبدالله اكثر الناس سرورًا بهذا النصيب ولولا ما يجول في خاطره من امر سعيد وغيابه مع قلقه على حال الامام علي لعدّ نفسه من اسعد خلق الله لانهُ آنس في خولة ما طالما تاقت اليهِ نفسهُ في النساء من التعقل والرزانة مع الجمال والذكاء.

ولما فرغوا من العرس وارتفض الاجتماع ادخلوا العروسين الى غرفة خاصة بهما

الفصل الثامن والثمانون

﴿ كشف النقاب ﴾

فلما خلا عبدالله بخولة تقدم لنزع الغطاء عن وجهها فامسكت النقاب ورفعة فاذا بها قد اعادتهُ الى ما كان عليهِ فظنها تداعبهُ على سبيل المزاح فضحك وقال لها « يظهر انك لا تحبين عبدالله »

قالت وهي مطرقة « يعلم الله اني لا أكرههُ »

فمد يدهُ الى النقاب ثانية وحاول رفعهُ فمنعتهُ . فاشتبه في امرها فامسك يدها وقال لها بلهجة الجد ونغمة الطرب العاتب « ما بال خولة تمنعنا ما احلهُ لنا الشرع ودعانا اليهِ القلب »

وكانت خولة واقفة بجانب الفراش فابتعدت عنهُ واسندت ظهرها الى الحائط وهي تبالغ في ارسال النقاب وظلت مطرقة ولم ترد جوابًا

فاستغرب عبدالله سكوتها وتمنعها على هذه الصورة وظن في الامر خديعة فاظهر الجد وتبعها وهو لا يزال قابضًا على يدها حتى وقف بجانبها وقال لها « ما الذي اراه يا خولة ؟ ما الذي تحدثك بهِ نفسك ؟ ان كنت انما تفعلين ذلك لمجرد الحياء فهو خلقٌ لا محل لهُ وقد عُدْتُ كنا بدا بحضور امير مصر وكبار الاعيان والامراء . وان كنت رضيت بي مكرهة وانت تحبين سواي قولي »

فلما قال ذلك رفعت راسها اليهِ وجذبت يدها من يدهِ بلطف وقالت « نعم اني احب سواك ولكنني قلت لك اني لا اكرهك بل احبك محبة الاخ لا محبة الزوج »

فبهت عبدالله وعلتهُ الدهشة وكاد الغضب يغلب عليهِ لو لم يصبر نفسهُ ريثما

www.marefa.org

يكشف له سبب تمنعها . فنظر اليها نظر الغاضب وقال « لقد رابت منك العجب والعجب ما اراه احتقارك اياي يا لم اكن الوقعة منك بعد ان كتب الكتاب . علاّ كشفت لي عن سبب ذلك ؟ »

قالت وقد امسكت القناب وازاحته عن وجهها « اني لا اعتبر هذا الحجاب واجباً بيني و بينك ولا انا مخالفة من اطلاعك على ما في ضميري ولكني اسالك سؤالاً اذا اجبتني عليه بحثُّ لك بسر الامر »

فمال بكليته اليها وقد اعجبته جسارتها وحريتها ولم يزده كشف القناب الا احتراماً لها فقال « اسألي فاني مجيبك »

قالت « كيف رضيت بعقد قرانك وابن عمك غائب »

فقال « وأي ابن عم تعنين »

قالت « اعني ابن عمك سعيداً الذي جئت معه الى القسطاط ألا يهمك ان تعرف ما آلت اليه حاله »

الفصل التاسع والثمانون

﴿ استطلاع السر ﴾

فاستغرب ذلك منها ولم يكن يعلم اطلاعها على شيء من ذلك فقال « من اين لك ان اعرفي ابن عمي وما جئت من اجله القسطاط »

فتهدت وقالت « عرفته بقدر من الله واني اعجب من نسيانك تلك المهمة التي جئتنا من اجلها . هل تظن الامام عالماً فيما من القتل ؟ »

فازداد عبدالله استغراباً ونسي ما كان يعد به نفسه من قربها وهاجت به الشجانة وتذكر ابن عمه فقال « لقد ادهشتني يا خولة بما سمعته منك فافصحي عما في ضميرك واخبريني كيف عرفت ابن عمي وما العلاقة بينه و بين تلك الليلة »

قالت « اعدني بالكتمان وحفظ اللسان »

قال « نعم اعدك وعداً صادقاً فافصحي ان لم يبق في صبر على هذه الرموز »

www.marefa.org

فنهدت وعلت وجهها حمرة الخجل وهمّت بالكلام فارتج عليها وعبد الله يتأمل ملامحها ويراقب ما يبدو منها وظل صامتاً فلم يسمع منها شيئاً . فقال لها ياالله « لا تطيلي السكوت فقد نفد صبري قولي ما بدا لك فرجي كربتي »

قالت « اقول ولا اخفي لومًا الي احببت سعيدًا قبل ان اراك وهو احبني على ما اظن وحبنا مؤسس على اشتراكنا في الاستهلاك بسبيل الامام علي . وقد سار سعيد غد الليلة التي اغرق بها عمرو اصحاب عين شمس وهو يظنك في جملة الفرق . ولا اظنه اذا عرف بقاءك حياً الاّ طائرًا من الفرح » وقصت عليه حديثها مع سعيد من اولهِ الى آخرهِ

ولم تكد خولة تتم حديثها حتى استولت الدهشة على عبدالله وخيل له انه في منام ولما تحقق ان خولة تحب سعيدًا وقد آنس منها ذلك الثبات في حين احس لساعتهِ انه لم يبق له حق في زواجها وازدادت هي رفعة في عينهِ فقال لها « اعلمي يا خولة انني من هذه الساعة اعتبرك اختًا لي واني مساعدك على اقترابك من سعيد فانهُ بمنزلة اخي . وقد أوصيت بكفالتهِ وصية مقدسة ولقد احسنت بايصالهِ لي من حقيقة حالك وعليهِ فاني مسافر في الغد الى الكوفة لابحث عنهُ واستطلع ما تمّ للامام علي مع ذلك الغادر »

الفصل التسعون

﴿ الوفاق التام ﴾

فابتدرتهُ خولة قائلة « لا تعجل يا عبد الله ان ذهابك ذاهب عنّا لانا لانلبث بعد قليل ان نسمع الخبر من عبدي بلال الذي رافق سعيدًا الى الكوفة فقد اوصيتهُ بالعودة حالاً واظنهُ يصل الينا بعد ايام ونرى ما يكون . واما الآن فاكتم ما دار بيننا واجعل انك زوجي ريثما نرى ما يكون »

فالتفت عبد الله اليها وقد ازداد اعجابًا بحصافتها وثبات جاشها وقال « اني اهنئ اخي سعيدًا بهذا النصيب وارجو ان يكون قد نجا من مكائد اولاد الحرام » أراد

www.marefa.org

بذلك قطاماً فانه ما زال يسيء الظن بها وقد ادرك انها هي التي وشت بها الى عمرو بن العاص

فقالت « اني اتوقع رجوع بلال لأسمع منه ما آلت اليه حال الامام علي ومعاوية هل نجا احد منهما . اما عمرو فقد نجا والفضل في ذلك راجع اليك . . »

فقال « ولكنك تعلمين اني انما بعثت بذلك لعمرو التماساً للبقاء ولم اذكر له المؤامرة على قتل معاوية لئلا يبعث اليه بمن يحذره فينجو »

قالت « اني لم املك قط ولكن هذه ارادة المولى . فالآن لا بد من التربص فامض الى فراشك وإني متوسدة هذا البساط »

قال « لا والله انك لا تنيمين الا على الفراش وانا اولى بهذا البساط »

وبانوا تلك الليلة وقد سرّت خولة بنجاتها مما كانت تخافه . واما عبدالله فانه بات معجباً بخولة كل الاعجاب وقد اسف لخروجها من قبضته بعد ان عرف فيها هذه الخصال . ولكنه لم يأسف لانها ستكون نصيب اخيه . وقضيا تلك الليلة يتمثال هذه الهواجس ولم يناما الا قليلاً

واصبحا في اليوم الثاني والناس لا يعلمون الا انهما زوج وزوجة وظلا متنعمين في دار الامير حتى قضت خولة دنو الوقت الذي كانت تتوقع رجوع بلال فيه فالتمست المضي الى بيت والدها مخافة ان يأتي بلال في اثناء غيابها فيطرده والدها او يتهدده ولا يراها هناك فيعود من حيث اتى

فوافقها عبدالله واستاذنا عمراً في الذهاب الى هناك فاذن لها فاستقبلها والدها بالترحاب

الفصل الحادي والتسعون

﴿ قدوم بلال ﴾

ولم يمضِ يومان على مكثها في بيت خولة حتى قدم بلال وكان وصوله الفسطاط في اثناء النهار ووالد خولة في حانوته . ودخل بلال الفسطاط متنكراً فمرّ بحانوت

www.marefa.org

سيده ونظر اليه جالسة فاذا هو هناك فهرول الى البيت ودخل توًّا الى غرفة سيدته بلا استئذان فوجد عندها شابًّا لا يعرفه ورآها بجانبه كانها جالسة الى شقيق او قرين. فبهت لذلك ولكنه اشتغل بما آنسه من ترحابها به. فقالت له «اغلق الباب وادخل» ففعل ودنا منها وهو ينظر الى عبدالله شذرًا. فادركت خولة ما يجول في خاطره فقالت له «لا تسيء الظن ان هذا اخي بعهد الله فاقصص علينا خبرك سريعًا وقل لنا اول كل شيء كيف فارقت الامام عليًا»

فسكت ولم يجب

فالحت عليه وقد علتها البغتة

فاجابها بصوت مختنق «ان عليًا قد ذهب ضحية ذلك الخائن»

فصفقت خولة كفًّا بكف وصاحت «والهفي عليك يا ابا الحسن» وقال عبدالله مثل ذلك ثم قالت «وماذا جرى لابن ملجم» قال «انه قتل شر قتلة لعنة الله»

فقال عبدالله «وكيف فارقت سعيدًا»

قال «فارقته بخير وعافية وقد سار للبحث عن تلك الخائنة اللعينة»

قال «عبدالله او نعني فطامًا»

قال «نعم وما ادراك اني اعنيها وكيف عرفتها يامولاي»

قالت خولة «الم تعلم من هو هذا الشهم»

قال «كلا»

قال «الم يذكر سعيد امامك انه فقد ابن عمه هنا»

قال «بلى»

قالت «هذا هو ابن عمه عبدالله»

فبهت بلال وغلب عليه البكاء من الفرح وصاح «انت حي يا مولاي... آه من لي بمن يحمل هذه البشرى لابن عمك. والله اني حاملها الو الساعة بعد ان اسرّ الى سيدتي كلامًا أوتمنت عليه»

www.marefa.org

الفصل الثاني والتسعون

﴿ ابلاغ الرسالة ﴾

فالتفتت اليه وقالت « قل يا بلال ليس على عبدالله سرٌّ وهو اخي كما قلت لك قل كيف فارقت سعيداً »

قال « فارقته يا مولاتي وهو مشتاق لرؤيتك ولم يأمن معي مخافة ان يكون امرنا نجا من المكيدة فلا يأمن منه على حياته . وقد علمت وانا مارٌّ في الفسطاط الساعة انه نجا وقتل غيره خطاء ولا ادري كيف حال سيدي والدك معك فلا آمن عليكما منه »

قالت « اعلم يا بلال ان عمرًا نقم على ابن ملجم ورضي عني وهو يحبني حبة لاولاده اما سعيد فلا هو يعرفه ولا والدي رآه فاذا جاء لم يكن عليه بأس وشانه في الفسطاط شأن كل غريب يدخلها . فاقصص علينا خبر ابن ملجم والامام علي وكيف قتلا »

وامرته بالجلوس فجلس منادمًا وقص عليها الخبر بتفاصيله . فلما بلغ الى حديث قطام وما ارادته من قتل سعيد هاجت في نفسها حاسة الغيرة والانتقام وقالت « قبح الله هذه المرأة اني اعرفها واسمع بدهائها فكيف انطلت حيلتها على سعيد »

فابتدرها عبدالله « اني والله توسمت فيها الشر منذ رأيتها » وقص عليها ما كان من امره معها . فانكشفت لها الحقيقة وشكرا الله على نجاة سعيد ولكنها أسفا على مقتل الامام علي ثم استدركت في حديثها فقالت « وهل سمعت شيئًا عن معاوية ومقتله »

قال لقد مررت بدمشق في طريقي فعلمت انه نجا ايضًا . وقص عليها خبره كما سمعه فحييت لجاري القضاء كيف سمحت بقتل الامام علي و بقاء معاوية وعمرو

فقال عبدالله « وابن سعيد الآن »

قال « هو في انتظاري بدمشق فاذا امرت مولاتي عدت اليه حالاً وجئت به على عجل وارجو ان يكون قد ظفر بتلك الخائنة وانتقم منها واذا لم يظفر هو بها لمستُ تاركها حتى انتقم منها فقد هاجت دمي بما ارتكبته من الخيانة »

قالت خولة « بورك فيك يا بلال فعليك الآن ان تستقدم سعيدًا على عجل »

فقال « وهل آتي به الى هذا البيت »

www.marefa.org

فاستصوبت خولة سؤاله لان عجلة الى بيت والدها قد يوجب العراقيل . فنظرت الى عبدالله كانها تستفتيه في الامر فاشار اليها انه يريد البحث في ذلك سرًّا

فالتفتت الى بلال وقالت له «اخرج الآن قبل ان يأتي والدي وهو ناقم عليك لاعتقاده انك فررت بالجملين من داره وانتظر عبد الله في المسجد الليلة وهو يبحث باتفاقه»

الفصل الثالث والتسعون

﴿ العزم على الكوفة ﴾

فخرج وبقي عبدالله وخولة على انفراد فقالت خولة «وما العمل ياعبدالله اخاف اذا جاء سعيد واردنا فتح عقدنا ان ينفتح علينا باب للاخذ والرد ونحن نود كتمان الامر فما الرأي»

قال «اري ان نلتمس من عمرو الخروج من الفسطاط والذهاب الى الكوفة فقد كنت التمست منه السفر فاخرني الى مابعد كتابة الكتاب فهم لا يعرفون الآن الا انك امرأتي والرجل يذهب بامرأته الى حيث شاء . فاذا سرنا الى الكوفة واوصينا بلالاً ان يوافينا بعبدالله الى هناك تنازلتُ له عنك وعقدت له عليك ولا رقيب علينا ولا وانش . واذا طاب لنا العود الى الفسطاط عدنا بعد ذلك والا فاننا نمكث في الكوفة الى ماشاء الله»

فصمتت خولة برهة وهي تفكر في الامر فرأت رأي عبدالله مصيبًا فقالت «نعم الرأي رأيك ولكنني تعودت الفسطاط والفت الاقامة في وادي النيل وفي قرب الاهل والاصدقاء فاذا اتيح لي البقاء فيه كان ذلك افضل لي وارقى»

قال «لا انكر عليك ذلك وهو ميسور لك فيما بعد واما الآن فلا ارى خيرًا من الذهاب الى الكوفة»

قالت «واخشى مع ذلك ان لا يأذن والدي بذهابنا الى هناك اذ هو عالق بي وليس له سواي فلا اخاله الا ملحًّا علينا بالاقامة هنا»

www.marefa.org

قال « انا نطاوله ونماطله حتى يأذن بانصرافنا ولو بعد حين ونوصي بلالاً ان يخبر عبدالله بالتربص في الكوفة ريثما نأتيه ولو ابطأنا »

قالت « افعل ما بدالك والله الموفق في كل حال »

قال « فلنعد الآن الى دار الامير ومتى كنا عنده كان خروجنا من الفسطاط سهلاً لانه هو الذي وعدني باخلاء سبيلي للبحث عن ابن عمي سعيد فاذكرهُ بوعده ولا اظنهُ الاَّ مؤذناً بانصرافي معك »

قالت « ولكننا نبيت الليلة هنا ونصبح الى دار الامير »

قال حسناً . ولما كان العصر خرج الى المسجد فوجد بلالاً في انتظاره فاوصاه ان يذهب بسعيد الى الكوفة ويتربص به هناك حتى ياتيا اليها

فانبسط وجه بلال وابتسم ثم قال « ان هذا ما كنت ارجوه من مولاي لانني اذا كنت في الكوفة توفقت الى الانتقام من قطام اللعينة »

فضحك عبدالله وقال « واوصيك اذا انت ظفرت بها ان لا تعفو عن عجوزها لبابة فانها فهرمانة شريرة »

قال « لا توص حريصاً » ثم ودعهُ وانصرف

الفصل الرابع والتسعون

﴿ دعوة غريبة ﴾

اما عبدالله فلما رأى نفسهُ بباب المسجد والصلاة قائمة والناس يدخلون افواجاً دخل في جملة الداخلين . فرأى عمرًا على المنبر يعظ الناس وهم صامتون فوقف حتى فرغ عمرو من خطابهِ وانقضت الصلاة فتحول للخروج . ولم يكد يتحول من صحن المسجد حتى اعترضهُ بعض الشرطة قائلاً « تمهل يا مولاي ان الامير يستوقفك لامرٍ يريد ان يخاطبك بشأنهِ »

قال « وابن هو الامير »

قال « كان في المسجد كما رأيته وقد تحوَّل الآن الى داره من باب في المحراب »

www.marefa.org

قال « وهل هو يريد مقابلتي الآن »

قال نعم

فانشغل بال عبدالله لذلك الطلب وخاف ان يكون مبنياً على مخاطبته بلالاً اذ ربما كان احدهما رقاً بهتو او غير ذلك . ولكنه مشى حتى اقبل على مجلس عمرو وكان اذا وصل المجلس دخل بلا استئذان . فلما هَمَّ بالدخول اعترضه الحاجب قائلاً « تمهل ربما نستأذن لك » فوقف عبدالله ودخل الحاجب ثم عاد فاستفهم عن الجواب فقال ان الامير يريد الخلوة بك على انفراد هذه الليلة فاذا اتيت في العشاء تعال وحدك »

فاستغرب عبدالله ذلك الشرط واشكل عليه المراد منه فاستزاد الحاجب ايضاحاً هل المراد ان يأتي وحده بمعنى ان لا تكون خولة معه

قال « اظن هذا هو مراده فانه قال ليأت وحده » كلام سألقيه اليه على انفراد »

فعظم الامر على عبدالله وحسب لذلك الف حساب . ولم تكن الشمس قد مالت الى الغروب فعاد الى البيت والهواجس تتقاذفه وظهرت عليه امارات الانقباض فلما اقبل على خولة ورأت على وجهه آيات الاضطراب ابتدرته قائلة « ما بالك ياعبدالله ما الذي غير وجهك اني اراك متغيراً واري في وجهك انقباضاً قل رعاك الله ما اوجب ذلك »

قال وهو يحاول المجاهل « ليس في شيء مما تقولينه لكن يظهر اني تعبت من سماع العظة في المسجد وسئمت من مسافة الطريق وليس ذلك من الانقباض في شيء وكيف يقبض عشيرك وانت مصدر السعادة وينبوع الهناء »

فلم تقتنع بقوله ولكنها سكتت على ان تستطلع السر بعد قليل بلباقة . وغيرت الموضوع فقالت « وهل رأيت بلالاً »

قال « نعم وقد اوصيته بما يقوله لسعيد »

« قالت وهل سافر »

قال « اظنه يستريح الليلة خارج الفسطاط ويقلع في الغد باكراً »

وفيما هما يتحادثان جاء والدها فدخلوا جميعاً وعلى وجه والدها ظواهر الغضب وكانت خولة تعرف غضبة بمجرد النظر الى وجهه . فلما رأته كذلك زاد اضطرابها

www.marefa.org

وجعلت تفكر في سبب غضب الاثنين . فخطر لها انهما تخاصما ولكنها لم تكن تجد سبباً لذلك . ولم تجسر على سؤال والدها ولا ارادت الالحاح على عبد الله في الاستفهام فتركت ذلك الى ساعة الاختلاء به

وبعد قليل مدت المائدة فجلسوا اليها وليس فيهم من يتكلم كلمة الا ما تدعو اليه الحال من طلب شيء او الاستفهام عن شيء يتعلق بالطعام ونحوه

الفصل الخامس والتسعون

﴿ غرفة عمرو ﴾

وكان عبدالله لما جلس الى المائدة لم يغير ثيابه كالعادة فلما نهضوا عن العشاء اخبر خوله ووالدها انه منصرف في حاجة تقتضي غيابة ساعة . وكأن طلبة هذا جاء طبق ما يرجوه ابو خوله فلم يسأله عن سبب ذهابه ولا استدعى سرعة رجوعه

فازدادت خوله حيرة وظلت ساكتة ولم يخطر لها ان لذهاب عبدالله علاقة بما بدا لها في وجهه من الانقباض . ولكنها رافقته الى باب الدار وتوسلت اليه ان لا يطيل الغياب . فاجابها انه لا يدري ساعة رجوعه لانه لا يعلم ما يكون من دواعي تأخره ولم يشأ ان يبوح لها بسبب ذهابه ولا ترك لها فرصة للاستفهام فودعها وخرج وهو يسرع في سلمه وافكاره تائهة في ما عساه ان يكون غرض عمرو من دعوته على هذه الصورة

ولما وصل دار عمرو خفق قلبه مخافة ان يسمع من الحاجب خبراً جديداً يزيد بلباله فلم يكلمه الحاجب الا بقوله ان الامير ينتظرك في غرفته الخصوصية

فمشى عبدالله الى تلك الغرفة وهو يقدم قدماً ويؤخر اخرى حتى وصل الى الباب فاذا هو مغلق فقرعه ووقف ينتظر فتحه ثم فسمع خطوات تسرع نحو الباب يخطلها همس لم يفهم منه شيئاً . وبعد هنيهة فتح الباب فاذا بعمرو نفسه يقبض بيده فبغت لما رآه امام عينيه وعلى وجهه دلائل الغضب . فحياه عبدالله فلم يرد عمرو على قوله « وعليك السلام » وسار الى صدر الغرفة فتبعه عبدالله وهو ينظر الى جوانب المكان

www.marefa.org

لعله يرى فيها احداً . فلم يجد فالتبس عليه الامر لما سمعه من الهمس وهو واقف خارجاً . ولكنه رأى في بعض جدران الغرفة باباً عليه ستار وهو يعلم ان ذلك الباب يستطرق الى غرفة اخرى فظن بعض نسائه كانت عنده فلما علم بقدومه صرفها من الباب الآخر واستقبله

وكان عبدالله يفكر في ذلك وهو ماش في ثرا عمرو حتى جلس عمرو على مقعده فوقف عبدالله بين يديه ينتظر امره بالجلوس فاشار اليه فجلس على وسادة بالقرب منه وهو ينتظر ما يقوله وقد نفد صبره

الفصل السادس والتسعون

﴿ الاستنطاق ﴾

فصبر عمرو لحظة وفي يده سبحة (سوط) يلاعبها بين يديه كأنه يتشاغل بها عن قلق يخامر ذهنه فتح عبدالله الحديث قائلاً « كيف حال مولاي الامير وما الذي يأمر به عبده فقد لبيتُ دعوته وانا راج ان يكلفني امراً اقضيه له جزاء لبعض ما له عليَّ من الفضل »

فالتفت اليه عمرو وهو يشط لحيته بانامله وقال « انما دعوتك لأسألك سؤالاً واحداً وارجو ان تصدقني في الجواب عليه بما احسبني اجزلته لك من الجميل وأنفيتُ عليك بعد ان رأيتَ الموت رأي العين »

فوقف عبدالله احتراماً وقال « يعلم الله اني لا انسى جميلاً اوليتني اياه باغضائك عن جريمة اقترفتها ثم بانعامك عليَّ بحياتي وهي خير هبة فكيف لا اصدقك القول » قال ذلك وقلبه يخفق خوفاً من سماع ما قد يكون سبب نقمته عليه

واقعده عمرو وقال « بلغني اليوم من مطّلع على احوالك انك انما جئت القسطاط مع رفيقك سعيد للفتك بي فهل ذلك صحيح ؟ »

فنهض عبدالله ثانية وقال ولهجة الصدق بادية على وجهه « كلاَّ يامولاي ان ما بلغك من ذلك محض افتراء »

www.marefa.org

قال « وما الذي جاء بكما انّا »

قال « اما وقد سألتني عن ذلك فاسمع لي ان اقول الحق وارجو ان تصدق قولي »

قال « قل الصدق ولا تبال فلا بأس عليك الاّ اذا رأيت في كلامك عوجا فلا تلم الا نفسك »

قال « اقسم برأس الامور اني لا اقول غير الصدق ولكن حديثي طويل فهل ابسطه كله »

قال « اجبني اولاً على سؤالي مختصراً فاذا رأيت ما يدعو الى التفصيل طلبته . سألتك عما دعاكما الى المجيء للفسطاط والاجتماع بتلك الزمرة المعادية »

قال « انما جئت للبحث عن المؤامرة على قتل الامام علي »

قال « ولماذا »

قال « لكي ابذل جهدي في زجره وانقاذ الامام من الموت »

قال « كيف تفعل ذلك وانت اموي على ما اعلم »

قال « لقد اجأتني يا مولاي الى بعض التفصيل الا تعرف جدي ابا رحاب »

قال « بلى اعرفه وقد سمعت بوفاته قريباً »

قال « نعم انه مات وقد كان الى يوم مماته يكره علياً ويدعو الى قتله ولكنه في يوم مماته استحلفني واستحلف ان عمي سعيداً ان لا نبغي شراً لعليّ بل اذا رأينا سبيلاً الى الدفاع عنه ان نفعل . فلما سمعنا بالمؤامرة علمنا ان المؤامر على قتل علي من اهل مصر ولكنا لم نعلم من هو فجئنا للبحث عنه وردعه بالتي هي احسن . ولم نرَ سبيلاً لمعرفته الاّ بواسطة اصحاب عين شمس لانهم على دعوة علي »

فقال « ألم تكن عالماً ايضاً بمؤامرة رفيق ابن ملجم على قتله »

قال « بلى ولولا ذلك لم استطع اطلاعك عليه »

قال « وكيف انك لم تطلعني عليه حال قدومك ألا تعلم انك تعدّ بذلك مؤامراً على قتلي ؟ » قال ذلك ولهجته ترقص من شدة التأثر ولسان حاله يقول لقد حججتك وغلبتك وأكدت خيانتك

www.marefa.org

فقال « نعم اعلم ذلك ولكن حلمك قد وسعني من قبل وعفوت عما مضى وغمرتني بالعامك فاذا رأيت ان تعود الى مطالبتي بو كان لك الامر ولكنني لا احال الامير عمرو بن العاص اذا عنا عن مذنب ان يرجع عن عفوه »

فلما سمع عمرو كلامه أفحم وسكت

وشعر عبدالله عند ذلك بقوة انبثت فيه وثارت الحمية في رأسه فهم ان يستأنف الكلام فابتدره عمرو قائلاً « ولكن بلغني انك عرفت خولة قبل ان اخطبها لك وانها كانت عالمة بخبر تلك المؤامرة فكيف لما ذكرتها لك ليلة الخطبة تجاهلتها »

فارتبك عبدالله في الجواب وكاد يعثر لو لم يثبت جاشه وقد عوّل على الصدق فقال « حاشاي يا مولاي ان اخدعك فاني ورأسك وكل غال عندي لم أكن اعرف هذه الفتاة قبل ان ذكرتها لي وامرت بان تكون زوجتي »

فقال « وما تقول في سابق اطلاعها على خبر المؤامرة »

فتحير عبدالله في الجواب ولكنه فقد لبابه يتخلص منه فقال « ذلك ليس لي ان اجيب عنه فان خولة جارية بيك وفي تجيب عن نفسها - ادعها الى ما بين يديك واسألها ولا اشك في انها تقول الصدق ولكنني ارغب الى مولاي ان يخبرني عمن وشى بنا اليه لعلنا نكذبه بين يديه »

قال « ساجمعكم جميعاً واسمع احتجاجكم جهاراً فاذا سمعت اقوالكم جاز بعد كلاً بما يتحققه . اذهب الآن الى فراشك عندنا وغداً لناظره قريب » قال ذلك ونظر نحو الباب ونادى « يا غلام » فدخل رجل فقال له خذ عبدالله الى غرفة بيت فيها الليلة هنا واتني به غداً متى دعوته »

قال سمعاً وطاعة وخرج عبدالله والحاجب يسير امامه حتى دخل به غرفة في دار الامير القصر المبيت فيها ولكنه لم يغمض له جفن طول ذلك الليل

الفصل السابع والتسعون

﴿ الجلسة الخصوصية ﴾

ولما اصبح عبدالله تحير في هل يخرج الى الامير ام ينتظر امره . ولبث جالساً

www.marefa.org

حتى كان الضحى واذا بالحاجب قد جاء يدعوه الى مجلس الامير في غرفة خاصة غير مجلسه الاعتيادي فمشى وهو يفكر في ماذا عسى ان يكون من امر تلك الجلسة ومن هو الواشي وهل تستطيع خولة الدفاع عن نفسها بما يضمن نجاتها

ولاحت منه التفاتة الى ساحة الدار فرأى هناك عبداً تذكر انه رآه ولم يلبث ان عرفه فاذا هو ريحان عبد قطام فاختلج قلبه في صدره وقال في نفسه انها والله وشاية هذا الخائنة وانقلها ارسلت عبدها الى عمرو كما ارسلته في المرة الماضية لعنها الله

وما زال ماشياً وهو يفكر في ذلك وقد تغيرت سحنته من عظم التأثر فرأى الحاجب دخل باباً فدخل هو في اثره فاذا هو مقبل على قاعة في صدرها الامير عمرو بن العاص كانه جالس للقضاء وعليه جبة بيضاء وعلى رأسه عمامة كبيرة وقد قعد الاربعاء على وسادة من الدمقس وفي يده الدرة والسبحة معاً . فتقدم عبدالله تؤدة اليه فحياه ولم يلتفت الى سواه . فامره بالجلوس بعد رد ظهر الفرق بينه وبين مقابلاته الاولى . فجلس عبدالله في بعض جوانب الغرفة وارسل نظره فرأى الى جانبه عمة ابا خولة وعن يسار عمرو ثلاث نسوة قد ارسلن النقاب على رؤوسهن فلا يظهر منهن غير العيون من ثقوب فيه . فعرف منهن خولة ولم يكن يجسر على التفرس بالأخريين حياء . فجلس وهو يسترق اللحظ و يفكر فخطر له ان احداهن قطام جاءت هذه المرة لقضاء حيلتها بنفسها . ثم ما لبث ان عرف الأخرى فاذا هي لبابة العجوز فخفق انهما وشتا به و بسعيد . وكانت قطام قد ابطلت الحداد على والدها واخيها بعد قتل الامام علي فارتدت كساء من الحرير المزركش بالقصب صنع بلاد فارس احمر اللون ناصعة لا يستطيع لبسه الا الاغنياء وكان نقابها مزركش الاهداب بما يدل على بذخ وترف . وتصور عبدالله جمالها وفصاحتها وحيلها فعلم انها غلبت على رأي عمرو واقنعته ان عبدالله وخولة يستوجبان القتل او نحوه فاخذ يتأهب للجواب

ومضت برهة والكل صامتون وعمرو ينظر الى الارض والدرة في يده كانه يتكئ البساط بها ويده الاخرى على لحيته يلاعب شعرات منها بين انامله والاهتمام باد بين حاجبيه . ثم رفع بصره ونظر الى الباب ونادى غلامه فدخل فقال له « لا تستأذن لاحد بالدخول علينا ولا تدع احداً يقترب من هذا الباب »

www.marefa.org

قال سمعاً وطاعة وخرج

ثم التفت عمرو الى ابي خولة وقال « اهذا جزاء الخائن الملك يا ابا خولة »

فوقف ابو خولة وقد بُغت وقال « وما ذلك يامولاي . اني لا اعرفني الاّ مخلصاً لك خادماً لمقاصدك »

قال « ربما كنت كذلك ولكن خولة منذ (واشار اليها) تواطيء الناس على قتلي وتسعى في انفاذ امر ابي طالب »

فلما سمع ابو خولة قوله مشى مسرعاً حتى امسك ابنة وقال « اني لا اعرفها الاّ جارية من جواري مولاي فاذا ارتكبت شيئاً من ذلك فاني اذبحها بين يديك ودمها هدر لك » قال ذلك وجذبها كانه يريد ايقاعها وتقديمها الى عمرو . اما هي فظلت جامدة ولم تبالِ

فقال له عمرو « عد الى مكانك ودعها تدافع عن نفسها فاني لا اريد ان اعاقبها الاّ بعد المحاكمة فاذا صح ما قيل عنها كان القتل اخفّ قصاص لها »

فلما سمع عبدالله تلك اللهجة الشديدة اختلج قلبه في صدره وخاف عاقبة تلك الجلسة ولكنه تجلد وصبر

الفصل الثامن والتسعون

﴿ دعوى قطام ﴾

ثم التفت عمرو الى خولة وقال « ما تقولين يا خولة »

فوقفت وقالت بصوت راتق وجاش ثابت « ماذا اقول يا سيدي وانا لا اعرف التهمة التي وشى بها اليك الواشون . فاذا سمعتها ذكرت لك الحقيقة ولك الامر بعد ذلك فاذا استوجبت القتل فما انا خير ممن قتل من رجال الاسلام في هذه الفتنة ! ! »

فعجب عمرو لتلميحها الى اعظم ما حدث في تلك الاثناء فقال لها « مالك ولهذا الكلام ياخولة قولي ما جوابك على سؤالي »

www.marefa.org

قالت « اذا كان الامير حرسة الله قد جعل دمي حلالاً إن ثبتت التهمة عليّ فليس اقلّ من ان اسمع نص الدعوى الموجهة اليّ »

قال « لقد صدقت وانني مطاوعك في جرأتك حتى تبدي كل ما لديك من اساليب الدفاع ولا اظنك اخيراً الا مفرغ بجنايتك لانها ثابتة ثبوت النور في النهار اجلسي استريحي »

فجلست

فقال عمرو ووجّه حديثه الى قطام « ما قولك ياقطام بخولة وما تعرفينه عنها »

وكانت قطام كما بيّنا في فصل سابق لما ارتاح بالها من امر علي وقتله وعلمت ما دار بين خادمها وبين بلال خادم خولة انها تحب سعيداً وهي التي وجهت عبدها معه واعانته في الوصول الى علي قبل انقضاء الاجل المضروب لقتله . فحملتها الغيرة وهاجها حب الانتقام وطاوعها خلق السوء الذي فطرت عليه ان تأتي الفسطاط لتشي بخولة وسعيد وهي لا تشك انها تثبت الجناية عليها فتتقرب بذلك من عمرو فتنال حظوة في عينيه فتقيم عنده مكرمة او يتزوجها احد ابنائه وكان عمرو يعرفها من ذي قبل . فاسرعت الى الفسطاط ومعها عجوزها وعبدها فوصلت بالامس واسرعت الى عمرو وبشرته بقتل الامام علي ووشت اليه بخولة وانها كانت مواطئة لسعيد على انقاذ الامام علي وانها كان يعلمان خبر المؤامرة على عمرو وسكتا عنها وقد كان في امكانها لو اخلصا الخدمة لعمرو ان يطلعاه عليها فاغارها عمرو اذناً مصغية وبعث الى عبدالله كما تقدم . ثم رأى من الحزم ان يجمع الجميع ويسمع حججهم ومدافعتهم قبل ابداء الحكم

فلما قالت خولة قولها في تلك الجلسة والتمس عمرو من قطام ان تبسط التهمة بهضت ومشت خطوتين نحو الامير وشوبها المزركش يجرّ وراءها تيهاً وبذخاً . ثم وقفت وقالت بلسان طلق فصيح « اما ما يسألني الامير عنه فلا احتاج في اثباته الى دليل . وتفضل الامير ان مولاي الامير يعلم اخلاصي له ورغبتي في خدمته حتى انني حالما سمعت بجمع العلويين في عين شمس بعثت اليه رسولاً يخبره خبر ذلك الاجتماع . ولو لم اجد من الحمقة في تلك المهمة لجئت بنفسي . ولم اذكر هذا الشاهد الصغير الا دليلاً على اخلاصي . اما خولة واطلاعها على خبر المؤامرة فأمرٌ لاشك

www.marefa.org

فهو لاني اعلم علم اليقين ان سعيداً ورفيقه هذا (واشارت الى عبدالله) لما قدما الفسطاط كانا عالمين بخبر تلك المؤامرة وقد سمعت ذلك منهما باذني . وها انما انيا للاجتماع مع العلويين . وبعثت بوعد عبدي بخبر ذلك الى مولاي الامير فلما عاد عبدي اخبرني ان جند الامير قبضوا على العلويين وان عبدالله وسعيداً في جملتهم ولم يكن يعلم ان سعيداً نجا بمساعدة خولة هذه . اما انا فاني عرفت ذلك لما عاد سعيد الى الكوفة مسرعاً لاطلاع علي بن ابي طالب على خبر المؤامرة خيفة منه عليه وقد ترك حياة الامير عمرو بن العاص في خطر القتل . وكان رفيقه في عودته بلال خادم خولة هذه فانه صحبه الى الكوفة . فالتقى بهما هناك عبدي ريحان وانضح له من خلال الحديث مكان بلال وخولة عالمين بسر الامر . ولما لم يجمع مسعاها في انقاذ الامام علي قصدا بان يكون مولاي حرسه الله قد اصيب بما اصيب به ذاك . ولكن الله سبحانه وتعالى انقذه من مخالب الموت وحرسه بعين عنايته . فترى يا مولاي ما قدمته ان خولة كانت عالمة بخبر المؤامرة كما كان يعرفها عبدالله وسعيد فلو كانت مخلصة لمولانا الامير ما كتمتها عنه »

فقال عمرو « وما الذي يؤكد لنا ان سعيداً وعبدالله لما انوا الفسطاط كانا عالمين بالمؤامرة على قتلي »

وكانت لبابة العجوز صامتة الى تلك الساعة فلما طرح عمرو هذا السؤال ابتدرته في قائلة « لاشك انهما كانا عالمين بها لانهما اخبرانا بها لياة سفرها الى الفسطاط »

الفصل التاسع والتسعون

﴿ دفاع خولة ﴾

وكانت قطام تتكلم وخولة مطرقة تفكر بماذا تجيب . أما عبدالله فانه لمن الساعة التي انت بها تلك الخائنة وخاف على خولة ان تتلعثم او تفهم لان الادلة فورة اما والد خولة فلم يكد يسمع حديث قطام حتى استشاط غضباً وصاح في خولة

www.marefa.org

باعلى صوته « الله عليك يا خائنة لقد فهمت الآن تلاعبك وتنافقك » ثم التفت الى قطام وقال « واي مق لقي عبدك عبدي مع ذلك الرجل في الكوفة »

قالت « ليلة ١٧ رمضان »

فاطرق برهة ثم اقترب من خولة وجذبها بيدها الى وسط القاعة وقال لها بنغمة الانبهار « لقد انكشف لي القناع وعلمت سبب فرار بلال كما ترعمين ارسلتو مع حبيبك ليساعده على انقاذ ابي تراب (علي بن ابي طالب) وقلت لي انهُ فرّ بالجملين والظاهر انهُ اخذها معهُ ليركب هو ورفيقهُ عليها » ثم التفت الى عمرو وقال « ان ابنتي يا سيدي تستحق القتل اقتلها او دعني اقتلها بين يديك »

فوقف عبدالله للحال وقد ثارت فيهِ النخوة على خولة وهو يظن سكوتها خوفًا او ارتباكًا لانهُ لم يرَ ملامحها من وراء النقاب فامسك اباها بيدهِ وقال برزانة وسكينة يخاطب عمرًا « الفس من مولاي الامير الذي امر ان تكون خولة زوجة لي ان يوقف اباها عند حدهِ فهو الآن لا يملك من امرها شيئًا . اما اذا اقترفت هي ذنبًا تستوجب عليهِ قصاصًا فالامر فيهِ لمولاي وليس لاحد سواه »

وكان عمرو قد اقتنع بثبوت الجريمة على خولة ولكنهُ احب ان يسمع دفاعها ورأى عبدالله يتكلم بحق وعدل فقال لابي خولة « دع خولة فانت كما قال عبدالله لا تملك من امرها شيئًا »

فتنحى ابو خولة وهو يلهث و يدمدم ولحيتهُ ترتعش في صدره . وتنحى ايضًا عبدالله وخولة لا تزال واقفة . اما قطام فلو ازاحت خمارها لبان الابتهاج على وجهها لنجاح مهمتها

فقال عمرو « ما بالك يا خولة لا تدافعين عن نفسك . أليس ما قالتهُ قطام عنك صحيحًا ؟ هل كنت عالمة بغدر المؤامرة على قتلي »

قالت « نعم »

قال « وهل ساعدت سعيدًا على انقاذ الامام علي فارسلت معهُ خادمك وجملك »

قالت « نعم كل ذلك صحيح »

فتعجب عمرو وسائر الحضور من صراحة اقرارها وقد كانوا يتوقعون انكارها او تلعثمها او على الاقل سكوتها . فلما رآها تجيب بهذه الصراحة قال لها « وكيف

www.marefa.org

تظاهر بن هذه الغيرة على صاحب الكوفة (علي) مع علمك ان والدك لا يريد ذلك ثم لا يخطر ببالك ان تخبري والدك بخبر المؤامرة على قتلي لكي يطلعني عليه · الا تعلمين ان عملك هذا يعدّ خيانة تستوجبين عليها القتل · وها اني لا زال اطيل بالي عليك لأسمع دفاعك فاخبريني اولاً كيف تكونين على غير ما يريده والدك وامير بلاده · ثانياً كيف تسعين في انقاذ علي بن ابي طالب ولا تسعين في انقاذ امير مصر »

وقبل ان تتم خولة بالجواب اعترضها قطام قائلة « ارى مولاي الامير يتعب نفسه بما لا طائل تحته · هل بعد اقرارها الصريح من باب للنجاة ؟ ولا دواء لهذه الخائنة الا القتل »

فقالت خولة وهي تنظر الى قطام شذرًا « سوف يتضح لنا من هي الخائنة وقد يجدر بك التأدب في حضرة الامير فانه اعلم منك بقواعد الاحكام »

الفصل المائة

﴿ صدق اللهجة ﴾

ثم وجهت خولة خطابها الى عمرو قائلة « ارجو من الامير ان يطلق لساني الحرية لأقول كل ما يجول في خاطري »

قال « قولي ما بدا لك »

قالت « اما سبب مخالفتي والدي في رأيه وتحزبي للامام علي رحمة الله فهو لاني صادقة مخلصة في فكري وقولي وهو الخرف المتقلب · وما كنت لأصف والدي بهذا العيب لو لم يضطرني الى ذلك »

قال عمرو « وما معنى هذا »

قالت « يعلم مولاي الامير ان والدي ربي في نعم الامام علي وانا في حجره مع اعتقادنا انه ابن عم الرسول (صلعم) وانه على الحق في اعماله »

فاراد والدها ان يقطع حديثها فاعترضه عمرو والزمه السكوت فقالت « فلما كانت واقعة صفين كان والدي في جملة من خالفه في امر التحكيم من الخوارج · فهو

www.marefa.org

الذي انحرف عنه . اما انا فظللت على رأيي ولا ازال عليه الى اليوم »

فقال عمرو وهو معجب بجسارتها « ولكن علياً شارك الجهال في قتل الخليفة عثمان فقتلوه ظلماً ونحن انما قمنا نطالب بدمه »

قالت « اما مقتل الخليفة عثمان فارجو من مولاي الامير ان لا يجشمني الخوض في شأنه لاني ربما اضطررت الى ما اتجنب ذكره »

قال « وما الذي يخيفك بعد ما ابديته من الجرأة »

قالت « يخيفني غضب الامير لامر هو داخل فيه »

قال « قولي كل ما يبدو لك ولا تخافي »

قالت « اما مقتل الخليفة عثمان رحمه الله فلا اظن مولاي عمراً الاّ من جملة الراضين به »

فبغت عمرو وقال « وكيف تقولين ذلك يا خولة »

قالت « الم يكن مولاي في جملة المحاصرين لعثمان ؟ الم تقل له قد ركبت يا عثمان اموراً ركبناها معك تب يا عثمان وارجع الى الله [1] . فاسمعك موكلاماً جارحاً . ثم لما قال لك اني تائب قلت له رأيناك تتوب ثم تعود »

قال « وهل يؤخذ من ذلك الي كنت اريد قتله »

قالت « كلاّ ولكنه يدل على انك كنت ناقماً عليه »

قال « انما كنت ناقماً ليرجع عن اعماله ويبقى على خلافته »

قالت « لو كان هذا هو قصدك فقط لما فرحت بقتله »

فانذهل عمرو من سعة اطلاعها على خفايا الامور ولكنه لم يستطع الاّ استفهامها فقال « وكيف تقولين اني فرحت وما دليلك على ذلك »

قالت « دليلي قريب اذا امّنني الامير قلته »

قال « قولي »

قالت « ألم تكن في فلسطين يوم قُتل عثمان ؟ فكنت اذا لقيت الراعي حرّضته على قتله ؟ ألم تحرض علياً وطلحة والزبير عليه ؟ فلما جاءك رجل اخبرك بقتل عثمان ألم تقل انا عبد الله اذا حككتُ قرحة تكأتها ؟ » [1]

---

(1) ابن الاثير ج ٣

www.marefa.org

فلما سمع عمرو قولها استغرب جرأتها وغضب لتصريحها بامور كان يود كتمانها ولكنه سبق فأمضاها وكان داهية يحوّل معاني الكلام كيف شاء فقال لها لقد اعجبني دفاعك يا حولة ولكننا لسنا في معرض الدفاع عن علي او عثمان ولا يهمنا انحرافك او انحراف والدك وانما نحن في اطلاعك على خبر المؤامرة على قتلي ثم سكوتك الى آخر ساعة ووالدك بين يدي كل يوم فكانك اشتركت مع المؤامر » قال ذلك وهو يحسب نفسه قد غلبها وسدّ عليها ابواب الدفاع . وكان اشد الناس خوفاً عليها عبدالله وقد خيّل له انها لم تعد تستطيع دفاعاً بعد اقرارها السابق

اما هي فهمّت بالكلام فاذا بقطام تقول « اني لا اعجب من حلم الامير وما الذي يرجوه من دفاعها عن ذنب اعترفت به صريحاً »

فلم تعبأ حولة بقول قطام ولكنها اجابت عمراً قائلة « اني لا انكر عليك عظم هذا الذنب بالنظر الى ما كنت ترجوه من قيامي بامر الخوارج وموافقة والدي على تأييد امركم والتصديق على دعواكم ودعوى معاوية وانكم على الحق . وقد قدّمت لمولاي باني فعلت ذلك وانا على دعوة الامام علي فلذلي من هذا القبيل لا يعدّ شيئاً النظر الى ما تستوجبه هذه المرأة (واشارت الى قطام) التي انما جاءت بهذه الوشاية غيرة عليك وضناً بحياتك فاتهمتني بالخيانة لاني على زعمها كنت عالمة بخبر المؤامرة ولم اخبرك بها . فما الذي منعها هي عن اخبارك بذلك يوم ارسلت عبدها عبد السوء للوشاية باصحاب عين شمس . فاذا كانت هذه المرأة صادقة في دعواها أفلم تكن هي اولى مني باطلاع الامير على ذلك الامر ؟ اسألها وانتظر في جوابها »

الفصل الحادي والمائة

﴿ فشل الظالمين ﴾

فالتفت عمرو كأنه كان في سكرة وصحا منها بغتةً فرأى حولة مصيبة بدعواها فالتفت الى قطام لفتة استفهام فلم يسمع منها جواباً . فقال لها « ما تقولين يا قطام لما ذا لم تخبريني بخبر تلك المؤامرة »

www.marefa.org

فارتبكت في امرها ولكنها اجابت وهي مبغوتة وقالت « لاني لم اكن عارفة بخبرها بوشك »

فتبين عمرو التلاعب في كلامها وانه اراد تحقق ذلك فقال لها « ولكنك قلت الآن انك سمعت خبر المؤامرة منها قبل سماعه قبل ارسال عبدك الينا او بعده »

فانخدعت قطام بسؤاله فاجابت على الفور « لم اسمعه الاّ بعد سفر عبدي وكنت عازمة على ارسال غيره فلم اتمكن لمشاغل خصوصية انتابني »

فتقدم حينئذٍ عبدالله وهو يكاد يرقص فرحاً بخذلان قطام وقال « ولكن عبدك يا مليحة لم يسافر من الكوفة الاّ بعد سفرنا لأنه انما قدم الفسطاط ليخبر الامير بخروجنا من الكوفة »

فاشار عمرو اليه فسكت وعاد هو الى السؤال فقال « وزد على ذلك ان هذه العجوز تقول انكما سمعتما ذلك الخبر منها ليلة سفرها فما تقولين بذلك »

فغلب الحنق على قطام فقالت « هذه عجوز حمقاء غلب عليها الخرف فلا يعتد بقولها »

فغضبت لبابة لعقوق قطام واهانتها اياها على هذه الصورة وهي تعتقد فضلها عليها فقالت لها « وانا لم اقل ذلك الاّ بعد قولك .. تباً لك من امرأة خائنة . كيف تقولين ان الخرف غلب عليّ وانت انما غلب عليك النفاق »

فاشتد حنق قطام ولم تعد تعي ما تقول لفشلها وتجلها فقالت « اخرسي يا عجوزة ولا تتكلمي بين يديّ »

فقالت لبابة « بل انت عجوزة وانت الخائنة واذا لم تلزمي حدّك اطلعت الامير على كل سرائرك وفضحت امرك »

فقالت « وماذا عسى ان تقولي وانت خادمة لا يعتد احد باقوالك »

وكانت لبابة قد تحققت وقوع قطام في شر اعمالها فارادت ان تخلص نفسها وتنجو بحياتها فلم تر ذريعة اهون عليها من ايقاع قطام باباحة اسرارها بالاقرار . ولا غرابة في ذلك فان من كان مثلها سيئ الضمير سيىء الخلق لاذمام يزجرها ولا عقل يعقلها يسهل انتقالها من الشيء الى ضده فقالت « على الفور ان اسرارك كلها تحت قدمي هذه واذا اذن مولاي الامير كشفت له كل شيء »

www.marefa.org

فسرت خولة وعبدالله لذلك الخصام . اما عمرو فرأى لحسن سياسته ولعقله ان خولة ممن يحرص على بقائهم وانها اذا كانت على دعوته لا يخشى انقلابها . واما قطام فانها اذا اخلصت لله اليوم لا يأمن ان تخونه في الغد فقال للعجوز « قولي يا خالة ما تعرفينه »

فاخذت لبابة تتلو حديث قطام مفصلاً من اوله الى آخره والكل مصغون صامتون ففضحت اسرارها فخفق عمرو ان ارسالها عبدها اليوم لم يكن سعياً يوم ولا نصرة لحزبه بل انتقاماً من سعيد وعبدالله . وتبين لديه ان هذين انما اندفعا للدفاع عن علي بوصية جدهما ابي رحاب واتضح له جلياً ان قطاماً خائنة لا يوثق بقولها ولا يعتمد عليها وان بقاءها في قيد الحياة شرٌّ على العالمين . ولم يكن اعتقاده بلبابة باحسن من اعتقاده بقطام لانه رأى خيانتها رأي العين فصمم على التخلص من كليهما

وكانت قطام في اثناء حديث لبابة واقفة وقوف الصنم وقد جمد الدم في عروقها واصطكت ركبتاها . وكانت في اول حديث لبابة تهمُّ بتكذيبها وعمرو يمسكها ثم سكتت من تلقاء نفسها . فلما فرغت لبابة من حديثها نادى عمرو « يا غلام » فجاء فأمر ان يسوق قطاماً ويحبسها في غرفة يسجنها فيها

الفصل الثاني والمائة

﴿ العفو العام ﴾

فلما خرجت قطام ولبابة من المكان عاد السكوت الى الجلسة وكلٌّ في مكانه وعمرو غارق في بحار التأمل فكر في خولة وشهامتها وصدق مودتها فرأى انها اذا كانت على دعوته لا يخشى ضرّها بل قد تكون اكبر عون له اذ يقدر مثلها بين النساء وغلب على اعتقاده انها بعد مقتل الامام علي لم يبق لها ميل لنصرته فتفضل ان تكتسب رضاء عمرو . وخصوصاً اذا اغنا عنها وعن زوجها عبدالله

وبعد السكوت هنيهة خاطبها قائلاً « والآن ما قولك يا خولة ما الذي

www.marefa.org

فعلة بك »

قالت « لا ابالي يامولاي بعد ان دعلمت لك الحق ان تفعل بي ما تفعله . فقد صدقتك القول بصراحة لا اظن احد يجرأ على مثلها . فاذا امرت قتلي فاني لا ازيد عدد الموتى ولا اقلل عدد الاحياء . ولا فائدة من بقائي ولا ضرر من مماتي وقد قلت لك في اول حديثي انه قد قُتل وامدرج تحت التراب من لا اقاس بأنملة من انامله . فهل انا افضل من ابي بكر وعمر وعثمان ام انا خير من ان عم الرسول (صلعم) فاذا شئت اقتلني وارحني من حياة لا عدل فيها ولا حق . . . ولكنني اطلب اليك اذا قتلتني ان لا تعفو عن تلك الخائنة الغادرة » قالت ذلك ودمعت عيناها

فتأثر عمرو من صدق لهجتها وثبات جاشها فقال لها « واذا عفوت عنك »

قالت « واذا عفوت فالعفو من شيم الكرام وتكون حياتي هبة من عندك »

فتقدم عبد الله للحال وجثا بين يدي عمرو وقال « ارغب الى مولاي كما وهبني حياتي ان يهبني حياة هذا الملاك الطاهر فتكون كلاما هبة من فضله »

وكان والد خولة لا يزال واقفاً وقد تحرجا ابنته من الحمية والشهامة والد تجعل لابنة لم يكن صادقاً في اخلاصه لعلي مثلها . فلما رأى عبد الله يلتمس العفو لابنته تقدم هو ايضاً وقبل يدي عمرو وقال « لقد كنت يا سيدي اشد نقمة منك على خولة ولكنني اراها والله خيراً مني واراني اصغر منها فالتمس لها العفو ايضاً » قال ذلك ونادى خولة فدنت فقال لها « قبلي يد الامير واستغفريه » فقبلت

واصابح ابو خولة وعبدالله وعادوا الى مقاعدهم وقد تذكر عبدالله ابن عمه سعيداً وعلاقته بخولة فقال في نفسه انها فرصة لا يدعني ضياعها فخاطب عمراً قائلاً « اما وقد وهبنا حياتنا جزاء لصدق لهجتنا فلا يسعني والحالة هذه الا ان اتم الصدق بكشف سر لا يزال مكتوماً »

الفصل الثالث والمائة

﴿ كشف السر ﴾

فلما قال ذلك علمت خولة انه سيتكلم بدأن سعيد فخفق قلبها وغلب الحياء عليها

www.marefa.org

فما زوت في بعض جوانب الغرفة

أما عمرو فقال لعبد الله « قل ما بدالك »

قال « انت تدعوني الآن لزوج خولة وما انا والله الا اخوها »

فبعث عمرو الى خولة وقال عمرو « كيف لا وقد كتبتُ كتابك عليها »

قال « نعم انها زوجتي بالكتاب ولكنها لاتزال بكرًا وقد آخيتها فهي اخت بعهد الله والرجل لايتزوج اخته »

فازداد استغراب عمرو وقال « وكيف ذلك افصح يا عبد الله »

قال « لان خولة احبت ابن عمي سعيدًا قبلي ولا بدّ انكم لحظتم ذلك من خلال حديث قطام ولكني لم اعلم ذلك الا بعد كتابة الكتاب ونظرًا لحبي الشديد لابن عمي وقد كفالة بوصاية جدي ابي رحاب أمسكت نفسي عن خولة وآخيتها . واعترف لمولاي الامير انه تواطأ ناعلى الخروج من الفسطاط الى الكوفة بحيلة وسعيد ينتظرنا هناك فارفُ خولة اليه »

فلما سمع عمرو كلامهُ ازداد اعجابًا بشهامته وصدق مودته ونظر الى ابي خولة كأنهُ يستطلعهُ رأيهُ في الامر فاذا هو لم يكن اقل اعجابًا بتلك الشهامة وأكبَّ لم يفالك عن ان نهض وضم عبد الله الى صدره وقبل راسهُ وقال « بورك فيك من صديق صادق فاذ صارت خولة اختًا لك فانا لها ما انت قاض »

فقال « اذا امر مولاي بعثنا الى سعيد وهو في الكوفة مع بلال العبد فيقدمان الينا فيكتب الامير كتابة بامره »

فقال عمرو « ان ذلك لك على الرحب والسعة » وامر غلامهُ ان يدّ عبد الله بما يريدهُ يتعلق باستقدام سعيد

فجهز عبد الله رسولاً وكتب الى سعيد يستقدمهُ ويبسط لهُ واقعة الحال واوصى الرسول ان يجعل طريقهُ بدمشق لان سعيدًا كان فيها فلعلهُ لا يزال هناك

وبعد ذلك انبو خولة وابنهُ بالانصراف الى بيتهِ فاذن لهما فخرجا وخولة تفكر في قطام وكانت قبل هذه الجلسة تريد الانتقام منها ولكنها لما رأت ما كان من فشلها انفأت حمأة انتقامها . على انها تذكرت ان بلالاً اقسم ان يقتلها ناهيك عن حقد سعيد عليها فعولت ان تستعطفهُ لكي يعفو عنها ويكتفي بما اصابها من الفشل والاهانة

www.marefa.org

واما عبد الله فاستغناء عمرو عنه بقية النهار وبات تلك الليلة ضيفاً في دار الامير وقد ارتاع بالهُ من كل قبيل - ولكنهُ كان يفكر في قطام وما اصابها من البلاء وكيف سوقت الى السجن مهانة وقد انكشف امرها وافتضح سرها فحنّت نفسهُ عليها واكتفى بان نفى مسجونة حتى يرى ما يكون من امرها بعد قدوم سعيد

وفي الصباح التالي بعث عمرو اليهما تاول الطعام معهُ فذهب وفي اثناء الطعام تحدثا بحديث قطام وعجوزها فذكر عبد الله ما يجول في خاطره من الشفقة عليها فقال لهُ عمرو « انهُ والله حلم لم يسبقك اليهِ سعن . وما ظنك بخولة هل تقول قولك ؟ »

قال « لا اظنها الاّ على رأيي بلا تواطؤ »

الفصل الرابع والمائة

﴿ الجريمة والفرار ﴾

فاحب عمرو ان يجرب ذلك فبعث الى خولة فلما جاءت سألها عن رأيها في قطام

فقالت مثل قول عبد الله تقريباً

فقال لها عمرو « اني والله لاعجب من هذا التوارد وانهُ دليل صريح على طيب عنصركما وقد كنت لو اردتما قتلها قتلتها لانها شريرة تسفق المنتق . فارى اذاً ان اسجنها في سجن مظلم لتذوق جزاء ما جنتهُ يداها »

ثم نادى غلامهُ فحضر فامرهُ ان يذهب قطام الى سجن مظلم وان يأتي بالعجوز اليهِ فذهب الغلام ثم عاد وعلى وجههِ امارات البغتة

فقال لهُ عمرو « ما وراءك هل فعلت ما قلتهُ لك »

قال « كلاّ يا مولاي »

وقال « ولماذا »

قال « لاني وجدت الغرفة مفتوحة وليس فيها غير عجوز المرأة العجوز »

قال عمرو « وقطام ؟ »

www.marefa.org

قال « لم أقف لها على أثر »

فصاح عمرو « تبًّا لتلك اللعينة الخائنة هيا بنا نتخلص الامر بنفسنا » قال ذلك واسرع لساعته وتبعه عبد الله وخولة حتى أتوا باب الحجرة التي كانت قطام محبوسة فيها . فاذا بتلك العجوز المسكينة صرعاء هناك لا حراك لها . فارسل عمرو الى طبيبه ليتفحص سبب وفاتها فجاء وبعد الفحص قال انها ماتت خنقًا بعد جهاد ودفاع لانه رأى في فيها حجرًا ملفوفًا بمنديل كان القاتل سدّ به فاها لئلا تستغيث فيسمعها الخفراء فيكتشف امره

فقال عمرو « ومتى كان ذلك »

قال « آنفًا وقع في منتصف الليل او نحوه »

فحوّل عمرو انظاره الى باب الحجرة وتأمل خلعة فتبين له انه خلع من الخارج لانه رأى آثار معالجتهِ بادوات من الخارج . فقال « يظهر ان قطام ليست وحدها القاتلة لان يدًا عالجت الباب وفتحته فمن فعل ذلك يا ترى »

وكانت خولة لما رأت لبابة ماثلة وقطام قد نجت اسفت لما كانت تخشى من العثور عليها وتضاعفت نقمتها عليها ولو حضرت بين يديها في تلك الساعة لقتلتها بيدها

وكان عبدالله يشاركه عمرًا بالبحث فلما رآه يبحث عمن خلع الباب التفت لساعته وقال « لقد كشفتُ الغامض وعرفت القاتل انه ريحان عبد قطام فقد شاهدته في دار الامير بالامس قبل المحاكمة ولم اسمع الامير امر بالقبض عليه . انه احتال بخلع الباب وساعد سيدته على قتل العجوز انتقامًا لها او خوفًا من لسانها »

فصاح عمرو للحال « لقد اصبت كبد الحقيقة انه ذلك العبد بعينه ثم أمر بالجملة فحملت ودفنت وعاد الجميع آسفين لنجاة تلك الخائنة من بين ايديهم ولكنهم عزوا انفسهم بصفاء المودة بينهم وخصوصًا خولة وعبد الله فانهما كانا يتوقعان قدوم سعيد ولا ينقص عيشهما الاّ فرار قطام ومقتل الامام على ان عمرًا عوّل على البحث عنها ومعاقبتها

www.marefa.org

الفصل الخامس والمائة

﴿ غوطة دمشق ﴾

اما بلال فلما بعثه عبدالله ليتربص مع سعيد في الكوفة سار الى دمشق فرأى سعيداً باعتظاره هناك فاحكي له ما قرّ القرار عليه واستعفاه للمسير الى الكوفة فاستمهله يومين ربثما يقضي بعض الحوائج . وفي اصيل اليوم الثاني حملا احمالها وخرجا على حاميها على ان يبيتا تلك الليلة في غوطة دمشق ويصبحا في اليوم التالي على طريق الكوفة

وفي خروجهما من باب المدينة لقيهما رسول عبدالله الخادم لاستعدامها الى القسطاط وهو يعرف بلالاً فاوقفه ودفع الكتاب الى سعيد فقرأه سعيد وهولا يصدق لعظم ما نالهُ من الفرح للقبض على قطام مع رضاء عمرو وماتوعده من شوق خولة اليه

اما بلال فتاسف للقبض على قطام في غيابه مخافة ان يعلموا عن قتلها او ان يقتلها احد سواه وهو يود ان يقتلها بيده ليشفي منها غليلهُ

فقال سعيد للرسول « كنا خارجين الآن الى الغوطة لنبيت فيها ونصبح الى الكوفة فأرى بعد ان حملنا احمالنا ان نظل في طريقنا الى الغوطة فنبيت هناك ونصبح في الغد نلتمس القسطاط » فساروا جميعاً حتى وصلوا بعد الغروب الى بحيرة صغيرة حولها اشجار التفاح والمشمش والسفرجل والخوخ تخللها اشجار الحور وقد علت ثمنة الضفادع يخالها حفيف الاشجار وصفير الصراصير ونعيب الريح وتغريد الطيور ما يشرح الصدر ويبدد مثالة في غير تلك الغوطة

فحطوا احمالهم واشتغل بلال ورفيقهُ باعداد العشاء ما حضر ولا يحلو الطعام هناك الا بالفاكهة

وكان بلال يعرف صاحب ذلك البستان وقد نزل عنده ليلة قدومهِ من القسطاط فترك سعيداً والرسول ومشى بين الاشجار تحت جنح الظلام يلتمس بيت البستاني . ولم يمش برهة حتى اخطأ الطريق لتكاثف الاشجار وجعل يتلمس في مسيرهِ وهولا يزداد الا ضلالاً وبعداً حتى اصبح بينهُ وبين رفاقهِ ميل او بعض الميل وهولا يدري فوقف يتفرس من

www.marefa.org

بين الاشجار لعله يرى نوراً او يتبين المنزل من وراء الافق . ولبث برهة يعمل فكرته ويحاول ان يعرف الجهة التي ترك فيها رفاقه لكي يعود اليهم ولو بلا شيء

وفيما هو يفكر وقد عم الجو وسكنت الطبيعة لا يسمع فيها غير نقنقة الضفادع عن بعد واذا بصوت اجلة وهو جعير جمل عقبه جعير جمل آخر فعلم ان الناديين ركبوا امسى عليهم المساء قبل الوصول الى المدينة . فمكث ينتظر وصولهم ليخاطبهم ويستلهم منهم عن الطريق . وكان قد اسند ظهره الى شجرة فتطاول بعنقه وتصمت ليحقق الجهة التي سمع الصوت منها فسمع لغطاً وكلاماً استلفت انتباهه فاصاخ بسمعه فاذا بلالل يقول « دعنا ننزل هنا يا ريحان فاذا اصبحنا دخلنا دمشق لاني أخاف ان يستغشونا اذا دخلناها في الظلام . . . الا نظل في امان هنا ؟ »

وسمع الجواب « نعم يا مولاتي »

فاقشعر بدن بلال عند سماعه ذلك الصوت وقد ادرك لاول وهلة انه صوت قطام وخصوصاً لما سمعها تخاطب ريحان بما يازعه خوف . وتحقق للحال انها آتية فراراً من سجن القسطاط

الفصل السادس والمائة

﴿ النزول ﴾

وكانت قطام لما أُرسلت الى سجنها قد حقدت على لبابة كما قد علمت . ونظراً لما فطرت عليه من اللؤم والقساوة لم يكن اهون عليها من قتل لبابة ولم تعبأ بما كان لها في خدمتها من التعب . وكان ريحان يومئذ واقداً في دار الامارة فلما رأى سيدته ولبابة سائرتين مخمورتين علم انهما في ضيق فراعى النوم بعينه حتى عرف الحجرة التي حبسوها فيها . وشمل فكرته لانقاذها . وكانوا عند اول وصولهم القسطاط قد نزلوا في دار الامارة فاحتال في اخراج الجمال والامتعة الى مكان خارج القسطاط . ولما توسط الليل غافل الناس وجاء الى سجن قطام وقد عهأ لمعالجة الباب . فسمع لغطاً فاذا هو خصام احتدم بينها وبين خادمتها . فاستعجل في

www.marefa.org

فتح الباب بالعنف ودخل فلما رأته قطام أشارت اليه ان يساعدها على قتل لبابة فصاحت هذه « ترباً لك يا ظالمة يا فاجرة اني اتوب الى الله عما ركبت في سبيلك من الذنوب . واما انت فلا نجاك الله من عواقب آثامك و . . . . » فاندفعا وريحان حالاً فسدّ فاها وخنقها وخرج بسيدتهِ من باب كان قد عرفهُ واسترضى بوّابهُ . فلما بعد عن النسطاط تحول بها الى مأمن كان قد اعدّه عند موقف الجمال . فركبا وهي تثني على شهامتهِ . فخيّرها في الجهة التي تسير فيها فاختارت دمشق لان فيها اناساً من اهلها كانوا قد هجروا الكوفة بعد واقعة النهروان وفشل الخوارج واقاموا في دمشق

فسارا حتى اتيا الواحة في تلك الليلة بعد وصول رسول عبد الله بضع ساعات كما قد رأيت . وكان بلال لما تأكد انهما قطام وريحان لم يعد يعلم كيف يفرح . وقال في نفسهِ لقد اجاب الله سؤلي . وايم الله اني ساذيقها الموت بيدي هذه . وجسّ منطقتهُ فرأى الخنجر فيها . فلبث مستظلاً بالشجرة لير ما يكون منهما . فاذا هما قد سارا خطوات قليلة حتى اتيا الى قناة لاخضرار مائها كثير وبجانب القناة شجرة من الصفصاف يستظل بها المارة في اثناء النهار . فحوّلا عن الجملين وضرب ريحان النوبة كالعادة واوقد النار ثم قال لمولاتهِ « استريحي ياسيدتي ريثما أُلاقي البستاني وآتي اليك ببعض الزاد والفاكهة واشتوي هنا في مأمن »

قالت « سر ولا تطل الغياب »

قال « حسناً » وانصرف

الفصل السابع والمائة

﴿ على الباغي تدور الدوائر ﴾

وكان بلال واقفاً ينظر اليهما . فلما رآه توارى نظر الى قطام على بصيص النار فاذا هي فاتنة وقد كشفت عن وجهها وعنقها وشمرت عن ساعديها ثم رآها نبضت وضفائرها مدلاة على كتفيها وظهرها وفي اطراف الضفائر دنانير معلقة اذا تصادمت اثناء المشي سمع لها رنين . ومشت الى حافة القناة وملأت جرتها وخلاخلها تختشخشان . فخاف

www.marefa.org

بلال اذا ابطأ ان تفوته الفرصة فوثب عليها وهي تهمّ بالجلوس على حافة الفناة وامسك بطوقها وجذبها اليه فوقعت على قفاها فجثا على صدرها . فصاحت « ريحان » وقبل ان تتم كلامها وضع بلال قبضته في فيها وقال لها « لم يبق لك في هذه الحياة الاّ دقائق قليلة فاعطني قبل ان تفارقيها التي بلال خادم خولة وسعيد واني منتقم للامام علي » فاشارت اعينها انها تريد الكلام فاستلّ الخنجر وصوبهُ الى عنقها وقال لها « تكلمي بهدوء واذا رفعت صوتك اغمدت هذا الخنجر في عنقك »

قالت « ارحمني يا بلال واشفق على حياتي »

قال « لا يرحمني الله ان رحمتك واسترقد ضافرت ابن ملجم وحرضتهُ على قتل الامام علي . واردت قتل شابين من خيرة الشبان . ولكن حيلتك لم تنطل فيها . واخيرًا جئت السقاط لاغراء أميرها على خولة . كيف ارحمك يا خائنة »

قالت « ذلك قد مضى يا بلال وانا تائبة فاعفُ عن قتلي ولك كل ما املكهُ »

قال « هل يعوض الفر[1] . واما العفو عن قتلك فوالله لو عرفتُ قصاصًا اعظم من القتل لقاصصتك به لان القتل قليل على فاجرة خائنة مثلك »

فهمّت ان تجيبهُ فادرك انها تماطلهُ ريثما يعود ريحان

فقال لها « اعلمي يا فطام اني قاتلك انتقامًا للامام علي » قال ذلك واغمد خنجره في عنقها واسرع فاحتز رأسها وترك الجثة ولها شخيرٌ ما زال يرن في اذنيهِ الى مسافة بعيدة . وكان لما رأى تلك الفناة قد عرف الطريق المؤدي الى مقر سعيد فانسلّ بين الاشجار وقد أمسك الرأس من جدائلهِ وتركهُ يتدلى والدم يقطر منهُ

الفصل الثامن والمائة

﴿ الفاكهة الغريبة ﴾

فلما وصل بلال الى سعيد والرسول الجديد كانا قد استبطآهُ وانشغل خاطرهما عليهِ . فلما سمعا وقع اقدامهِ صاح سعيد فيهِ قائلاً « ابن الفاكهة يا بلال لقد ابطأت وغلب علينا الجوع »

www.marefa.org

فلم يجبه بلال وأمكنه ظل ماشياً حتى وقف امامه و رمى الجمجمة بين يديه وقال « هذه فاكهتي »

فاجفل سعيد ونظر فاذا هو رأس قطام باقراطو وضفائره واستغرب امره فسأله عن تفصيل الخبر

فقال « ليس هذا وقت السؤال هلموا بنا نخرج من هذه الغوطة الآن فاذا أمنّا من عيون الحكومة اخبرتكم الخبر »

فنهضوا ولم الى تلك الساحة لم يذوقوا طعاماً وركبوا جمالهم واستحثوها جهد طاقتهم ولم تزد يصعدون تلاً او ينزلون غوراً وآونة يغوصون في الماء وطوراً يدوسون الاشواك او تتصادم رؤوسهم واكتافهم بغصون الاشجار حتى انتصف الليل فانتهوا الى سهل قليل الاعراس وقد بعدوا عن دمشق فواصلوا السير الى الفجر فتحققوا انهم أمنوا العيون

فجلسوا للاستراحة على مصطبة بالقرب من عين ماء جارية وسعيد في شوق شديد الى سماع تفصيل ماتل تلك المرأة

فقص بلال حديثه وقلبه يرقص من شدة الفرح · وانما لاسباب سروره استخرج الجمجمة من جراب كان قد حملها فيه ووضعها على المصطبة بين يدي سعيد · وكان شعرها قد تجبل بالدم والعينان مطبقتان والشفتان مفتوحتان عن اسنان كاللؤلؤ ومعظم الجمال لا تزال تتجلى في محيا تلك المرأة مع صفاء اللون واصفراره وما تلطخ به من الدماء

الفصل التاسع والماية

الموت عبرة الاحياء

فمد سعيد يده الى جبين تلك الجمجمة ولمسه فاذا هو بارد كالثلج فقال « امستُ ماشه كانه سبحانه وتعالى قد كتب في ان لا المس هذا الجبين الاّ وهو ميت مع شدة رغبتي في لمسه منذ اعوام » ثم وجّه خطابه الى الجمجمة وقال « أأنت قطام بنت ضحنة وقد طلبتِ دماءنا فكرك على مئات من الرجال · أبهاتين العينين فتنتِ

ابن ملجم كما تتمنى . وبهذين المفتيين عقدت له على نفسك اذا قتل الامام كما عقدت لي . انك ستلاقيه عاجلاً وستلاقي ان عليًّا في مكان لا تخفى فيه خافية . في مكان تقال فيه كل نفس جزاء ما صنعت ان خيرًا وان شرًّا »

ثم التفت الى بلال وقال « ماذا تعمل بهذا الرأس »

قال « نحمله الى الفسطاط لاضعه بين قدمي خولة ذلك الملاك الطاهر »

« قال لا اظنها تسرُّ بهذا المرأى ولا اما سروت به . وزد على ذلك ان هذه الجبهة لا تصل الفسطاط الاَّ بعد ان تنتن وتتصاعد عنها رائحة تنفر منها النفس »

فاطرق بلال هنيهة وهو يتأسف لعدم استطاعته حمل الرأس الى خوله ثم قال « فاسمح لي اذًا ان احمل علامة منهُ »

قال « وما هي تلك العلامة »

قال « اقطع منهُ الاذنين وفيهما الاقراط وأقصُّ هذا الشعر وفيه الضفائر الذهب »

قال « لك ذلك فافعله »

فاشتغل بلال في ذلك على ان يستريحوا هناك ويتناولوا الغداء ويعزموا على الفسطاط

الفصل العاشر والمائة

﴿ اذا سقط اللئيم لا يلقى نصيرًا ﴾

اما ريحان فانهُ عاد من عند البستاني بعد قليل وقد اعدَّ كل ما تراح اليهِ سيدتهُ من الفاكهة والاطعمة وامر البستاني ان يشوي بعض اليمام . ولما دنا من الخيمة سمع شخيرًا كشخير النائم وكانت قطام اذا نامت شخرت وهو يعرف فيها ذلك . فقال في نفسهِ يظهر انها لم تنم تلك عن النوم من شدة التعب . ودنا منها فاذا هي بجانب القناة والظلام حالك والنار التي اوقدها قد خمدت فلم ينتبه لخامها فقال في نفسهِ لانيرنَّ الشمع واعدُّ المائدة ريثما تبرق فانار الشمعة ولاحت منهُ التفاتة الى سيدتهِ فرآها تتحرك فاقبل اليها فاذا هي تختلج اختلاج النزاع وقد اصبحت جثة لا رأس

www.marefa.org

ورأى دمها قد عكّر الفناة . فبغت واظلم وجهه ووقف لحظة يفكر في من عسى ان يكون قد فعل ذلك فقال في نفسه « لا يخلو ان يكون ذلك قد حدث بايعاز عمرو بن العاص والقاتل قد فرّ الآن ولا سبيل اليه . فاذا انا صحتُ وجمعت الناس لا اظن التهمة الاّ واقعة عليّ »

فتحير في امره ثم تذكر ما ارتكبته قطام من الفظائع كأنّه يحاول ان يلتمس لنفسه عذرًا اذا تخلى عنها . فرأى انها ارتكبت عظائم تستحق القتل على كل واحدة منها . وتذكر ما وراءها من المال الكثير والمصاغ الثمين وانه هو وحده يعرف مخبآتها في الكوفة . فطمع في اكتساب ذلك الميراث وعزم على اغتنام هذه الفرصة فهمّ بما عليها من الحلي فاستخرج الاساور والدمالج من يديها والعقود من عنقها وجمع ما في جيوبها وصناديقها من غالي الثمن وخفيف الحمل . وتركها تخبط بدمها ولسان حاله يقول « ذلك هو جزاء القوم الظالمين » ودخل الشام في الصباح التالي فاشترى اثوابًا تنكر فيها وقصد الكوفة فاستخرج ما خبأته قطام هناك من الاموال واتاع لنفسه ضيعة اقام فيها الى آخر حياته

واما الوردان فكان قد اعدّ الطعام وحمله وفيه الجبن والفاكهة والخمر في سلّ وجاء الى موضع الخيمة وهو مسرور بتلك الضيعة لانها كانت كريمة لعلي الناس يستغاث . ولكنه ما وصل الخيمة حتى رأى الحال كما ذكرنا وليس هناك الاّ جثة قطام وكانت قد هدأت وسكن تخورها واختلاجها . فلا نسل عن روعه لما رآها في تلك الحال . فقال في نفسه « لا بدّ من جماعة اقوياء تجرأ على هذا العمل وقد فعلوا ما فعلوا وخجلوا بانفسهم واذا انا اظهرت هذه الجثة جلبت لنفسي البلاء فما لي الاّ ان احفرلها حفرة اخفيها فيها » فاشتغل بالحفر وهو يحاذر ان يراه احد او يسمع حسيسه بعمله . ثم دفن الجثة واخفى آثار الدماء وحمل كل ما بقي من الامتعة الى بيته وساق جملاً كان باقيًا هناك وكتم تلك الحادثة وما زالت مكتومة الى الآن

www.marefa.org

الفصل الحادي عشر والمائة

الوصول الى الفسطاط

اما وفد الفسطاط فلما اشرفوا على المدينة من سفح المقطم ظهر لهم جامع عمرو في وسط المدينة كالبدر بين الكواكب فاستعجلوا الرسول البشير بالذهاب الى عبد الله ليتهيئة برجوعهم واوصوه ان لا يذكر له خبر قطام

اما عبد الله فكان قد خلا له الجو وصفا له قلب الامير ولكنه ما زال مشغول الخاطر في امر سعيد وكلما تذكر فرار قطام من بعلها انقبضت نفسه وكلما لقي خوله تحادثا بما مرّ بهما وذكرا سعيداً والتمسا سرعة وصوله وعبد الله يدبر الحيل ليخبره بو عن حقيقة حالو مع خوله

وفيما هو جالس ذات صباح في غرفتو بدار الامير اذا برسولو قد اقبل وعليو علائم السفر فصاح بو « ما وراءك »

قال « ورائي سيدي سعيد وبلال »

قال « واين هما »

قال « تركتهما في سفح المقطم قادمين وجئت لابشركم »

قال اهلاً بالقادمين ونهض لساعتو وخرج على فرس أُسرج له ولم يكد يخرج من الفسطاط حتى التقى بسعيد وبلال على جملين فترجل بلال للحال وقبّ يد عبد الله فقبلها

فقال عبد الله « بورك فيك يا اسمر وبورك بشهامتك » وهمّ سعيد ان يترجل فاشار اليو عبد الله ان يبقى على جملو لينزلا معاً في دار الامارة

فمشوا وسعيد يتبسم فقال لو عبد الله « ما الذي يضحكك »

قال « يضحكني اننا ذاهبون الى دار عمرو بن العاص وقد كنا بالامس نحاذر ان يسمع بنا او يرانا »

قال « لله في خلقو شؤون » ثم قال بصوت خافت كانو يحاذر ان يسمعو احد « لو اراد الله نجح مسعانا ونجا الامام علي كرم الله وجهه لما همّنا النزول في هذه الدار »

www.marefa.org

فقال سعيد « لا تذكرني ذلك الحادث الفظيع فقد شهدته بنفسي ورأيت ابن ملجم اللعين بأم عيني يضرب الامام بذلك السيف المسموم وقد كان بيننا وبين انقاذه لحظة لو اراد الله لعجلها . ولكن الآجال مرصودة باوقاتها »

قال « ولكن الله سيجزي الظالمين واما نحن فقد صرنا الآن من حاشية ابن العاص وهو والحق يقال من دعاة العرب وكبرائهم وكبار قوادهم »

الفصل الثاني عشر والمائة

﴿ المداعبة ﴾

وتمادينا في امثال ذلك حتى اقتربنا من الدار فقال عبدالله « لم اسمعك تذكر خولة .. هل نسيتها »

فابتسم سعيد وقال « كيف انساها وانا انما جئت لقصدها »

قال « وماذا تلتمس منها »

قال « لا ادري ... »

قال « اظنك تدري والاّ فاعلم ان خولة الآن قريبتي زوّجني بها عمرو وكتب كتابي عليها باسمه »

فضحك سعيد وهو يظن ان عمرة يمازحه ...

فتظاهر عبد الله بالجد وقال « يظهر لي انك لم تصدق قولي فاقسم بالله وتربة ابي رحاب ان خولة قد رفّت اليّ وكتب العقد على يد الامير . واذا كنت لا تصدقني فاسأل كل من في هذه الدار عن ذلك »

فقلبت الشهامة على سعيد ولم يسعه الآ ان قال « وما يمنع ان تكون زوجة للشاب يورك لك فيها . انست اخي ورفيقي وابن عمي »

قال ذلك وهو لا يزال يشك بما سمعه لعلمه باخلاق عبد الله

ووصلا الى الدار فترجلا وسارا توًّا الى غرفة عبد الله وبعثا الى عمرو فقدم عليهما فأمر ان يستقبل سعيد في غرفة خاصة ويبعث الى خولة ووالدها فلما جاءا

www.marefa.org

اقبل عمرو الى تلك الغرفة وقد اجتمع فيها الجميع وبلال واقف خارجًا فلما دخل عمرو تقدم سعيد لتقبيل يده والسلام عليه فرحب به ودعاه للجلوس

فقال سعيد « اذا اذن مولاي فليأمر عبده بالاذن بالدخول لحضور هذه الجلسة »

فامر بدخوله فما زوى في بعض جوانب الغرفة متأدبًا وفي يده جراب من جلد

وكان سعيد ينظر الى خوله من تحت النقاب و يفكر في ما سمعه من عبد الله وهو يتردد بين الشك واليقين

فلما استتب بهم الجلوس خاطب عمرو سعيدًا قائلاً « اظنكم تتوقعون ان نروا قطامًا سجينة »

فقال سعيد « نعم يا مولاي »

قال « ولكنها فرّت من السجن وزادت ذنبها عظمًا بقتل خادمتها . وكنا قد اردنا اسقاءها مسجونة . اما الآن فاذا ظفرنا بها لا قصاص لها عندنا غير القتل »

الفصل الثالث عشر والماية

جائزة مئة دينار

فلم يمالك سعيد عن الابتسام وقد ندم لانه لم يصرح بالامر لما سالهُ عنهُ عمرو وعمَّ بالكلام فاعترضهُ بلال مستأذنًا . فسكت . فتقدم بلال الى عمرو وجثا بين يديهِ والجراب بيدهِ وقال « استعطف مولاي ان يأذن لي بكلمة اقولها »

قال « قل »

قال « كيف ترجون القبض على قطام وانتم لا تعرفون مقرّها »

قال « نُطمع الناس في البحث عنها بمال كثير »

قال « كم تسمح نفس الامير لمن يقبض عليها »

قال « نعطيهِ مئة دينار »

قال « اتشترط ان يؤتى بها حية »

قال « لا فرق جاء بها حية او ميتة »

www.marefa.org

قال « واذا جاء بخبر قتلها »

قال « نقبل منه ذلك بشرط ان يأتينا بما يثبت قتله اياها »

فاخذ بلال بجلّ الجراب وهو يقول « فليأمر مولاي الامير بمن يدفع لي مئة دينار » وما تمّ قوله حتى افرغ الجراب بين يدي الامير فتناحت الرائحة وظهر الشعر الملطخ بالدماء . وبلال يحث فيه باصبعه حتى وجد الاذنين وفيها الاقراط

فاجفل عمرو وسائر الحضور لذلك المنظر واشمأزت نفوسهم من تلك الرائحة الكريهة وصاح فيه عمرو « ويلك ما هذا »

قال « هذا هو شعر قطام ملطخًا بدمها . وهذه اذناها واقراطها . واذا احرجتموني جئتكم براسها . فاني انما تحملت هذه اجابة لامر مولاي سعيد » قال ذلك ووقف وهو يشير برأسه الى سعيد

فقال سعيد « نعم يا مولاي انا اشهد ان بلالاً قتل قطامًا وحده واحتز رأسها وجاءني به وهو ينوي حمله اليكم فاشرت عليه ان يكتفي بهذه العلامة تخلصًا من مئونة تلك الزمة »

وكان الحضور قد هبطوا وهم ينظرون الى الشعر والاذنين فاشار عمرو الى بلال ان احمل هذه الاقذار من هنا . فاعادها الى جرابه وانتحى

فقال له عمرو « لك علينا مئة دينار »

فحنى رأسه شكرًا وامتنانًا وقال « اني اشكر مولاي الامير على نعمته ولكنني اعترف له بانني لم اقتل هذه الخائنة ظلمًا مجازرة وانما قتلتها انتقامًا للحق » واراد ان يتصل بما اجملهُ فاتمه انهُ لا يجوز ذكر الامام علي هنالك فاكتفى بما قالهُ

وبهض عبد الله فقال « بورك فيك يا بلال » فاقتص علينا الخبر اذا امر الامير

فقال عمرو « اقصصهُ »

فقصهُ من اولهِ الى آخرهِ

www.marefa.org

الفصل الرابع عشر والماية

﴿ الطلاق والزواج ﴾

فاثنى الجميع على شهامته وخصوصاً خولة . وتذكرت ان والدها كان ناقماً عليها من اجله فاغتنمت تلك الفرصة لاكتساب رضاه عنها فقالت « يا بلال لتقدم باذن الامير وقبل يدي سيدك » واشارت الى والدها . فتقدم بلال للحال وقبل يده فاثنى عليه فعاد الى موقفه . وكان الحديث قد انقضى ولم يبق غير الانصراف

فوقف عبد الله والتفت الى عمرو وقال « اشهد ايها الامير ان امرأتي هذه طالق مني ثلاثاً » واشار الى خولة .

فانذهل سعيد لما كان سمعه منه فتحقق انه كان معقوداً له عليها . فعلته البغتة واخذته الحيرة فيه ذلك فقال « طب نفساً يا سعيد ان خولة لا تزال بكراً وانما طلقها عبدالله صورةً كما تزوجها صورة » والتفت الى ابي خولة وقال له « اني اخطب خولة منك لسعيد »

فقال ابو خولة « هي جاريتك يا مولاي فافعل بها ما تشاء »

فخجلت خولة لتلك المعاوضة بين يديها واطرقت

وامر عمرو فكتب الكتاب في الحال وهنأها بذلك القران وامر لبلال بالمال الذي وعده به وانصرف الجميع الى بيت خولة بعد ان ودعوا عمراً وشكروا صنيعه بها

وبعد ايام استاذن عبد الله سعيداً في الذهاب الى مكة للقيام مع اهله وتدبير تركة جده فاذن له بالرغم عنه . فانصرف وودع خولة ووالدها والامير عمراً وسار الى مكة واقترن هناك بابنة عم له وعاشوا جميعاً عيشاً لا يشوبه من النغص الا الافتكار بمقتل الامام علي . وزاد لتغيصهم ما سمعوه بعد ذلك من تنازل الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن ابي سفيان . فخرجت الخلافة من اهل البيت وصارت الى بني امية . ولما فعل الحسن ذلك حجبا للدماء ولم يتولَّ الخلافة الا سبعة اشهر فانتقل كرسيها من الكوفة الى دمشق وما زال فيها الى انقضاء دولة بني امية .

﴿ تمت الرواية ﴾

www.marefa.org

﴿ روايات تاريخية اخرى تأليف مؤلف هذه الرواية ﴾

(١) ﴿ فتاة غسان ﴾ هي الحلقة الاولى من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تشرح حال العرب في آخر جاهليتهم وادل اسلامهم مع ذكر عوائدهم واخلاقهم الى فتوح الشام والعراق وهي جزآن ثمن كل جزء عشرة غروش والبوسطة غرش ونصف

(٢) ﴿ ارمانوسة المصرية ﴾ (طبعة ثانية) هي الحلقة الثانية من سلسلة روايات تاريخ الاسلام تاريخية غرامية تشرح حال مصر لما فتحها المسلمون سنة ١٨ للهجرة مع عوائد اهلها واخلاقهم وازيائهم . ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرشان

(٣) ﴿ عذراء قريش ﴾ هي الحلقة الثالثة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الخليفة عثمان ووقائع الجمل وصفين والتحكيم والخوارج الى مقتل محمد بن ابي بكر ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٤) ﴿ ١٧ رمضان ﴾ او الحلقة الرابعة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وهي تاريخية غرامية تتضمن مقتل الامام علي وتفصيل امر الخوارج وخروج الخلافة الى بني امية ثمنها عشرة غروش واجرة البوسطة سنون بارة

(٥) ﴿ الملوك الهارد ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية ادبية تتضمن حوادث مصر وسوريا في زمن المغفور له محمد علي باشا والامير بشير الشهابي ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش ونصف

(٦) ﴿ اسير المتهدي ﴾ رواية تاريخية غرامية تتضمن حوادث عرابي والمهدي وحادثة سنة ١٨٦٠ في دمشق . ثمنها ١٠ غروش صاغ واجرة البريد غرشان (طبعة ثانية تحت الطبع)

(٧) ﴿ استبداد المماليك ﴾ (طبعة ثانية) رواية تاريخية تتضمن حوادث آخر القرن الثامن عشر ثمنها ٨ غروش واجرة البوسطة غرش واحد

(٨) ﴿ جهاد المحبين ﴾ رواية ادبية غرامية ثمنها ٦ غروش صاغ واجرة البوسطة غرش ونصف

« وتطلب هذه الكتب من مكتبة الهلال بالفجالة بمصر »

www.marefa.org

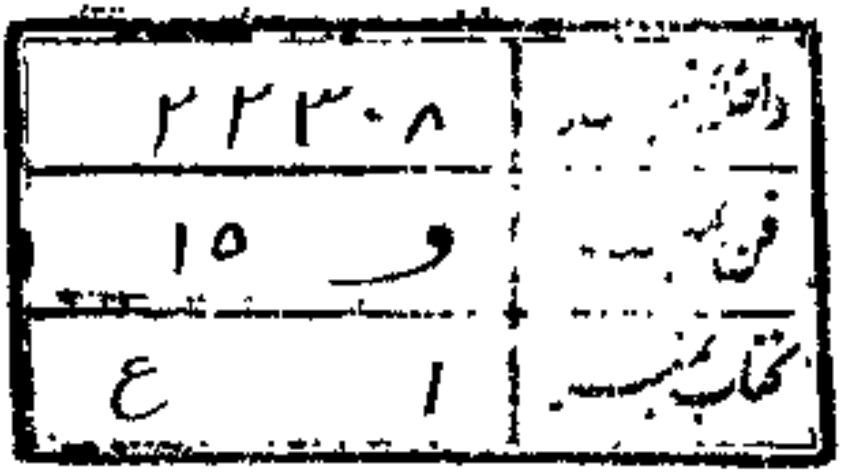

www.marefa.org